رهيف فيّاض

من العمارة إلى المدينة




منتدى سور الأزبكية



من العمارة إلى المدينة

رهيف فياض

•

من العمارة إلى المدينة

دار الفارابي

الكتاب: من العمارة إلى المدينة
المؤلف: رهيف فياض
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2010
ISBN: 978-9953-71-513-1

مقدمة

●

بين عمران المدينة
وبنيان الكتابة

محمد دكروب

عندما تقرأ مقالات المعمار رهيف فياض، في كتابه هذا، وفي كتبه التي أصدرها قبله، يجابهك السؤال نفسه، ولو بأشكال متعدّدة، حسب كل مقالة وحسب موضوعها: هل أقرأ أدباً إبداعياً أم أقرأ كتابة متقنة في أمور العمارة والعمران وكيفيّات تنظيم المدن والضواحي والبلدات والقرى؟

فالهاجس المعماري، البنائي، موجود دائماً في نسيج بنيان المقالة نفسها: تَتَابُع الصور، وجماليات اللغة، والتركيب البنائي للمقال: (من مدخلٍ، إلى طرائق طرح

الإشكالات، إلى الاقتراح، فالوصول إلى الأفق الرحب، أو: ربط حلّ الإشكال العمراني بتحوّلات القضية الاجتماعية أو تعقيداتها).. أستطيع القول: إن بنيان المقالة هنا أقرب إلى بنيان القصة القصيرة في النتاج الأدبي. بل إن بعض المقالات ـ (كما في المقالات التي تروي مراحل تحوّلات بيروت: من تناسق العمران إلى التشوّهات التي طرأت وتطرأ على هذا العمران) ـ أقرب إلى الكتابة الروائية، حيث تتحوّل العمارة، والساحة، والمجال، والشارع، والطرقات الفرعية، والحدائق في وجودها أو اضمحلالها... هذه البناءات كلها تتبدّى في كتابة المعماري رهيف فياض كأنها شخصيّات روائية لها حياتها وأدوارها وصراعاتها وصولاً إلى ما أطلق عليه فياض صفة العمارة المقاومة أو المنهج المقاوم في العمران.

وعبر حديثه، التصويري التحليلي، عن العمارة والعمران، يدخل بك رهيف فياض إلى مسارات الصراعات الاجتماعية المتشابكة عضوياً بالواقع الاجتماعي والمواقف، والتي تجد تعبيراتها في أنماط العمارة وأنواعها، سواء تلك الأنماط المجلوبة القامعة التي يزرعونها في غير مكانها، أم تلك الأنواع من العمارة المتجذّرة في الأرض والمسارات التاريخية للعمران، المتآخية مع المحيط والمتآلفة مع الطبيعة والاجتماع ومتطلّبات البشر والذوق الجمالي.

وأستطيع القول، أيضاً، إن الكتاب كله يتخذ لنفسه هذا البنيان الأدبي الفنيّ: من مدخلٍ يضعك في مواجهة

الإشكاليات، إلى احتدام الإشكاليات العمرانية والهندسية التي هي، في واقعها، تعبيرات عن صراعات ومواقع اجتماعية، إلى صياغات للرؤى العامة للكاتب/المعمار التي تنفتح على خلاصات لموضوعات أثارها وطرحها الكاتب عبر فصول هذا الكتاب الغني والجميل والمشوّق أيضاً كما أحبّ أن أقول.

***

يدخل بنا الكاتب إلى موضوعات كتابه هذا عبر الدخول إلى "السراي الحكومي الكبير" أيام وجود رفيق الحريري فيه رئيساً للوزراء.

وإذ نصعد مع الكاتب الدرج العريض إلى البناء الكبير، القامع، في أعلى تلك التلّة المشرفة على بيروت، نرى، عبر عين الكاتب ـ اللاقطة ككاميرا سينمائية ذكية ـ الحواجز المنصوبة من مثلّثات حديدية إلى جنازير تسدّ معظم الطرقات التي تفضي إلى هذا البناء الكبير، ثم إلى نقاط التفتيش "الدقيق، العصري، الآلي، الفعّال واللائق" ـ حسب تعبير الكاتب ـ وهنا، يذكر الكاتب، كما أتذكّر أنا معه: إن السراي الكبير هذا لم يكن ـ قبل الحرب الأهلية المجيدة! ـ محاطاً بالحواجز والسدود، بل كانت أبوابه مفتوحة طوال النهار للناس يدخلون إليه، ويسعون عبر دوائره لتخليص معاملات لهم، وكذلك للناس الذين يتفرّجون، وأيضاً

للمتظاهرين الرافعين مطالب لهم الهاتفين لتحقيق هذه المطالب والهازجين لها بالصوت العالي.

اجتاز الكاتب/المعمار حاجز التفتيش ودخل إلى السراي الكبير الواسع جداً وشبه الفارغ، لمناقشة الموضوع الذي جاء للاشتراك بمناقشته.. الموضوع هو: "الاحتفال بإطلاق الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية".

كلام رسمي كثير، منمّق جداً. كلام رسمي يربط بإحكام بين بنود الخطة الشاملة وتطبيقها، وما يسميه هذا الكلام الرسمي ويشدد عليه بـ"الحسّ الوطني".. بهذا الطرح الفضفاض، الذي يربط تنفيذ الخطة بتزايد "الحس الوطني"، تريد الخطة، حسب الكلام الرسمي: "أن تنقذ الشواطئ، وأن توقف التدهور فيها، وأن تصون الآثار، وأن تحمي التراث"...

ولكن الكاتب/المعمار يؤثر أن يتجه نحو التحديد الواقعي للأمور والكلمات: فهل هذا "الحس الوطني" هو مفهوم عام واحد، وبالتساوي، بالنسبة لجميع المواطنين؟.. وعند اللبنانيين جميعاً دون تمييز؟.. فإذا تفحّصتَ الأمور كما يقضي علم الاجتماع وعلم الواقع والوقائع، تصطدم بالفوارق الكبيرة والهائلة في حقيقة مفاعيل هذا "الحس الوطني"، هكذا، ودون تمييز "بين مالك كبير ومَن لا يملك شيئاً، بين مستثمرٍ جشع، ومن لا يستطيع أن يؤمّن قوت عياله، بين معتدٍ على الشاطئ وعلى مياه البحر، ومن لا يستطيع أن

يصل إليهما، بين مسؤول متسلّط فاسد، وبين محكومين يدفعون الثمن ضرائب، وفقراً، وبطالة، وهجرة..".

ويظهر هذا التفارق واضحاً وصادماً، بين متخالفين، تجاه مشروع الخطة.. ففي حين تتجه إدارة مشروع الخطة إلى نوعٍ من انتقاد "ردم البحر (الإعماري)، في المطار، وفي سوليدير، وفي ضبيّة، الذي دمّر البيئة البحرية في مواقع مميّزة، وعطّل وحدة الشاطئ الطبيعية، وأفقده تواصله واستمراريّته. بالإضافة إلى نقل العديد من الهكتارات المربّعة من الأراضي الجبلية لردم البحر، مع ما سبّبه ذلك من تدمير إحدى ميزات لبنان الأساسية في محيطه وهي: جباله، وصخوره، وغاباته، والغطاء الأخضر الذي يكسوه"..

وفي حين تشدّد الخطة، بكلام إدارة المشروع، على "ضرورة الحفاظ على مناطق الثروة الزراعية الوطنية ووقف التعدّيات على الشاطئ، وحماية المواقع الطبيعية فيه، وضرورة حماية الملّاحات، وحرفة صيد السمك، ومرافئ الصيد الطبيعية الصغيرة"...

إذن، في حين تشير الخطة إلى هذا كله وإلى نواقص عديدة أخرى... يأتي الكلام الرسمي ـ عبر كلام رئيس الوزراء هذه المرة ـ بمفهومٍ آخر، نقيض، يُراد به طمأنة اللبنانيين بأن كل شيء حسنٌ و"كل شي ماشي"... ويتضمّن كلامه معارضة لما قاله مدير المشروع، ويوضح موقفه بالقول: "إن من يستمع إلى العرض الذي قدّمه مدير

المشروع، يخرج بانطباع، وكأن لبنان فارغ من كل شيء، والحقيقة ـ يقول رئيس الوزراء ـ إن لبنان بلد مليء بكل شيء. فعندنا الكثير من الأمور الموجودة، وهي بحاجة إلى تنظيمها أو توضيحها، وعندنا القليل من الأمور الناقصة، وهي بحاجة إلى عمل لاستكمالها...".

كل شيء إذن موجود، حسب قول رئيس الوزراء، ونحن ـ كما يؤكد ـ لسنا في فوضى عارمة... وكل ما هو موجود هو جيّد ينبغي استكماله، والخطة الشاملة لترتيب الأراضي عليها ـ فقط ـ أن تُكمل الموجود!!... إذن: لا مجال للنقد، للملاحظة، للتعديل، أو لإعادة التقويم، لا مجال لأي تصحيح!

... هكذا يجابه رئيس الوزراء الخطة المقترحة لترتيب الأراضي اللبنانية!

وينهي الكاتب مقالته الأولى هذه بسؤال إشكالي تراجيدي يتجلّى فيه الموقف الطبقي للجانبين: "هل علينا أن نرى في قول رئيس الوزراء دعوة صريحة لمحاصرة الخطة؟.. ولإفراغها من مضمونها؟.. ولتجريدها من كل ما هو إيجابي فيها؟.. وما العمل؟".

لم أقصد بهذا الشكل من تلخيص المقالة الأولى للكاتب أن أعرض فقط هذين المفهومين المختلفين للخطة الإصلاحية الواحدة (أي: ترتيب الأراضي اللبنانية) بل قصدت ـ أيضاً وبالأخص ـ إلى تبيان ذلك البناء الفنّي للكتابة، الذي أوصل

إلى هذه "الخاتمة" التي تُضمر المعنى العميق للقول، وتنفتح على إشكالات تنفتح بدورها على إشكالات جديدة متجدّدة.

فلنترك مسارات عمران المدينة، و"استكمال" هكذا عمران، لأهواء المتموّلين وشراسة البنيان المعولم "الجديد" الذي يحجب الناس عن الناس، ويحجب ناس المدينة عن الطبيعة، ويحجب المدينة (بيروت) عن بحرها؟..

ولكن "المدينة المطلّة على البحر تُنظّم ـ عادة ـ وكأنها مدرّج لمسرح روماني، تتوجّه كل مقاعده، وليس مقدمته فقط، نحو المشهد الذي أمامه وهو البحر"... فما الذي حدث ويحدث بفعل استئثار الرأسمال وأصحابه بما هو حق طبيعي لناس المدينة؟.. فقد توجّه المتموّلون "إلى بناء الأبراج على أطراف مياه البحر المردومة في قلب المدينة، حيث سيملكون البحر ويحجبونه بكبرياء عن الآخرين، حتى الساكنين في مرتفعات المدينة، فيحجب البحر عنهم برج يقوم على رصيف عين المريْسة بموازاة البحر".. والأبراج سوف يتتابع بنيانها على الشاطئ بحيث لا تكتفي هذه الأبراج بحجب البحر عن سكان ما خلف هذه الأبراج، بل ستتولّى المسابح المترفة حرمان السكان العاديين من الاستمتاع بالبحر أصلاً والسباحة فيه!!

يقدم لنا الكاتب ـ كما عبر كاميرا سينمائية ذكية ـ صوراً حيّة لمدينة بيروت من الجو ومن جوانبها وعبر حاراتها،

ولكن ليس فقط كما هي الآن، بل عبر تحوّلاتها التاريخية وترابط البنيان بالتحوّلات الاجتماعية وحالات السكان فيتجلى، بهذا، المعنى الواسع لكلمة "العمران" التي لا تعني العمارة فقط بل هي تعني ـ حسب ابن خلدون ـ عمران المجتمع بناسه وبنيانه وحركته وتناميه... وهنا يبذل الكاتب جهداً معرفياً دقيقاً حيث يصوغ تعريفات بما تعنيه أو تدلّ عليه كلمات، مثل: العِمارة ـ عَمَرَ المكان ـ عَمُرَ المكان ـ معْمور الخ.. ثم العمارة بما هي ثلاثية القيم: وظيفية، جمالية، رمزية..

ولكن ما يُبنى أو يُرمّم في وسط المدينة الذي تملكته شركة عقارية واحدة قامت على أنقاض حقوق الناس، والمالكين الأصليين لذلك النسيج الذي كان يشكّل عمراناً حقيقياً لوسط المدينة... أما هذا الذي يُعاد بناؤه أو يُرمّم فليس عمراناً، لا بالمعنى الخلدوني ولا بالمعنى الاجتماعي والحقوقي للعمران!

ذلك أن بيروت الآن ـ كما نراها عبر عين الكاتب ـ صارت "بلا حيّزٍ عام ملائم، بيروت بلا مركزٍ وبلا قلب، بيروت هذه هي مجموعة أحياء... خسرت بيروت ـ بما سُمّي إعمارها ـ حيّزها العام، عندما تملّكت شركة عقارية واحدة النواة التاريخيّة للمدينة، فألغت الشركة ساحة البرج (ساحة الشهداء)، الساحة التي رافقت المدينة في تحوّلاتها فتحوّلت معها الساحة إلى مكان اللقاء الوحيد لناس المدينة(...)

فخسرت المدينة، بهذا التملّك، قلبها، والحيّز العام فيها ومعظم المعالم الحاملة لذاكرتها الجماعية، فبدت وكأنها فقدت كل العناصر التي توّحدها مدينياً"... رُمّمت مباني شارع المعرض بإتقانٍ واضح، وبحرصٍ على التفاصيل، جعلتنا نخاف من لمسها مخافة أن نشوّهها.. رُمّمت بإتقان، فجاءت نظيفة لمّاعة، تندلق النظافة من شبابيك طوابقها العلويّة الفارغة ـ نظراً لما صارت عليه من ارتفاع فاحش في إيجارها للسكن ـ فكأنها رُمّمت لا لنسكنها، بل لإعطائها صفة مشهدية، متحفية، "فأفرغت نسيجها الاجتماعي بقوة السلطة وقوة المال. فالناس لا يسكنون المتاحف!" ليس من مقيمين اليوم في شارع المعرض ومعظم متفرّعاته، وكل الذين نراهم فيه هم عابرون!

انتُزع قلب بيروت من مالكيه ومن سكانه وشاغلي الدكاين.. والقلب لا يعمره العابرون، فصار قلب بيروت هذا بلا قلب!

***

على أن المعمار رهيف فياض يقدم لنا صورة أخرى، مختلفة، لإعادة الإعمار، حيث دمّر العدوان الإسرائيلي، بين تموز وآب من العام 2006، أبنية ومساحات واسعة من الضاحية الجنوبية. . وإذ طُرحت مسألة إعادة إعمار الضاحية

سرعان ما برز مفهومان لإعادة الإعمار: واحد يهدف إلى إعادة إعمار الضاحية عبر إعادة تنظيم بنيان الضاحية كلها، وما يقتضيه هذا من تهديم جديد لكل ما لا يتوافق مع مخطّط إعادة التنظيم والبناء!.. ومفهوم آخر يرى إعادة إعمار وترميم ما هدّمته الحرب بالفعل... "فالتدمير، رغم قساوته ووحشيته، هو تدمير موضعي محدود".. فلا بدّ أن تكون إعادة الإعمار محدودة أيضاً وموضعية، وإعادة ما تهدّم بما يقارب الأشكال والمساحات التي كانت عليها، مع ما يقتضيه هذا من تحديث لواجهات الأبنية، وذلك بالتعاون الدائم والتشاور والتوافق مع المالكين الأصليين والساكنين وأصحاب الحقوق، بحيث يعود السكان إلى ما ألفوه من أبنية ودكاكين ومؤسسات وشوارع وطرقات فرعية، فيظلّ أكثر هؤلاء الناس حيث كانوا يسكنون... أي يغْمرون هم الأمكنة نفسها بما تقتضيه الحقيقة الاجتماعية للعمران... فلا يُقتلع الناس من أماكنهم ولا يبتعدون هم عن هذه الأماكن، بل يشاركون هم في تحديث وتحسين وتصويب ما يحتاج منها إلى ما هو ضروري لها في هذه المجالات.

ويرى الكاتب/المعمار في هذا التوجّه بأنه، في تفاعله المباشر مع الناس، يقدّم لهم، ولمعنى إعادة الإعمار: "شكلاً من أرقى أشكال الديمقراطية المباشرة، ورؤية متقدّمة لإعداد التصميم المعماري بمشاركة المنتفعين مباشرة"... وذلك بعد أن رأينا ذلك التفريغ "السوليديريّ" الاستئثاري

لقلب بيروت من سكان قلب بيروت، وتحويل هذا "القلب" إلى فراغات نظيفة لمّاعة للعابرين، مُفْرَغة من الحركة المجتمعية ومن المعنى الحقيقي لمدينيّة قلب المدينة!

***

ولعل ما يميّز هذا الكتاب هو تلك المقالات الطالعة من قلب التجربة العملية للمعمار فياض، سواء بمشاركته الأساسية في مشروع إعادة إعمار ما هدّمته حرب إسرائيل على الضاحية الجنوبية لبيروت، والشروع العملي في تحقيق هذا المشروع.. ثم الإسهام الأساسي في عدد من المؤتمرات التي نظّمتها "هيئة المعماريين العرب"، ومنها، بشكلٍ خاص، المؤتمر الذي يكتسب أهمية استثنائية كونه عُقد في مدينة حلب تحت عنوان "حلب بين التراث والمعاصرة"... ففي مدينة حلب بالذات مِثَال عمراني لافت، لذلك التدامج والتآخي والتفاعل الخلاق بين ما يغْمر مدينة حلب من أبنية تراثية وطرائق تنظيم "المدينة العربية الإسلامية"، وحركة عمران جديدة لا تبتعد عن التراث المعماري العربي، ولا تتجمّد فيه.. بل تضيف إلى القيم العمرانية العربية التراثية قيماً وأشكالاً حداثية معاصرة تستفيد من جماليات البنيان التراثي ووظائفه وتآخيه مع حقائق الطبيعة، وطبائع الناس، وخصائصهم الاجتماعية التي تكوّنت، وتتقدّم، وتجدّد نفسها

بين عهود من التاريخ وأخرى منبثقة عنها طالعة منها متجاوزة لها ومطوّرة لوظائفها وجماليّاتها، فلا هي تتجمّد عندها ولا هي تتغرّب عنها.

وألفت النظر، هنا، إلى ذلك الفصل الهام، في هذا المجال، والذي يحمل عنوان "ما هو التاريخي وما التراثي في مدننا، ولماذا نحافظ عليه؟"، حيث تنفتح الكتابة على ذلك التوجّه للحفاظ على التراث البنائي الأصيل الحامل لتاريخ العمارة وتاريخ العيش وأحواله وتحوّلاته، ويميل إلى عمارة لا تقطع مع هذا التراث بل تطوّر فيه حسب حاجات العصر وضرورات الحفاظ على الطابع العام المميّز لهذه المدينة وتلك، وهذه البلاد وتلك، وهو توجّه يطلق عليه الكاتب صفة: العمارة المقاومة والعمران المقاوم.

ويشير الكاتب، هنا، إلى واقع أن "الأجزاء التاريخية في مدننا هي تراثية بامتياز، إنها جزء هام من الإرث الأصيل، ولهذا الإرث قيم متعدّدة ـ (جمالية ـ تاريخية ـ معماريّة ـ اجتماعية ـ رمزية ـ تعليمية ـ اقتصادية، الخ. .) ـ لذلك ندافع عن هذا الإرث ونجهد للمحافظة عليه بكل الوسائل، دفاعاً عن القيم التي تتجسّد فيه"... ويدعو الكاتب إلى دراسة هذه العمارات التراثية ومجالاتها، بأهداف تعليمية وجمالية، وتبيان ما تتمايز به في طابعها عن غيرها... ثم "للتوصّل إلى ما هو جديد وجيّد لمجتمعاتنا العربية في هذا الحقل. علينا أن نبحث في ما هو موجود،

في ما هو قائم، وفي التنظيم المديني الموروث، وفي العمارة التراثية، لا لننقلها، بل لنتعلّم منها، ولنوسّع قدراتنا على الاختيار وعلى الإبداع في آن".

ولعلّ في تكاثر البناء ذي "الطرز الدولي المعوْلم" الذي لا يتسم ولو ببعض السمات المتفاعلة مع المحيط ومع الجماليات التراثية، ما يجعل مدينة بيروت أكثر تعرّضاً للفقدان المتسارع لذلك الطابع العمراني الناهض من ميّزات الطبيعة الخاصة لتراث هذا الوطن وتاريخه وتطلّعات بنيانه العمراني إلى آفاق حداثية وأصيلة.

(تشرين الثاني 2009) محمد دكروب

I

ترتيب الأراضي اللبنانية

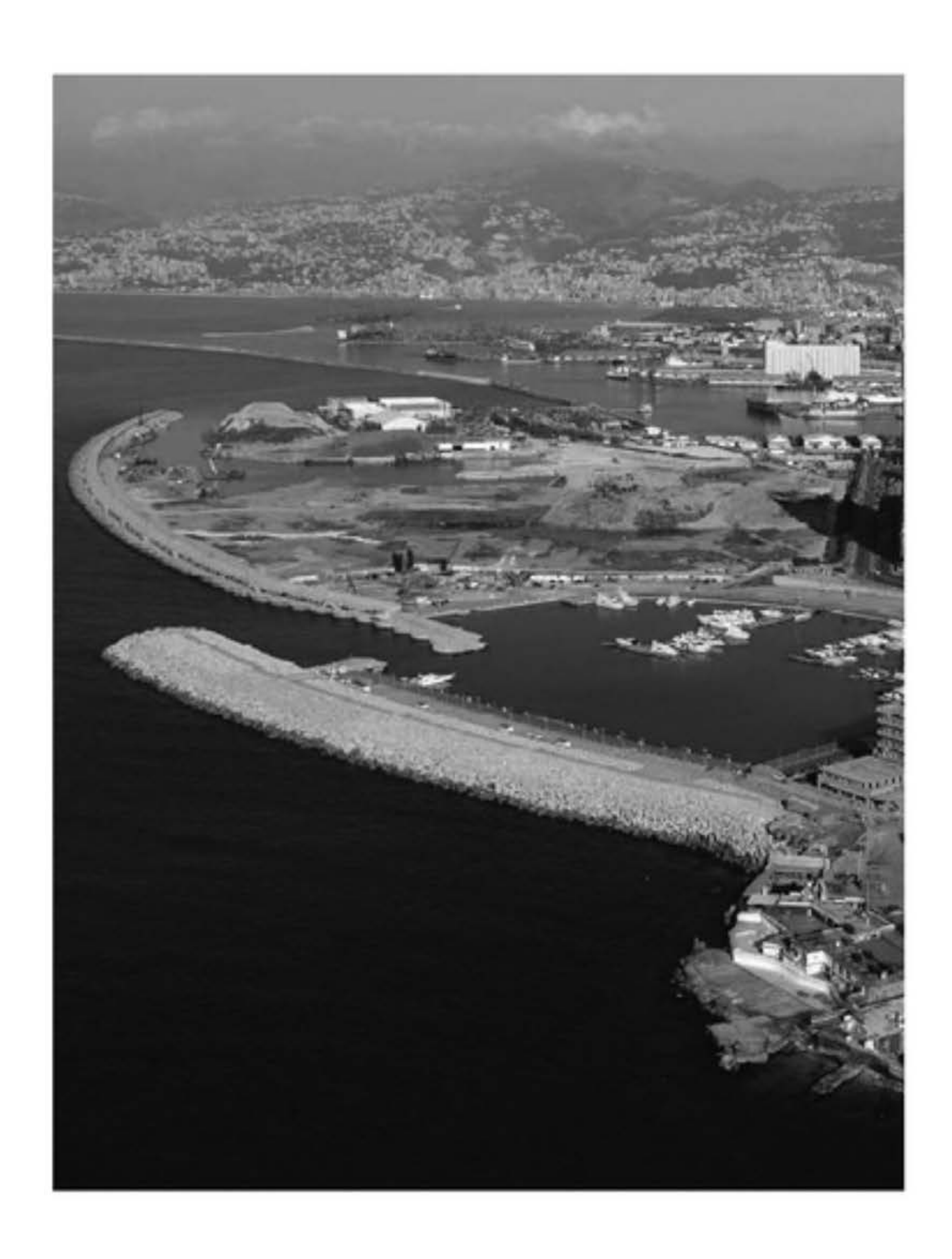
●

1- ورشة عمل في السراي الكبير حول: الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية.

2- الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية:
تأثير الخطة المقترحة في المجال العام، وفي علاقة الإنسان بمحيطه.



العاصمة ـ الوطن ـ سوليدير في القلب



1

ورشة عمل في السراي الكبير حول: الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية

I ـ الدخول إلى السراي الكبير

السبت 18 أيلول 2004، الساعة التاسعة والربع صباحاً.

كان عليَّ في ذلك الصباح، أن أشارك في ورشة عمل حول "الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية"، تعقد في السراي الكبير، برعاية وحضور دولة رئيس مجلس الوزراء السيد رفيق الحريري. لم يسبق لي أن دخلت إلى السراي الكبير، لا قبل الحرب الأهلية ولا بعدها. فأنا أعيش في بيروت منذ نصف قرن تماماً، أتيتها في خريف العام 1954 لأدرس العمارة في الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة (ألبا)، ولا أزال أعيش فيها إلى الآن. تعلمت فيها، وعملت فيها، وعشت فيها كل حياتي بحلوها وبمرها، في أيام السلم وفي

أيام الحروب وما أكثرها، وكبرت فيها أيضاً. غادرتها كثيراً لأسباب عديدة، في شبابي أثناء الدراسة وبعدها، وأثناء عملي، لأسبوع، لأسبوعين، أو ربما لشهر، لكنني كنت دائماً أعود إليها. إذ فيها بيتي، ومكاتبي، والجامعة التي أدرّس فيها. فيها أهلي، وأحبائي، وأصدقائي ومعارفي، فيها كل ما صنع حياتي ويستمر إلى الآن في صنعها. لم أهاجر منها أبداً، ولن أهاجر. نصف قرن من العيش الكامل الغني في بيروت، ولم أدخل مرَّة إلى السراي الكبير.

كانت ساحة السراي الكبير قبل الحرب الأهلية، مفتوحة على الطريق الذي يجاوره، وكانت مجموعات الناس الآتية إلى وزارة الداخلية، تدخل السراي من البوابة الجنوبية المطلة على شارع الجيش. أما مجموعات المستائين، والشاكين، والمتذمرين، والمحتجين، وذوي الحقوق الضائعة، والمتظاهرين، فكانت تدخل الساحة دون أي عائق، حتى تصل إلى البوّابة الرئيسة في الشمال، فيُطلُّ عليها رئيس الوزراء من فوق الشرفة، مخاطباً، ومهدئاً، ومطمئناً وربما واعداً أيضاً. شاركتُ في الكثير من هذه التجمعات، إلا أنني لم أدخل إلى السراي أبداً. وكان عليَّ ذلك الصباح أن أدخل إليه.

يبدو السراي من ساحة رياض الصلح ومن حديقة شارع المصارف، ضخماً قامعاً. وتذكِّر عمارته بشبابيكها العامودية المتشابهة، المتكررة بلا نهاية بأصله العسكري، رغم رشاقة

الأعمدة والأقواس الحجرية التي تزين الشرفات الناتئة في واجهتيه الشرقية والشمالية. إلا أن الشوارع التي تحوط مجمَّع السراي الكبير في جنوبه، في شرقه، وفي شماله، والأسوار المزينة بالحجر الأصفر المشغول، ونوافير المياه، والأشجار الوارفة، والأدراج العريضة الموصلة إلى ساحته من كل الجهات، إن كل ذلك، يجعلك تتوهم أن السراي، مرحِّبٌ مضيافٌ، رغم الجبروت الطالع من ضخامته، ورغم القسوة الملازمة لعمارته.

ولكن ما إن تقترب منه، حتى تدرك أن كل المداخل إليه قد سدَّت بإحكام. فشارع الجيش مسدود في بدايته بالحواجز الحديدية المثلثة الركائز والملونة بالأحمر والأبيض، وبالأسلاك الشائكة، والطريق الشرقي المحاذي لسور الساحة مزروع بالحواجز الحديدية ذاتها، وبالأسلاك الشائكة ذاتها، وفوق كل ذلك بالسلاسل المعدنية الغليظة المعلقة بين حاجز وآخر.

والأدراج العريضة، في الشرق بين الأشجار الوارفة بجانب نصب عمر الأنسي، وفي الشمال بمحاذاة العدلية السابقة مجلس الإنماء والأعمار اليوم، فهي مسدودة بدورها بحشد كثيف من الحواجز الحديدية الملونة. أما الدرج الوسطي الموصل إلى ساحة مجلس الإنماء والأعمار فتقفله في أعلاه بوابة السور.

ماذا تريد أن ترى؟ سألني بالفرنسية سائح كان يحاول مثلي أن يجتاز الحواجز، والسور، والبوابات......! لا شيء

لأراه قلت، بل أريد أن أدخل السراي. فأجابني، من هناك، مشيراً إلى الطريق المقطوع والمزروع بالحديد الملون حواجز وسلاسل. كان علي أن اجتاز الحواجز، وأن أقفز فوق السلاسل، لأصل إلى مدخل الساحة المتلطّي بإتقان خلف السور الشرقي، حيث الحاجز الثاني للحرس وللرقابة.

II – في داخل السراي

عند البوابة الشمالية الرئيسة للسراي، التفتيش الدقيق، عصري، آلي، فعّال، ولائق. وما أن تجتاز البوابة إلى الداخل، حتىّ يبدو لك السراي رغم عظمته وكأنه فارغ أو مهجور. لا أحد في المدخل الفسيح بعد نقطة التفتيش، وكل الأبواب مغلقة في الممر الممتد شرقاً. العملقة والفخامة وحدهما تسكنان المكان، المساحة المتمدّدة، والمبالغة بالزينة وبالزخرف، والارتفاع المهيب. من بهو المدخل، تبدو لك الفسحة الداخلية بعيدة، وقد تجمّع فيها بعض من سبقوني. الموقف في الخارج قبالة البوابة الرئيسة المكتظ بالسيارات الفخمة الداكنة، يُشير إلى أنهم قد دخلوا بسياراتهم رغم الحواجز، فتذكّرت عندها بوابة الساحة المتلطية بعناية عند الزاوية الجنوبية الشرقية للسور، وفهمت أن المدعويين من روّاد السراي، العارفين بأسراره، قد دخلوا بسياراتهم من تلك البوابة.

تنظيم هذا الجزء من السراي يقوم على محورين

متعامدين، محور من الشمال إلى الجنوب وفيه بهو المدخل، والفسحة الكبيرة، ثم بهو ثانٍ يطل على الفناء الداخلي المكشوف للسراي، ومحور ثانٍ متجه من الغرب إلى الشرق وفيه لؤلؤتا المكان: قاعة الاستقبال الرسمية إلى الشرق، وقبالتها قاعة المآدب الرسمية إلى الغرب، وفق ما جاء في كتاب "السراي الكبير"، الصادر عن مؤسسة الحريري. وتشير تجمعات الحاضرين، الضائعة في قاعة المآدب الرسمية العملاقة، إلى أن ورشة العمل التي سيرعاها رئيس مجلس الوزراء، ستجري فيها.

القاعة ضخمة، مهيبة، كل مكوناتها مبالغ فيها. بواباتها، مشربياتها الخشبية المتقنة، مساحتها (750 م2) ارتفاعها (9 أمتار)، الجسور الخرسانية التي تحمل سقفها، أعمدة الزينة الرخامية، الزخرف الخشبي الرائع في السقف، الأرض الرخامية البيضاء المطعمة بالخطوط السوداء، والفسيفساء الرخامية المزركشة على الجدران. تختلف الرسومات والألوان من فسيفساء رخامية إلى جارتها، ومن جدار إلى الجدار المقابل.

لا شيء في القاعة يراعي واقع الحال في البلد، (المديونية، والعجز المالي) وبين الناس، (الفقر، والضرائب، والبطالة والهجرة) بل على العكس من ذلك، كل ما فيها ينضح بالثراء الفاحش، وبالإنفاق بدون حساب. وكأن الحاضرين القلائل، قد تنبهوا مسبقاً لثراء المكان ورهبته،

فارتدوا الألبسة الرسمية الداكنة، وربطات العنق الفاخرة، اللماعة، الملونة. القاعة الفارعة بدت فارغة، إلا من الستائر المخملية المزركشة المتدلـيِّة أمام النوافذ الضيقة، من تحت السقف حتى رخام الأرض.

أعدَّت القاعة على عجل لتستقبل المناسبة، "ورشة عمل حول الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية برعاية رئيس مجلس الوزراء السيد رفيق الحريري"، كما جاء في بطاقة الدعوة. في طرف القاعة الغربي، منصة صغيرة إلى اليسار أمام الستارة المخملية، بجانبها طاولة وأربعة كراسٍ، وشاشة صغيرة إلى اليمين. بضعة صفوف من الكراسي الخشبية الداكنة احتلت طرف القاعة الغربي. وفي طرفها الشرقي معرض دائري لوثائق الخطة الشاملة. ممر عريض وسطي يوصل المنصَّة والشاشة ببوابة القاعة، قسَّم المعرض وصفوف الكراسي إلى نصفين. لا شيء لـُحِظ قبالة الممر في محور القاعة، فبقي فارغاً. وحدها الستائر المتدلية احتلت الصدارة، وبدت القاعة بهذا الإعداد المستعجل والمقتضب وكأنها لا تزال فارغة.

III ـ الاحتفال بالخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية

قاعة المآدب الرسمية في السراي الكبير أعدَّت على عجل، وبدت، رغم الحضور والتجهيزات المختصرة، فارغة،

أكرر. والاحتفال بإطلاق الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية، الذي رعاه وحضره دولة رئيس الوزراء ومعه حشد من الوزراء والمسؤولين تم على عجل أيضاً، بدقة ووفق البرنامج. فالتوقيت صارم، والكلمات الإفتتاحية جاءت عامة وشديدة الإقتضاب.

رئيس مجلس الإنماء والأعمار عدَّد المراحل التي سبقت الصيغة النهائية الأولى للخطة الشاملة، موضوع الإحتفال، وموضوع ورشة العمل أيضاً. وممثل الإئتلاف الإستشاري دار الهندسة - إيوريف، أشار إلى أن الخطة، هي مرجع أساس لكل المخططات المناطقية والمحلية، والإطار العام لبرمجة الإستثمارات. إنها، كما قال، خطوة نحو الإنماء المتوازن. واللافت في الإستعجال، الإختصار الشديد في العرض الذي قدمه مدير المشروع، الدكتور فؤاد عواضة. فبدا الإختصار وكأنه خطوة إحترازية من ردود فعل سلبية قد تصدر عن المسؤولين الحاضرين، أو كأنه خطوة إستباقية لتلافي ما قد يصدر عنهم لاحقاً. فقد خصَّص البرنامج للعرض ثلاثين دقيقة، لم يستعمل منها الدكتور عواضة، سوى إثني عشرة دقيقة فقط. وانتهى الجزء الأول من الإحتفال - الورشة في الساعة الحادية عشرة إلا ثلثاً، أي عشرين دقيقة قبل الوقت المحدَّد لانتهائه، رقم قياسي، مقارنة بالمناسبات المماثلة.

كان مجلس الإنماء والأعمار، قد وزع على المشاركين في الإحتفال - الورشة ملخصاً عن الخطة الشاملة تضمَّن

الغايات، والوجهة المقترحة لاستعمال الأراضي، والخيارات الرئيسة. نقرأ في الملخص، في باب الأهداف كعنوان عريض، كلاماً جميلاً عن أرض الوطن، كإرث مشترك للشعب اللبناني، من واجب كل جيل أن يسلمها بشمولية ثرواتها، إلى الأجيال القادمة.مع التشديد على أن ذلك لا يتحقق إلا بترشيد استعمالات الأراضي وتنميتها. فيتجنَّب الملخص كلمة استثمارها التي تبدو له فجة، ويشدِّد على أن تتم هذه التنمية بالطرق التي لا تغيِّر من طبيعتها أو تبدِّل من فرص استعمالها في المستقبل. فنتساءل ونحن نقرأ بمتعة، كيف يتم ذلك!؟ ويذكـِّر الملخَّص اللبنانيين في باب الأهداف ذاته كعنوان عريض، بأن عددهم كان مليوناً، وهو اليوم أربعة ملايين وسوف يرتفع هذا العدد قريباً ليتعدَّى الخمسة ملايين، في حين أن مساحة أرض الوطن ثابتة لا تتغيَّر، وهذه حقيقة لها تأثير قوى على استغلال الموارد غير القابلة للتجدد، بما فيها الشواطىء والمواقع الطبيعية ومعالم التراث الطبيعي والإنساني، يشدِّد الملخَّص. ونتساءل بصدق بعد الإقرار بهذه الحقيقة، وهل ينفرد وطننا الصغير بهذه المعادلة؟ (ثبات مساحة الأرض وزيادة عدد السكان) أم أنها ظاهرة عامة نتشارك فيها وإن بنسب مختلفة مع سائر الأوطان؟كالأردن، وسوريا، وفلسطين، وقبرص، وغيرها.

وفي ظل هذه المعادلة التي اعتبرت حاسمة، يطالعنا الملخص بكلام جميلٍ آخر، مفاده، أن المسائل المرتبطة

بالحس الوطني، واحترام الأنظمة، تكتسب اهمية كبرى تزداد مع ازدياد عدد السكان فنتساءل للمرة الثالثة، متمتعين بالقراءة وصادقين للمرة الثالثة أيضاً، وهل ينفرد وطننا بازدياد اهمية الحس الوطني مع ازدياد عدد السكان في مسائل استعمال الموارد غير المتجددة، أم أنها قاعدة عامة صالحة لكل الأوطان التي هي مثلنا وقد سبق وذكرنا بعضها. بالحس الوطني إذاً، تريد الخطة أن تنقذ الشواطىء، وأن توقف التدهور فيها، وأن تصون الآثار، وأن تحمي التراث. بالحس الوطني عند اللبنانيين جميعاً دون تمييز، بين مالك كبير ومن لا يملك شيئاً، بين مستثمر جشع، ومن لا يستطيع أن يؤمن قوت عياله، بين معتد على الشاطىء وعلى مياه البحر، ومن لا يستطيع أن يصل إليهما، بين مسؤول متسلط فاسد، وبين محكومين يدفعون الثمن ضرائب، وفقراً، وبطالة، وهجرة. وفي حين أن إحصاءات الخطة تشير إلى أن 90% من الأراضي اللبنانية هي أراضٍ غير منظمة، يؤكد الملخص أن الخطةّ تسعى إلى تعزيز كافة أوجه الحرية، من خلال توسيع الخيارات المتاحة للسكن والإستثمار في كافة أنحاء الوطن. فالخطة لا تتناقض مع المبادرات الفردية، تؤكد الوثائق المعروضة في يوم الإحتفال - الورشة. إذ إن أقصى ما تطمح إليه هو أن توجِّه هذه المبادرة، في إطار مشروع مرن قائم على تشجيع المواطنية. وعلى اللبنانيين جميعاً، أن يتحملوا

نتائج مرونة المشروع باسم المواطنية مرة أخرى، إذ لا تمييز في المواطنية، بالتأكيد.

فالعدو الأول للحرية يكمن في الفوضى يؤكد الملخِّص، حيث إن حرية الأشخاص معرّضة للإنتقاص، بفعل تصرفات فردية من أقلية غير مسؤولة... إلخ (بالمعنى الأخلاقي بالتأكيد)، ويجب الحفاظ بالتالي على حد أدنى مقبول من القوانين والأنظمة.

علينا أن نقبل بالحد الأدني من القوانين والأنظمة، لأن التصرفات التي قد تكون مجرمة بحق الوطن وأراضيه، هي تصرفات أقلية غير مسؤولة. نقبل بالتأكيد بوجود مثل هؤلاء، ولكن ما العمل إذا كانت الأقلية المسيئة هي أقلية مسؤولة بالفعل!؟ نتساءل صادقين للمرة الرابعة؟ مسؤولة في تملكها كل شيء، الأراضي، والثروة، والنفوذ، وربما السلطة أيضاً، وصناعة القوانين، وتعديلها، وتبديلها، وإلغاؤها؟ وفقاً لمصالحها!

أما العدو الثاني للحرية، يؤكد الملخص، فهو الحواجز والفواصل بين المناطق لذلك تتضمَّن الخطة الشاملة، اقتراحات لتعزيز الإتصال بين المناطق، ولتشجيع المبادلات بينها، مؤكدة على ضرورة تسهيل التنقل فوق كافة الراضي اللبنانية.

ويتخلـّى الملخص عن هذا الخطاب التطميني الطوباي، المبشـّر بخُطةٍ تريد أن تكتفي بتوجيه المبادرات الفردية، لتعزّز

كافة أوجه الحرية في السكن والإستثمار، في ظل الحد الأدنى من القوانين والأنظمة، يتخلّى الملخَّص عن هذا الخطاب، عندما يواجه مسألة الأهداف الفعلية للخطة، فيحدّد لها تسعة أهداف معظمها اقتصادي اجتماعي سياسي، وهي: (1) وحدة الأراضي اللبنانية، (2) الإنماء المتوازن للمناطق، (3) ترشيد استغلال الموارد لضمان التنمية المستدامة، (4) خفض الدين العام، (5) تحسين الإنتاجية وزيادة معدَّل النمو الاقتصادي، (6) تحسين ميزان التجارة، (7) تحسين الأوضاع المعيشية، (8) المحافظة على البيئة، (9) المحافظة على التراث.

من الواضح أن معظم هذه الأهداف تضع ما سمي بسنوات الأعمار، في دائرة المساءلة، وربما ذهبت أبعد من ذلك، فوضعتها عن غير قصد، في دائرة النقد. إذ تتحدَّث الخطة صراحة عن الفقر المتزايد كمعيق أساس للوحدة الوطنية، مشيرة إلى أن أسرة متوسطة العدد، تحتاج إلى ضعف حصة الفرد من الناتج المحلي الحالي لتعيش في مساحة الفقر، متجنّبة خطً الفقر المدقع. ولا ترى حلا لذلك إلا بالإنماء المتوازن الحقيقي، الذي يضمن مشاركة المناطق في العملية الاقتصادية. مع الإهتمام بالصناعة، وبزيادة الإنتاجية، وبتحسين القدرة التنافسية. تؤكد الخطةَ ضرورة هذا المنحى العام، في الوقت الذي تعلن فيه جمعية

الصناعيين، عن إغلاق جماعي لمؤسسات صناعية، فقدت قدرتها على المنافسة نتيجة السياسات الاقتصادية المتبعة، التي اعتمدت الإبهار بما سمي الإعمار، والحرية، والإنفتاح.

وتنتقد الخطة ردم البحر "الإعماري"، في المطار، وفي سوليدير، وفي ضبيه، الذي دمَّر البيئة البحرية في مواقع مميزة، وعَطل وحدة الشاطىء الطبيعية، وافقده تواصله واستمراريته. بالاضافة إلى نقل العديد من الهكتارات المربعة من الأراضي الجبلية لردم البحر، مع ما سببه ذلك من تدمير إحدى مميزات لبنان الأساسية في محيطه وهي: جباله، وصخوره، وغاباته، والغطاء الأخضر الذي يكسوه.

IV ـ الخطة، الإعمار، وقراءة رئيس مجلس الوزراء

لن أستعرض كل ما جاء في الملخص، أو في الخطة الشاملة. ففيها مثلاً ضرورة الحفاظ على مناطق الثروة الزراعية الوطنية، في البقاع والكورة وعكار خاصة، وحصرية استعمال الأراضي في هذه المناطق للأغراض الزراعية. وفيها ضرورة حماية مناطق الثروة الطبيعية الوطنية، في القمم، وفي شريط الأرز اللبناني، وفي الأودية الكبرى والغابات. وفيها ضرورة وقف التعديات على الشاطىء، وحماية المواقع الطبيعية فيه، في شكا وفي أنفه، وفي الشاطىء الرملي في سهل عكار. وفيها أيضاً ضرورة حماية الملاحات في أنفه، (ونضيف

الملاحات في الشيخ زناد في عكار)، وحرفة صيد السمك ومرافىء الصيد الطبيعية الصغيرة.

سأكتفي بهذا القدر، لأعود إلى ورشة العمل، وإلى عرض الدكتور فؤاد عواضه للخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية، إذ حدَّد في ضوء الأهداف التسعة للخطة المذكورة آنفاً، ثلاثة خيارات رئيسة بنيت عليها الخطة الشاملة وهي: (1) وحدة لبنان أي وحدة الاقتصاد والمجتمع والأراضي كما قال، (2) الإنماء المتوازن مؤكداً المفهوم الأساسي لإنماء متوازن قائم على إشراك المناطق في العملية الاقتصادية الوطنية، (3) وترشيد استخدام الموارد ومنها بشكل خاص الأراضي، خاصة وأن ترتيب هذه الأراضي، هو موضوع الخطة، وموضوع الورشة. وأكد أن الإستعمال الأفضل للأراضي يقوم على ثلاثة معايير هي: (1) تصنيف الأراضي وفق طبيعتها وموقعها، (2) ميزاتها، (3) المعوقات التي تتحكم بتطويرها. وقسَّم الأراضي في باب تصنيفها، إلى مناطق وهي: (1) المناطق المدينية، (2) مناطق الثروة الطبيعية، (3) مناطق الثروة الزراعية، (4) المناطق المختلطة. وعدَّد المميزات في بعض المناطق، من وجودٍ للآثار وللتراث، أو للمواقع الطبيعية، وخصَّ الشاطىء بتوقف طويل نسبياً. وعدَّد بعد ذلك المعوقات الطبيعية، من فيضانات، وانزلاق للتربة، وتلوث للمياه الجوفية. ثم عرض المقترحات

لتنظيم الأراضي وتجهيزها، وعدَّد أخيراً، مراحل التنفيذ كي تأخذ الخطة طريقها إلى النجاح.

ربَّما بدا في كلمة رئيس مجلس الوزراء التي تلت العرض، أنه غير راضٍ عن ما جاء فيه، وربما بدا أيضاً أنه غير راضٍ عن ما جاء في الملخص الموزَّع على المشاركين في الورشة، أو أنه غير راض عن الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية كما أعدَّت، بكاملها.

فالخطة، وملخصها بالأهداف وبالتفاصيل، قد تجاهلت سنوات الإعمار. وربما رأي رئيس مجلس الوزراء، أن العرض المقدَّم في الجزء الإحتفالي من الورشة لم يصحِّح، أو أنه، في أقل تقدير، لم يعط سنوات الإعمار حقها، ولم يسلِّط الضوء على إنجازاتها. ورئيس مجلس الوزراء، العائد من لشبونة مع رهط كبير من الوزراء، وعلى صدره جائزة الشرف الخاصة للعام 2004، التي منحها له برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية تقديراً لدوره في إطلاق إعمار لبنان بعد الحرب، رئيس مجلس الوزراء هو إذاً المعمِّر العالمي الأول في العام 2004، ونهجه في الإعمار مثالي، وهو بالتالي لا يقبل بديلاً عن هذا النهج، أو تعديلاً له. فلماذا كل هذا الكلام عن التنظيم، والتصنيف، والحماية، والإنماء المتوازن، وإشراك المناطق في العملية الاقتصادية!؟ والتغلب على العوائق الطبيعية التي تفصل المناطق ووصلها بالطرقات، وتجهيزها، ومحاربة الفقر فيها!؟

لم يقتنع رئيس مجلس الوزراء بالتأكيد، بالكلام المنمَّق عن الحرية، والإبتعاد عن الإكراه في السكن وفي الإستثمار. وهو لم يقتنع أيضاً، بالتلطي خلف العوائق الطبيعية عند تأكيد الخطة على وحدة البلد في الاقتصاد والمجتمع والأراضي. فمفهومه للوحدة مختلف، ومفهومه لإستعمال الأراضي مختلف أيضاً، وموقفه من الشاطىء، والقمم، وشريط الأرز اللبناني، ومناطق الثروة الزراعية الوطنية، ومناطق الثروة الطبيعية الوطنية، موقفه من كل هذه المسائل مختلف كلياً عن ما جاء في الخطة الشاملة، أو في ملخصها، أو في العرض الذي سمعه.

بدا رئيس مجلس الوزراء، وكأنه رافض لكل ذلك، أو كأنه غير مرتاح له في أقل تقدير، فاعتلى المنصة وارتجل كلمة مقتضبة قاسية بعض ما قاله فيها:

"اعتقد أن هناك عملاً واضحاً، وجهداً بذله جميع القيمين على المشروع. لكنني اريد أن أوضح نقطتين:

النقطة الأولى: وهي أن من يستمع إلى العرض الذي قدَّمه الأستاذ فؤاد، يخرج بانطباع وكأن لبنان فارغ من كل شيء. والحقيقة أن لبنان ليس بلداً فارغاً من كل شيء، بل هو بلدٌ مليءٌ بكل شيء. فعندنا الكثير من الأمور الموجودة، وهي بحاجة إلى تنظيمها أو توضيحها، وعندنا القليل من الأمور الناقصة، وهي بحاجة إلى عمل، ومن الضروري تسليط الضوء عليها لإستكمالها.

والنقطة الثانية: هي أنني ألاحظ كأننا نقول إن البلد في حال فوضى عارمة. والبلد ليس في حال فوضى عارمة. هناك أمور عديدة جداً موجودة، سواء أخذنا مشاريع الري، أو مشاريع الطرق، أو مشاريع المياه.

فكل الأمور التي ذُكِرَت موجودة، ولكنها تحتاج إلى استكمال. إن هذه الرؤية أو الخطة التي هي أمامنا أنجزت لكي تضيء على المناطق التي هي في حاجة إلى استكمال... إلخ" (انتهى حديث رئيس مجلس الوزراء) دون الحاجة إلى ذكر ما قاله عن ضرورة إقرار الخطة في مجلس الوزراء، وعرضها بعد ذلك على مجلس النواب، ومراحل التنفيذ والتشريعات.

٧ ـ ما العمل؟

في الصحف الصادرة يوم الأحد في 19 أيلول 2004، تغطية واسعة لفعاليات "ورشة العمل حول الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية"، رغم إنشغال الجميع بالتمديد وبقرار مجلس الأمن. والبارز في هذه التغطية، أن معظم الصحف نشرت النص الكامل لكلمة رئيس مجلس الوزراء، وفيها موقفه من الخطة، وخاصة موقفه من العرض الذي قـُدِّم في الورشة، ومفهومه للخطة ولدورها. في حين غاب عن التغطية كلياً، جوهر الخطة ومضمونها، وأهدافها، والخطوات

العملية المقترحة لإقرارها، كما عرضها مدير المشروع الصديق الدكتور فؤاد عواضه.

كل شيء موجود، يقول رئيس مجلس الوزراء، ونحن لسنا في حال فوضى عارمة يؤكد، وكل ما هو موجود هو جيد ينبغي استكماله، والخطة الشاملة لترتيب الأراضي عليها أن تكمل الموجود.

لا مجال للنقد، للملاحظة، للتعديل، أو لإعادة التقويم. لا مجال لأي تصحيح.

هل علينا أن نرى في ذلك دعوة واضحة لمحاصرة الخطة؟ ولإفراغها من مضمونها؟ ولتجريدها من كل ما هو إيجابي فيها...!؟ وما العمل؟

السفير 8/ 10/ 2004



أين نصب الشهداء؟ أين الساحة؟

2

الخطة الشاملة لترتيب الأراضي اللبنانية:

تأثير الخطة المقترحة في المجال العام، وفي علاقة الإنسان بمحيطه.

1 - في المقدمة تعريف.

المجال، والمجال العام.

■ **المجال في التعريف**، هو امتدادٌ غيرُ محدود، يحوي كلَّ الأشياء ويُحيط بها. ويمكن لصيغة غير محدود، أن تكون مرادفة لصيغة لا نهائي، أو لصيغة لا نستطيع تحديده. وفي مقاربة أخرى، يمكن فهم المجال، بكونه خاصية يتمَّيز بها شيءٌ ما، فتجعله يحتل امتداداً محدداً، ولكن داخل امتدادٍ آخرٍ أوسع منه.

■ **أما المجال العام**، فهو مفهوم جديد في التنظيم المديني، لا يحظى غالباً بتعريف دقيق. وربما استطعنا أن

نعتبر المجال العام، جزءً من الأملاك العامة غير المبنية، مخصصاً لاستعمالات عامة. كما يمكننا أن نعيد نشوء مفهوم المجال العام، إلى تكوُّن مفهوم المجال الخاص في المدن، والمنظَّم حول مؤسسة الأسرة أو العائلة. وكردّ على تنظيم المجالات وتخصيصها لاستخدامات الأسر، يأتي تنظيم المجالات لاستخداماتٍ عامة، مشكلاً بذلك المجال العام، حيث الإغفال، والذوبان، واللقاءات العابرة.

والمجال العام كما نعرفه اليوم هو مجال المرور، والنزهة، والتجارة، والتلاقي، والتجمع، والتبادل.

2 - تأثير المخطط العام المقترح في المجال العام المديني والشاطئي

2-1- المجال العام المديني

يبدأ تأثير المخطط التوجيهي لترتيب الأراضي اللبنانية في المجال العام، بمقاربته لمفهوم المجال.

فهو يرى بدايةً، أن أراضي الوطن، هي إرثٌ مشتركٌ لجميع أبنائه، يحق للأجيال الحالية أن تستخدمها، ولكن من واجبها أن تسلمها إلى الأجيال القادمة بكل ثرواتها. فأراضي الوطن بهذا المعنى، مجالات عامة بكاملها.

ثم يرى بعد ذلك، أن لبنان بمساحته، هو البلد العربي الصغير الثاني. إلا أن عدد سكانه يتعدى الأربعة ملايين، يعيش ثلثاهم على ثلث أراضيه، في المدن الساحلية، وفي

البلدات فوق الهضاب المطلة على البحر. وفي هذه المعطيات، دلالات عدة على مضمون مقاربة المخطط لمفهوم المجال، وعلى تأثيره فيه.

أولها، دلالةٌ حول ندرة المجال .فيشدِّد المخطط، على أن الواجب يقضي بأن ننظم استغلاله عقلانياً، لا أن نستهلكه. وندرةُ المجالات تظهر بشكل حادٍ في مدننا. وهي أي الندرة، مضافة إلى الملكية الخاصة للأراضي، تعقـِّد عندنا تنظيم استغلال المجال، الذي أشار إليه المخطط.

وثانيها، دلالة مزدوجة حول الكثافة السكانية. فهي مرتفعة نسبياً على المستوى الوطني، رغم قلة عدد السكان في الداخل وفي الأطراف، إلا أنها شديدة الإرتفاع على الشريط الساحلي المديني.

إن هذه المعطيات تجعل المجال العام في لبنان، مجالاً عاماً مدينياً بالأساس. وهو يضم أولاً، شبكات النقل والمواصلات التي تساهم في توحيد الوطن، من أوتوسترادات، وطرق أخرى. فهي مجالات علاقات اقتصادية، وإنسانية، ومجالات هيكلة أو إعادة هيكلة، للأراضي الوطنية.

وهو يضم أيضاً الشوارع بداية، باصطفافِ المباني فيها على حدود التراجعات، بعِمارة الشوراع وبواجهاتها، بالأرصفة خاصةً. كما يضم الساحات، والأروقة، والممرات المسقوفة، والفسحات، والمنتزهات، والحدائق، والمقابر، وغيرها.

في المخطط، اهتمام محدود بالمجال العام المديني، وسيكون تأثيره فيه بالتالي، محدوداً.

فهو يرى بحق، أن اصطفاف المباني عند حدود التراجعَات هو اصطفافٌ إلزاميٌّ، وأن المبنيَّ الجديد، عليه أن يُحسِن الإندماج في المحيط حيث يقوم، وأن عِمارة المدينة، عليها أن تكون متجانسة بأشكالها، وبألوانها، وبموادها. ولهذه الرؤية حضورُها عند مقاربة المخطط لقانونَيْ التنظيم المديني والبناء. رغم إغفاله لمكونات المجال العام المديني الأخرى، كالساحات، والحدائق، والمجالات الخضراء، والأرصفة.

إلا أن مقياس اهتمام المخطط بالمجال العام المديني، هو التزامه الصريح بأن جودة هذا المجال، هي المعيار الأول لجودة العيش في المدينة.

أن مدننا الساحلية، هي مدنٌ تاريخية. ولا مقاربة للمجال فيها، بمعزل عن الزمن، الذي يتدخل في استعمال المجال على منسوب آخر، إنه الزمن التاريخي. يكتب التاريخ الزمن في المدن، ويترك فيها المعالمَ حيث حدث هذا التاريخ. وعلى مدننا التاريخية أن تُدير مجالها، ولكن عليها أيضاً أن تُدير تاريخها. وهذا يقود إلى مسألة المحافظة على المعالم التاريخية البارزة، وعلى محيط هذه المعالم، وهي أحياءٌ بكاملها. إن مقاربة موضوع المجال في مدننا بعلاقته بالزمن، يقودُ إلى مفهوم الآثار ومفهوم التراث. ففي مدننا التاريخية

آثارٌ قيمة، يُحافَظُ عليها، وإرثٌ مبنيٌ غنيٌ يحافظُ عليه أيضاً. إنها مجالات عامة مدينية بامتياز، حرص المخطط على التوصية بحمايتها ضمن محيطين، محيط واسع وآخر ضيق.

كما حرص المخطط على إبراز المشاهد الطبيعية التي تختزنها مدننا الساحلية، وهي ثروة حقيقية. إلا أنه لم يذكر أن التعديات المستمرَّة والتي تحميها المراسيم، لم تُبقِ من مكونات هذه الثروة إلا القليل. والمتبقي من هذه الثروة، هي مجالات عامة مدينية بامتياز، يُبرِز المخطَّط دورها.

2-2- الأملاك العامة البحرية، أو المجال العام على الشاطئ

لقد عرَّف القانون الأملاك العامة البحرية، بكونها تضمُّ، إلى البحر، جزءاً من اليابسة يمتد من المياه، إلى أبعدِ نقطةٍ تصلها الأمواج في فصل الشتاء. وقد تبنَّى المخطط هذا التعريف، ورأى أن هذا الشريط الشاطئي، هو وحدة طبيعية لا يجوز قطعها أو التعدي عليها. والأملاك البحرية هذه هي أملاك عامة، الوصول إليها حرٌ، واستخدامها حرٌّ أيضاً. إنها مجال عام وطني بامتياز.

وتوجد على شواطئنا، مجمعات تراثية حرفية هامة، ومواقع طبيعية مميزة. يلاحظ المخطط، أن هذه المواقع مهددةٌ دائماً بضغط الريع العقاري، وذلك على حساب هوية الأمكنة، ودورها في كتابة هوية لبنان الطبيعية والسياحية.

ففي أنفه يوجد أكبر مجمَّع حرفيٍّ للملاَّحات. وفي الشواطىء الفاصلة بين أنفه وشكا، ملاحات فريدة محفورة في الصخر. وفي الشيخ زناد في عكار، مجمَّع آخر. والملاحات في الموقعين، حرفة ثمينة وتراث عريق. وسيكون لتوصية المخطط بحمايتها، دورٌ كبيرٌ في الحفاظ على هوية الأمكنة، وعلى علاقة الإنسان بمحيطه هناك.

وفي شكا، يدهشنا رأس الشقعة بنتوئه في البحر وبسطحه المنبسط. وفي البربارة - كفركده، مصاطب صخرية متوسطية نموذجية، ذات قيمة علمية عالية. وفي المنصف مسابح اللؤلؤ الحصوية الفريدة. وفي بيروت معلمها الطبيعي الأبرز صخرة الروشة. وبعد الدامور رأس السعديات، وفي الجنوب تلال البياضة، تذكرنا برأس الشقعة في الشمال. وعلى الشاطىء أيضاً مصبات الأنهر الرئيسة.

إن هذه المواقع تساهم في صنع ميزات الشاطىء اللبناني، وهي مجالات عامة طبيعية، من الضروري إبرازها وحمايتها بكل الطرق الممكنة. وسيكون لتوصيات المخطط حول الشاطىء، تأثيرٌ واضحٌ في المجال العام، وفي علاقة الناس به.

إلا أنني أود أن أشير هنا، إلى أن المخطط لم يُضف الكثير إلى دراسةٍ للشواطىء الشمالية، أعدتها مؤسسة الدراسات المعمارية والمدينية (رهيف فياض ومشاركوه) بطلبٍ من المديرية العامة للتنظيم المديني، أُنجِزت في العام

2001، ونُشِر بحثٌ عنها في جريـدة السفيـر في 22/ 12/ 2001. لقد اصطدمت الدراسة بالكثير من المعّوقات، خاصة عندما أوصت، ومنذ خمس سنوات، بقطع التمدد الشريطي للبنيان على الشاطىء بفواصل خضراء متكررة، أو بإقامة المحميات الحرفية والطبيعية الشاطئية، أو بحماية مصبات الأنهر. لم يشر المخطط إلى الدراسة، ولم يشر أيضاً إلى الآلية التي سيعتمدها لتخطّي المعّوقات المذكورة، خاصة وأن معظم مقترحاته، قد سبق ووردت في الدراسة.

3 - تأثير المخطط التوجيهي لترتيب الأراضي في المجال العام الوطني.

يبدو المخطط أكثر تأثيراً في المجال العام، عندما يعرض توصياته حول تصنيف الأراضي اللبنانية، انطلاقاً من مؤهلاتها ومن استعمالاتها الفضلى. بل يبدو وكأنه يحاول بذلك، صنع المجال العام. فهو يوصي بتصنيف الأراضي اللبنانية، إلى مناطق مدينية، ومناطق ريفية، ومناطق زراعية، ومناطق طبيعية.

3-1 المجالات العامة الطبيعية.

فعلى منسوب 1500 م، وفيه كورّيدور الأرز، وبساتين الأشجار المثمرة الجبلية، يوصي المخطط بحماية ملائمة لهذا الكورّيدور، في امتدادته من الباروك حتى أطراف جبال

عكار، ويسمح بأن تقام فيه محطّات التزلج. إنها مجالات عامة، طبيعية، بامتياز.

ويُحصي المخطط، المناطق اللبنانية المتميزة بمناظرها الجميلة، وبمزاياها الطبيعية، فيوصي بالحفاظ عليها وبإبرازها، كما يُوصي بإقامة نوع من "الباركات" أو المنتزهات، بمقاييس من الحماية اللينة المتعارف عليها دولياً، فيصنع بذلك مجالاتٍ عامة طبيعية بامتياز. إنها بالتأكيد صناعة ناجحة.

ثم يلاحظ المخطط، أن لا عيش في لبنان فوق منسوب الـ 1500م إلا نادراً. خطُّ القمم يمتدُّ من منسوب 1900م إلى مناسيب اكثر ارتفاعاً. القمم حسَّاسة، بالغةُ الأهمية بيئياً، لكونها الخزان الكبير لمياه لبنان. وهي تتمتع بسحرٍ مشهديٍّ حاضن، فيصنِّفها المخطط، ويمنع كل أشكال البنيان فوقها، باستثناء منشآت الاتصال الضرورية والمنشآت العسكرية، وطرق العبور الوطنية بين الساحل والبقاع. ويقيمُ بذلك مجالات عامة طبيعية ومشهدية بامتياز.

3-2- المجالات العامة الزراعية.

ثم يلاحظ المخطط، أن نصف أراضي لبنان صالحة للزراعة، إلا أنها مجزأة ومبعثرة. فيرى وسط هذه التجزئة، أربع مناطق زراعية يسميِّها كبرى: الأولى في الجنوب، والثانية في البقاع، والثالثة في الشمال في الكورة، والرابعة

في سهل عكار. يصنِّف المخطط هذه المناطق بكونها مناطق زراعية كبرى، ويوصي بحمايتها بهذه الصفة، ويقترح شروطاً قاسية للفرز والبناء فيها. وسوف تشكل هذه المناطق بفعل هذا التصنيف، مجالات عامة مشهدية وطبيعية.

3-3- المجالات العامة الريفية.

ويجزم المخطط، بأن ثلث اللبنانيين الذين يعيشون في ثلثي أراضيه خارج المناطق المدينية، انما يعيشون في أكثر من ألف بلدة وقرية منتشرة في كل لبنان. كما يجزم بأن 80% إلى 90% من هذه المناطق، هي غير منظمة. إلا أن هذا الواقع، لا يعني أن لا بنيان فيها، بل الواقع هو عكس ذلك تماماً. فإن طفرات البنيان خلال الحرب الأهلية وبعد انتهائها خاصة، إنما طالتها بالدرجة الأولى، فاستباحت ودمَّرت، لأن أراضيها رخيصة، وعواملُ الاستثمار فيها ومعَّدلاته مرتفعة، عملاً بما يعرف بالمناطق غير المنظمة العادية (0،8 و 40%)، ومناطق الاصطياف (0،9 و 30%).

يقترح المخطط قراءة للأراضي، انطلاقاً من استعمالاتها الكبرى الحالية، ومن أهليتها لاستمرار هذه الاستعمالات، ويصنِّفها مناطق مدينية (U)، ومناطق ريفية (R)، ومناطق زراعية(A)، ومناطق طبيعية (N) من ثلاثة مكونات: القمم (N1)، وكوريدور الأرز (N2)، والوديان .(N3) فهو يحمي بهذا، المناطق الزراعية الكبرى، والمناطق الطبيعية الأساسية

بمكوناتها الثلاثة. أما في المناطق الريفية فهو يقترح إلغاء مفهوم المناطق غير المنظمة، ويستبدله بتنظيم مديني مؤقت. فيحصر توسع القرى والبلدات في امتداداتها المباشرة، ويمنع بعثرة المباني في المناطق الزراعية أو الطبيعية فيها، ويحدّد عدد الطوابق، ويحرص على تناغم النسيج المبني الجديد بمواده وألوانه،مع النسيج القائم في البلدة أو القرية.

يحاول المخطط في كل هذا، حماية المتبقي من الطابع الريفي في بعض البلدات والقرى. إذ إن المتبقي من الطابع الريفي هذا، هو ثروة وطنية، وقيمة إنسانية كبيرة، على اللبنانيين أن يحافظوا عليها، لتشكل مجالاً عاماً ريفياً بامتياز، يُفرحُ الزائر بصرياً، وإنسانياً.

إلا أن الناتج الإيجابي لهذه التوجهات، قد تعطّله ثغرات ثلاث: **أولها** عدم الالتفات إلى قياسات الكتل في كل ما سيبنى مقارنة بقياسات الكتل القائمة، **وثانيها** الإصرار غير المفهوم على أن تكون المباني في مركز البلدة أو القرية، أكثر ارتفاعاً من المباني في أطرافها، (وما العمل، إذا كان لهذا المركز قيمة تاريخية أو معمارية؟) **وثالثها** السماح ببناء المجمعات الكبرى في هذه البلدات والقرى، وإنْ ضمن بعض الضوابط الصعبة التحقيق. ربما يعرف بعضُنا بلدات برسا، وضهر العين، وقرية النخلة الصغيرة في الكورة، وما آلت إليه بطبيعتها وبعمرانها، بفعل تشييد هذه المجمّعات فيها.

4 - شبكات المواصلات والنقل وتأثيرها في المجال العام وفي علاقة الإنسان بمحيطه.

يولي المخطط اهتماماً كبيراً بشبكة المواصلات والنقل، ويبالغ بدورها في إعادة هيكلةِ الوطن، وفي بناء وحدته الوطنية. فيبدو لبنان في أفق 2030، مزدحماً بالسيارات، وبالأوتوسترادات وبالطرقات أيضاً.

وينصبُّ هذا الاهتمام على أهداف عدة، أهمها معالجة الاختناق عند المدخل الشمالي للمجال المديني المركزي (بيروت وجبل لبنان)، وإزالة كل المعُوقات أمام تقصير المسافات بينه وبين المدن الأقطاب، وبين المدن الأقطاب بعضها مع البعض الآخر، أو مع مدن الربط المتعددة. ويُصرُّ المخطط على فكرةٍ أساسية مفادها، أنه لا يمكن مقاربة موضوع المسافات بين المدن بمعزل عن الوقت، ويبدو حريصاً على إدارة المعادلة مسافة - وقت، كما يدير المعادلة مسافة - نقد. فيشدد على الوقت، في الصلة بين المجال المديني المركزي والمدن الأخرى: ثمانون دقيقة، ستون دقيقة، ثلاثون دقيقة، وكأنه يريد، أن يجتاز واحدنا البلد من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، بساعتين اثنتين.

يعاين المخطط الإتصال مع الجنوب، فلا يرى مشكلة. فالأوتوستراد الموجود يعمل بثلث طاقته، وهو كافٍ حتى العام 2030. ولا مشكلة في الإتصال مع الشمال البعيد،

فالأوتوستراد كافٍ أيضاً. ومداخل بيروت من الجنوب متعددة، وتكاد تكون فارغة. فتنحصر المشكلة في الاختناق عند مدخل بيروت الشمالي - الشرقي، فيقترح لذلك حلاًمركباً يقوم على عدة تدابير أهمها: منع البنيان على جانبي الأوتوستراد، واستحداث طريق بحري مكان السكة الحديد في منطقة جل الديب - انطلياس، واستحداث جسر أو نفق، في منطقة الزوق - المعاملتين.

وخلافاً للتدابير التي يقترحها المخطِّط، فإن الحل الوحيد أمام المدن عندما يخترقُ الأوتوسترادُ نسيجَها، هو امتصاصُه، وتحويله الى مجرد سوق. هذا ما فعله التجمع السكاني الكبير من الزلقا حتى الضبية، وهذا ما فعلته منطقة الزوق - المعاملتين، وهذا ما ستفعله جبيل غداً، لأن الأوتوستراد الحالي، يفصلها عن امتداداتها الطبيعية إلى التلال، شرقها.

أما النفق أو الجسر المقترح في منطقة الزوق - المعاملتين، فانه سيقلب علاقة الناس بمحيطهم في حال تنفيذه، راساً على عقب. ولنا في أوتوستراد المطار الجديد، خير دليل على ذلك. لقد قيل وكتب في حينه، أن إحدى مزايا هذا الأوتوستراد المديني، هي تمكين القادمين عبر المطار، من الوصول إلى وسط المدينة، خلال مدة لا تتجاوز السبع دقائق.

وفي واقعنا اليوم، وغداً، وربما بعد غد أيضاً، والقادمون قلّة كما يجزُم المخطِّط، يستعمل أوتوستراد المطار

معظم القادمين من الجنوب، أو الذاهبين إليه. يمر أوتوستراد المطار داخل المدينة في وادٍ بداية، بين جدارين شاهقين، ثم في نفقٍ، يليه نفقٌ آخر، ثم يظهرُ جسراً يتمايل أمام الشرفات والنوافذ، قبل أن يغيب مجدداً في نفق طويلٍ، مظلمٍ، خانقٍ، ليُطلَّ على ساحة رياض الصلح من فتحة ضيقة، لا نخالها بّوابة بيروت الرئيسة.

لقد دمَّر الأوتوستراد نسيج المدينة الحي، وحفر في جسدها جرحاً لن يندمل، وأحدث انقلاباً جذرياً في علاقة الإنسان بمحيطه. فالعابرون فيه لا علاقة لهم بالمدينة. والمدينة بكاملها مكان عبور شطرها الوادي، ولا علاقة طبيعية بين الناس على ضفتيها، أو فوق الانفاق. وما الداعي إلى كل ذلك؟ ولماذا كان على المدينة أن تختبىء حتى لا يراها القادمون؟ وهل يستحق عددهم اليوم، وغداً، وبعد غدٍ، أن ندمر مدينتنا، كي يصل بعضهم إلى وسط المدينة، خلال سبع دقائق؟

سيكون للجسر أو النفق، في منطقة الزوق - المعاملتين، الأثر ذاته، في حياة الناس هناك.

لقد أشار المخطط إلى سوء حظّ صيدا بكونها شديدة القرب من بيروت. والتدابير المقترحة لشبكة الطرقات في حال تنفيذها، ستجعل كل المدن شديدة القرب من بيروت، أي ستجعلها سيئة الحظ. وهي ستكون سيئة الحظ فعلاً، إذ إن ما ستشهده سيكون عكس ما يُخطَّط له. سيطغى وزن المجال

المديني المركزي (بيروت وجبل لبنان)، وسنشهد حركةً باتجاهٍ واحدٍ، باتجاه بيروت، وسيزداد ازدحام الناس عند مداخلها. والحل يمر بالضرورة بتقليص دور بيروت. ربما باتخاذ تدابير ارادية على كل الصعد، الادارية، والاقتصادية، والمالية، والثقافية، ... إلخ. وربما تكون الاجراءات الادارية أسهلها، بأن نحافظ مثلاً على مقرات الوزارات الأساسية في بيروت، وأن ننقل مقرات معظم الوزارات الأخرى مع إداراتها إلى المناطق، وأن نعزِّز شبكة طرقات التواصل بين المناطق الكبرى، دون المرور في بيروت. عندها ربما يستفيد الناس من المعادلة مسافة - وقت.

5 - ندرة المجالات، والأراضي المكتسبة بردم البحر.

يبقى أن نلتفت مع المخطَّط، إلى مقولة الأرض المكتسبة بردم البحر، وإلى تأثير ذلك في المجال العام.

يتلطئ رادمو البحر عندنا، بندرة المجالات الصالحة للبناء. ويتوقف المخطط، عند أعمال الردم الكبرى والأرض المكتسبة، في المطار وخلده، وفي قلب بيروت، وفي الضبيه. فهو يشير بوضوح، إلى التأثير البيئي السلبي المزدوج، على المجالات العامة البحرية والجبلية، الناجم عن أعمال الردم. ولكن ماذا لو لم نكتف بالمقاربة البيئية؟ وانطلقت مقاربتنا من مفهوم الحرية أيضاً؟ هذه الهالة الإيقونية، التي

يحاول المخطط أن يحيط بها لبنان؟ أو من مفهوم حماية تراث مدننا؟ وتاريخها؟ وذاكرتها؟

في أعمال الردم الكبرى، تعدٍّ على الأملاك العامة البحرية، وفيها حرمانُ الناسِ من حريتهم في الوصول إلى البحر وفي استخدامه، لا بل فيها خصخصةُ الأملاكِ العامةِ البحرية، والمتاجرة بها، وكل هذه الأعمال مخالفة للقانون، وفيها تغيير جذري لطبيعة الأمكنة، وطابعها، وميزاتها. إن أعمال الردم في وسط بيروت، ابتلعت خمسماية سنة من تاريخ المدينة في العهد العثماني، ودمرَّت علاقتها بالبحر، وقلبت علاقة الناس بمحيطهم الطبيعي راساً على عقب. تمشي اليوم على الكورنيش بمحاذاة المارينا الغربية فلا ترى البحر، لأن كاسرات الموج العملاقة تحجبه. وفي ضبية حجبت الأراضي المكتسبة بمنسوبها المرتفع، البحر كلياً عن الناس، وأصبح البحر بعيداً. وإذا غامرت وسلكت الجسور، وحاولت الوصول إلى المارينا "للفرجة"، فلن يُسمَح لك بذلك، لأنها "ملك خاص". تعمل الحرية في كل هذه الأمثلة ضد القانون. أي أنها تعمل باتجاهٍ واحدٍ، يحرمُ الناس من حريتهم، ويُطلق حرية رأس المال المتغطرس.

6 - في المهمات المباشرة: من المهم بداية، أن تنجح العمليات الجارية في سوليدير، وفي أليسار.

عنوان الفصل الأخير من المخطط هو، المرحلة الأولى

في تنفيذه. وفي باب التدابير المطلوبة في حقل التنظيم المديني، نقرأ، أنه من المهم بدايةً، أن تنجح العمليات الجارية الآن في سوليدير وأليسار. أتساءل، ما هي العلاقة بين العمليات الجارية في سوليدير، والعمليات الجارية في أليسار.

أرى بداية أن مشروع سوليدير، هو مشروع عقاري صرف، تملكت فيه شركة عقارية ضخمة قلب بيروت التاريخي، وما ردم من البحر أمامه. وتقوم الشركة الآن، ببيع مكثَّفٍ للأراضي بأسعار خيالية، ويقوم المالكون الجدد ومعظمهم شركات قابضة عربية وأجنبية، ببناء المجمعات العملاقة، بمئات الملايين من الدولارات، وأحياناً بمليارات الدولارات.

أما مشروع أليسار كما أفهمه وكما هو عليه الآن، فهو عملية إنمائية يديرها القطاع العام، تهدف إلى إخلاء الأراضي التي يقوم فوقها بنيان عشوائي، ابتدأ بالظهور في منتصف الخمسينات، وإعادة تمركز الناس بأعمالهم وبسكنهم، في أماكن صحّية، نظيفة، ولائقة، تحترم فيهم قبل كل شيء، إنسانيتهم. ولا مجال للمقارنة بين المشروعين، إلا إذا ارتأى المخطط، تحويل مشروع أليسار إلى مشروع عقاري جديد، قد يكون الآن في طور الاعداد، جوهره، استرجاع الرمول في منطقة الأوزاعي - خلده، لتُبنى عليها المؤسسات السياحية، والمنتجعات البحرية، والمارينات. فتكتمل الصورة

لكبريات الشركات القابضة، من الأوزاعي، إلى وسط بيروت، إلى لينور، إلى الردم في ضبيه. وتخصخص الأملاك العامة البحرية في كل مكان، وتخصخص معها مياه البحر، وتزدحم فيها المارينات، مرائب مميَّزة ليخوت المميزين.

يبقى موضوع النجاح في العمليات الجارية، في سوليدير وفي اليسار، فلا مجال للمقارنة مرة أخرى.

"فأليسار" لم تقلّع بعد، وسوليدير قطعت أشواطاً كبيرة في أعمال التنفيذ.

هل نجحت سوليدير؟ وما هي معايير النجاح؟

أعتقد أنه لم يبق أمام سوليدير من أعمالٍ كبرى، سوى ترتيب الجزء المتبقي من الأراضي المكتسبة بالردم، وبناء أعمال الحماية الضرورية لها، وتشييد المارينا الشرقية. أما في الأراضي الأخرى، فقد باعت سوليدير كل شيء تقريباً، ولم يبق لديها إلا القليل لتبيعه. وأعمال البناء جارية بسرعة. وتسير بيروت بخطى سريعة لتصبح بعمارتها وبأبراجها، دبي ثانية. وهنا عملت الحرية أيضاً في اتجاه واحد، هو حرية الاستثمار. أي حرية للشركات القابضة والرساميل الضخمة، بأن تتملك كل شيء، المجال، والأملاك العامة البحرية، ومياه البحر، ورؤيته، وسماع أمواجه، والتطلع إلى السماء فوقه، والإحساس بتسلل الشمس إلى الأجساد. تملكت الشركات القابضة بحريَّة كل شئ، وستبيعه بحرية أيضاً، إلى من تشاء. وخسر البيروتي العادي، الذي كان يتنزه قبل

سوليدير، عند خليج النورماندي، أو في مطلات الزيتونة، خسر كل حريته، "وخصخصت" الشركات القابضة كل الحرية.

أما عن المجال المديني المبنيّ فالحديث يطول. إذ ربما ساعد امتداد الصحراء على تنظيم تموضع الأبراج في دبي، وفي الأراضي المردومة في قطر. أما عندنا في بيروت، في منطقة المارينا الغربية، فالأرض ضيقة، والمجالات نادرة، والأبراج مكتظة متلاصقة. تكاد تشعر، وكأن المكان قد فقد هواءه، وسيصاب الجميع فيه بالاختناق. خمسةُ أبراجٍ بارتفاعٍ يتعدَّى 140 متراً، تـُبنى الآن حول المارينا. إنها الفَوضى، والرأسمالية المتوحشة، تغيِّر الواجهة البحرية للمدينة، وتحجب البحر عن كل الناس خلفها. أين اهتمام المخطط بمدينية المجال العام المديني؟ بالكثافة؟ بعوامل الأستثمار؟ بالإرتفاعات؟ بعمارة المدينة؟بتاريخها؟ بطابعها؟ بعلاقتها بالبحر؟ أين اهتمامه بقواعد المنظور؟ بمجالات وقوع النظر؟ بمواقع الرؤية؟ بتناغم النسيج المبني؟

تساءلنا في العام 1991، عندما عُرض المخطط التوجيهي لوسط بيروت (سوليدير): بيروت هي، أم مدينة اسقطت بالمظلات؟ يكتمل اليوم بعد عقد ونصف، إسقاطُ المدينة بالمظَّلات.

هل نضع طفرةَ الأبراجِ هذه، في خانة النجاح؟ وبأية معايير؟

لا تكترث الشركات القابضة بمثل هذه الأسئلة، وها هي وسائل الإعلام المرئي والمكتوب ملأى بالمناظير الملونة، لمشروع تصل كلفته إلى حدود المليار ونصف المليار من الدولارات، سيقام في طرف جادة البرج، قبالة الحوض الأول، يتألف من أربعة مبان بارتفاع عادي، ومن أربعة أبراج بارتفاع يتصاعد من التسعين، الى المائة وستين متراً.

غداً سيُقزَّمُ نصب الشهداء، قبالة أبراج "نورمان فوستر".

وغداً أيضاً، سيضيع تمثال رياض الصلح، كما ضاعت الساحة قبله، عندما يقوم هناك برج "جان نوفل".

يبقى أن ننتظر برج نمط العيش المترف، برج إيفانا ترامب، رمز السحر والفتنة، كما جاء في الصحف.

في مقدمة اهتمامات المخطط، نجاح العمليات الجارية في سوليدير.

ولعل النجاح الذي يتوقعه في اليسار هو نجاح مشابه، فبئس النجاح.

السفير في 7 تموز 2006

II

من العمارة إلى المدينة

•

3- ناطحات السحاب تزنّر مارينا سوليدير

هل الرؤية الهندسية لمدينة بيروت اليوم، تستجيب لما يمليه مكانها الطبيعي.

4- مراحل في عمارة بيروت
تحول هادئ أحياناً، وتغيير فجٌّ غالباً.

5- المعمار، العمارة، والمجتمع.

6- الأبنية البرجيَّة في النسيج المديني المعاصر.
قراءة ملوية مواربة، وتوصيف غير مكتمل.



ناطحات السحاب تزنر مارينا سوليدير



3

ناطحات السحاب تزنّر مارينا سوليدير

هل الرؤية الهندسية لمدينة بيروت اليوم، تستجيب لما يمليه مكانها الطبيعي؟

I ـ المكان الطبيعي لمدينة بيروت، شكله، حدوده، صفاته، ومميزاته.

تبتعد الرؤية الهندسية لمدينة بيروت، عن ما يمليه مكانها الطبيعي. ومدينة بيروت هنا، ليست بيروت الإدارية بحدودها التي تبدأ عند البحر، وتنتهي عند مصب النهر. المدينة التي نتحدث عنها هي بيروت الكبرى، التي كانت بلدة صغيرة حول مرفأ طبيعي، لا يتعدى عدد سكانها في العام 1820 العشرة آلاف نسمة، وأصبح عدد سكانها يفوق المليون نسمة في أوائل السبعينات، من القرن الماضي .

نتكلـّم إذاً عن بيروت الكبرى، الممتدّة من خلده إلى

الضبية. وقد أجمع الذين عملوا على تنظيم بيروت هذه، على التغني بفرادة موقعها الطبيعي، وكلـهُم للمناسبة فرنسيون. (1)- من الأخوين دانجيه (Danger) في منتصف الثلاثينات. (2)- إلى ميشال إيكوشار، المعمار والضابط في الجيش الفرنسي، في بداية الأربعينات، (3)- إلى منظم المدن والمثقف إرنست إغلي (Ernest Egli) في العام 1950. (4)- إلى ميشال إيكوشار مجدداً في الستينات، (5)- دون أن ننسى المرور الخاطف لليوناني دوكسيادس في العام 1957 مختبئاً في جيب النقطة الرابعة الأميركية.

تُظهر الصور الجوية، بيروت الكبرى وهي تقوم على شبه منبسط مثلث الشكل، يكاد يكون متساوي الضلعين، رأس المثلث ناتئ في البحر، وقاعدته تنبت منها التلال وفوقها الجبال.

ومن المميزات الأساسية لهذا المكان، وضوح حدوده الطبيعية: البحر في الشمال الشرقي، وفي الغرب، وفي الجنوب الغربي، والجبال في الشرق. إنه واضح، مرئيٌّ، مقروءٌ، بهذا التناقض بين المياه واليابسة، بين هدوء الماء وزرقتها، وصخب البُنيان المتعدد الأشكال والألوان، المكتظ المتلاصق.

تشعر وأنت تنظر إلى البحر، بالسكينة وبالهدوء، يحضنان المدينة من كل صوب، ويدعوانها إلى الطمأنينة، رغم بعض العواصف الموسمية.

تشعر، وأنت تعيد النظر بالصور الجوية، بنظام طبيعي

عام لا يتغير على مدار السنة، يحدِّد علاقة البر بالبحر.هدوء شامل عند الضلع الشمالي الطويل، وبعض التوتر عند الغرب وعند الضلع الجنوبي الغربي. إلا أن السمة الأساسية للمكان، هي العلاقة التي ينتجها بر المدينة مع بحرها. وبر المدينة في شاطئها الغربي وفي شاطئها الشمالي الشرقي، هو صخري، شديد التعرج، متعدد الخلجان، كأنها جيوب تختبئ فيها مياه البحر هرباً من حر الشمس. تكسو التضاريس أرض المدينة، في شمالها الشرقي وفي غربها، فتنحدر الهضاب بلطف باتجاه الشمال الشرقي وتـَظـْهَرُ مناطقُ مرتفعةٌ، بارزةٌ، منطقتا رأس بيروت وبرج أبو حيدر، في غربها، وفي شمالها الشرقي مناطق الأشرفية، والسيوفي، وأعلى الجميزة. أما برّ المدينة في شاطئها الجنوبي الغربي فهو رملي، شبه أفقي لا تضاريس فيه، يمتد من الرملة البيضاء إلى آخر منطقة خلده عند أقدام التلال. وإذا كانت مياه البحر صارمة في تحديد المكان الطبيعي لمدينة بيروت، عند رأس المثلث وعند ضلعيه، فإن الجبال ليست أقل صرامة في تحديد هذا المكان عند قاعدة المثلث، عند الشرق.

II ـ إملاءات المكان الطبيعي لبيروت الكبرى في رؤيتها الهندسية، وفي العمران الذي يحقق هذه الرؤية

يتناقض المكان الطبيعي لمدينة بيروت مع محيطه، فالبر

هو نقيض البحر، والمنبسط رغم تضاريسه، هو نقيض الجبل. إلا أن التناقض لا يعني تنافراً. فالتناغم لا يصنعه التجانس فقط، فهو غالباً ما يصنعه التناقض، وهذه هي حالة المكان الطبيعي لمدينة بيروت الكبرى.

فبيروت المدينة التاريخية، إنما قامت بداية حول مرفأ طبيعي صغير. وامتدت خارج الأسوار فوق التلال القريبة جنوبها، في منطقة زقاق البلاط. تطلعت المساكن الجديدة إلى البحر وغرقت في الحدائق، وتدرجت بإنحدار التلال. فلم يحجب مسكنٌ البحر عن المسكن الذي بني خلفه، فبدت البقعة وكأنها حدائق مسكونة، تلامس بإنحدارها اللطيف مياه البحر. ثم امتدت بعد ذلك فوق التلال المنتشرة في الضلع الشمالي الشرقي، وفق الشروط ذاتها. نسجت بيروت التاريخية، وبيروت المتمدّدة، علاقة حميمة مع البحر.

ـ البحر متعةٌ للنظر، وحضورٌ، ومجالٌ فسيح ممتد للراحة وللتأمل، ومصدر لرزق الصيادين بخلجانه الطبيعية الكثيرة. والبحر يحمل الزوّار والسلع إلى المدينة.

ـ البحر يلطّف بالرطوبة حرارة فصل الصيف وهو بدفء مياهه، للنزهة، وللسباحة، وللعب...

ـ البحر هو كل شيء تقريباً. فهو دائم الحضور في حياة الناس، لا يفصله عنهم أي عائق.

ـ والبحر عبر كل ذلك هو، عامل أساسي في صنع هوية المدينة.

● **وأول ما يفترضه المكان الطبيعي لبيروت، في الرؤية** الهندسية وفي العمران الذي يحققها، هو الحفاظ على العلاقة التاريخية الحميمة التي نسجتها مع البحر. غير أن مركز بيروت التجاري تعزز مع الاستقلال، فتوسَّع المرفأ، واحتل قسماً كبيراً من الضلع الشمالي الشرقي للمثلـَّث الطبيعي. وحذا حذوه المطار الجديد في الضلع الجنوبي الغربي. ثم بدأت أولى خطوات خصخصة الشاطئ باسم تشجيع السياحة. فتضرَّرت بكل ذلك الوحدة الطبيعية لشاطئ بيروت، وابتدأت المدينة تفقد تدريجياً طابعها الرئيس، وهو علاقتها الحميمة بالبحر. إلا أنها رغم بعض أعمال الخصخصة الإضافية في الستينات، ورغم بعض التعديات التي بدأت مع أحداث العام 1958 وتصاعدت مع الحرب الأهلية، استطاعت أن تحافظ على هذه العلاقة، عبر منطقة امتدت من السمرلاند حتى المرفأ. وعبر شاطئ رملي فريد، امتد من الأوزاعي حتى آخر خلده عند التلال الحدود. حافظت بيروت إذاً، رغم توسعها العشوائي، على معظم المواقع الطبيعية، التي صنعت علاقتها التاريخية الحميمة بالبحر، وذلك حتى بدء ما سميء ورشة الإعمار في العام 1992، أخص منها ورشة إعمار قلب المدينة.

ففورات البنيان التي عمت المدينة بعد الاستقلال، أدت إلى إنتشار طاغٍ لعمارة الطرز الدولي، المنسوخة غالباً من دون أي جهد ابداعي، وإلى تدمير تراث المدينة، التي فقدت

بذلك معظم ميزاتها. إلا أنها استطاعت أن تحافظ على قلبها التاريخي، بساحاته وأسواقه التقليدية، وعلى الجزء الأهم من واجهتها البحرية.

وإعادة اعمار وسط بيروت تقوم به اليوم شركة عقارية تملَّكته بكامله. فظنَّت الشركة، أنها بتملكها الأرض، إنما تملَّكت أيضاً، التاريخ والتراث والخاصيات والهوية. والشركة هي شركة عقارية، ومشروعها لإعادة الأعمار، هو مشروع عقاري - ريعي - تجاري - مالي، يتناقض كلياً مع ما يفترضه مكان بيروت الطبيعي. فابتدأ المشروع بتغيير معالم الشاطئ على امتداد قلب المدينة التاريخي، وبتغيير واجهتها البحرية، فردم البحر، وتوغـَّل عميقاً في مياهه، واستحدث في الغرب مارينا عملاقة، وأخرى في الشرق، يربط بينهما كاسر للموج مبالغ بارتفاعه يحجب البحر عن المنتزهين. وتجاهل بشكل غير مسبوق المعطى الطوبوغرافي لمكان المدينة الطبيعي في قلبها، فدمَّر هذا المعطى في الأسواق التقليدية في منطقة باب إدريس، واستحدث أنفاقاً وجسوراً غير معهودة في الأماكن التاريخية من المدن، وألغى الساحات، وهدم الأسواق التقليدية، وحوَّل قلب المدينة التاريخي إلى صحراء، زنـَّرها بالأوتوسترادات العريضة وبالأنفاق وبالجسور، ففصل بذلك قلب المدينة عن جسدها.

وهل يخفق قلب خارج الجسد!؟ وهل يعيش جسد بدون قلب!؟

فالتشويه الذي لحق بمدينة بيروت، وبمكانها الطبيعي، خلال عقد من الزمن (1992 - 2003) يوازي التشويه الذي لحق بالمدينة، وبمكانها الطبيعي، خلال أربعة عقود (1950 - 1990). فتوسيع المطار مثلاً، أدى إلى ردم البحر في خلده، وزوال الشاطئ الرملي هناك. فتغيرت الواجهة البحرية للمدينة بشكل فج، خلافاً لكل إملاءات مكانها الطبيعي. وفي الطرف المقابل من المثلث الطبيعي حامل بيروت الكبرى، تم ردم البحر في ضبيه. وأصبحت مياه البحر بعيدة... بعيدة، عن بيتٍ سكنتُه هناك منذ ثلاثة عقود ونيِّف. فهل سيتم تنفيذ القسم المتبقي من المشروع، بردم البحر من مكب الدوره حتى ردم الضبيه، فيكتمل بناء واجهة بحرية جديدة لمدينة بيروت الكبرى؟ نقيضة واجهتها البحرية الطبيعية؟ يصنعها إعمارها؟

● وثاني ما يفترضه المكان الطبيعي لبيروت، في الرؤية الهندسية، وفي العمران الذي يحققها، هو أن تبقى المدينة داخل حدودها الطبيعية. إلا أن المدينة، في الصور الجوية، تبدو بلا حدود.

* تراها تتعدَّى على الشاطئ بكامله، وتردم مياه البحر في مواقع عدة. تسد الخلجان، وتلتهم الشواطىء الرملية، وترمي الكتل الخرسانية في عرض البحر، تبني بها كاسرات للموج، لتحمي مرافىء استحدثت على طول الشاطئ. تبدو

هذه المرافىء في أشكالها كالكمَّاشات تقتطع البحر، أو كأفواه فاغرة تبتلع مياهه، فنخاف. نخاف أن تجف مياه البحر يوماً، إذا ما استمر ابتلاعها. من شاطئ طبيعي، فيه مرفأ تجاري واحد، تحول شاطئ بيروت الكبرى، إلى شاطىء زرعت فيه عشرات المرافىء، فخسر الشاطئ طابعه، وخسر بالتأكيد معناه، وخسرت المدينة مكوناً أساسياً من مكونات هويتها.

* ثم تراها تتمدَّد شرقاً بنهم مماثل لتمدّدها في البحر، فتضيع حدودها مع الجبال. كانت المدينة قد توسَّعت نسبياً في الخمسينات. فتعدت منطقة الدورة إلى البلدات الساحلية المجاورة في الشرق وفي الشمال، وظهرت بعض المساكن الفردية الأنيقة في النقاش وفي الرابية. إلا أن تمدد البنيان توقف عند أقدام التلال.

أذكر أنني كنت أرى المدينة من نافذة الطائرة، محاطة في شرقها الشمالي بتلال يكسوها الصنوبر. والرؤية ذاتها كانت تطالعني في جنوبها الشرقي. كانت التلال الخضراء متنفس المدينة الكبرى وحدودها، تفصل بينها وبين البلدات المنتشرة في أعلى السفوح. وكان بإمكان الرؤية الهندسية أن تـُبقي الزنار الأخضر فاصلاً، أو أن تحوّله إلى مجموعة من البلدات - الحدائق، تنتشر فيها البيوت القليلة العدد والقليلة الإرتفاع، على أن يُكثـَّف (بضم الياء) البناءُ فوق الزنـَّار

الأخضر الفاصل ويزداد ارتفاعه، وتبقى الوديان في كل الأحوال فاصلاً بين مجمعات المباني. إلا أن المدينة أبت إلا أن تُظهِر قدرتها على تخطي حدودها الطبيعية، بموازاة تخطِّيها الدائم لحدود حقوقها، في المجتمع، وفي الناتج الوطني، وفي الوطن. فامتدت إلى التلال، وابتلعت الزنار الأخضر الفاصل، وتسلقت حتى وصلت إلى أعالي السفوح، فاتصلت بمراكز الاصطياف الريفية، وذلك على امتداد حدودها الشرقية، وظهر البنيان فيها موحَّداً مع البنيان في جبل لبنان.

التهمت المدينة البلدات الريفية، وعمَّ البنيان المديني (Urbain) كل الأماكن في الريف القريب. فغاب الريف بطابعه، ولم تقم فيه مدينة. لا فرق في الشكل ولا في الوظيفة، بين البنيان في بعبدا وعرمون، وبشامون، والنقاش، وعين سعاده، وبيت مري، وقرنة شهوان، وبين البنيان في الظريف، والطريق الجديدة، والأشرفية، وفرن الشباك. حتى الطرقات الموصلة إليه من الساحل، فقدت دورها كمسارٍ للنقل والإتصال وصارت أسواقاً. تخطـَّت المدينة مكانها الطبيعي فضاعت حدودها، ففقدت بذلك جزءاً من طابعها، وفقدت جزءاً من معناها، وأفقدت الريف القريب كل معناه.

● وثالث ما يفترضه المكان الطبيعي لبيروت الكبرى هو، أن تنطلق رؤيتها الهندسية، وينطلق العمران الذي يحقق هذه الرؤية، من الخاصيَّات الجغرافية للموقع: البحر بداية،

ومسار الشمس، وإتجاه الرياح، ومكونات الأرض من تربة وصخور وأشجار، ومن المعطى الطوبوغرافي للموقع الطبيعي، الأماكن المنبسطة الساكنة، والأماكن المرتفعة المتوترة، واتجاه جريان الأمطار.

* فيأتي العمران كنصٍّ موحدٍ شاملٍ، ليشرح هذه الخاصِيَّات، ليوضحها. يأتي العمران شفافاً في التصاقه بالأرض، فلا يحجبها، ولا يقنِّعها، بل يدلُّ على الإختلافات فيها، ويُظهر التناقضات التي تصنع بتناغمها جمال المدينة.

* ويأتي العمران صادقاً في عشقه للأرض، فلا يتلاعب بطوبوغرافيتها، ولا يشوِّهها، بل يبرزها كمصدر لتنوع العمران في المدينة.

وتتابُعُ بيروت التاريخية، جاء في موقع واحد، مرفأ طبيعي صغير في منتصف الضلع الشمالي الشرقي، بقي إياه ولم يتغير خلال قرون. فهو محمي من الرياح الجنوبية الغربية السائدة، قليل الانخفاض عن منسوب البر الذي يرتفع بلطف نحو الداخل. وبيروت التاريخية، التي تتابعت في المكان ذاته كما ذكرت، حتى نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، ابتدأت بالتمدُّد خارج أسوارها. وجاءت الإمتدادات الأولى مستجيبة بأمانة لإملاءات مكانها الطبيعي.

إنطلقت المدينة من المرفأ، وتوسعت جنوباً، باتجاه حرش صنوبر بيروت وأطراف طريق صيدا وطريق الشام، ملتصقة بطوبوغرافية مكانها الطبيعي، متجنبة الرياح الجنوبية

الغربية السائدة، محافظة على علاقتها الأساسية مع البحر. ثم انحرفت قليلاً في تمدُّدها نحو الشرق. إلا أنها لم تغامر بالتوجُّه غرباً نحو رأس بيروت، وابتعدت بحذر عن التلال الرملية والساحل الرملي الكائنين في الجنوب الغرب، في ما يعرف اليوم بتلة الخياط والرملة البيضاء. وكل البنيان الذي امتد غرباً من ميناء الحصن، وصولاً إلى الجامعة الأميركية تطلَّع شمالاً وتأمَّل البحر. ثمة مفاهيم أساسية إذاً سادت، في الرؤية الهندسية للمدينة، وفي العمران الذي حقَّقها:

ـ المرفأ هو الأساس. والمرفأ القديم المحميُّ، هو جزء لا يتجزأ من النواة التاريخية للمدينة.

ـ قاعدة النسيج المديني، هي الشاطئ الشمالي على جانبي المرفأ شرقاً وغرباً.

ـ حدود هذا النسيج هي، التلال الرملية في الجنوب الغربي، والتلالُ في الشرق، وحرش صنوبر بيروت في الجنوب. وأطرافه هي مخارج المدينة نحو صيدا ودمشق.

استمر نمو المدينة مع ازدهار مرفئها. وتسارع امتداد البنيان وفق المفاهيم الأساسية هذه،حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولم يغيِّر الإحتلال الكولونيالي كثيراً في هذه الرؤية حتى الاستقلال. والمحاولة العنيفة لزرع ساحة نجمة بيروتية تجاور ساحة البرج العتيقة، وتنافسها، لم تكتمل. إذ أنتجت المحاولة شارعاً واحداً شعاعياً مستقيماً هو شارع المعرض - اللنبي. أما الشوارع الشعاعية الأخرى فلم تكتمل. ووُسِّع

الطريق المؤدي إلى الجامعة الأميركية في بيروت، وحمل أسماءً جديدة دالة،أسماء ويغان، وبيكو، وبلس. إلا أنه على الرغم من امتداده، واعتماده مساراً " للترامواي" الجديد،بقي يصعد ويهبط ويتلوَّى، ملتصقاً بطوبوغرافية المكان الطبيعي للمدينة. وحذت حذوه، كل الشوارع الأخرى المستحدثة هناك. ثم تسارع انتشار البنيان داخل الحدود وخارجها، باتجاه منطقة رأس بيروت عامة، ومنطقة الحمراء خاصة في الخمسينات، وباتجاه تلة الخياط والرملة البيضاء في أوائل الستينات.

أما في الجزء الشمالي - الشرقي من مكان بيروت الطبيعي، فقد أدى النزوح الكثيف من الجبال، وتنفيذ جزء من أوتوستراد بيروت - طرابلس في الخمسينات، إلى ازدياد كثافة البنيان الذي التهم بساتين البرتقال. فظهرت صورة الضاحية الشمالية الشرقية الملتصقة بالمدينة الأم - بيروت الإدارية.

وإزداد النزوح في الفترة ذاتها من الجنوب والبقاع، إلى الجزء الجنوبي الغربي من مكان بيروت الطبيعي، وإزدادت الكثافة السكانية فيه، وتمدَّد البنيان في المنطقة بكاملها، وظهرت صورة الضاحية الجنوبية المتصلة بدورها بالمدينة الأم - بيروت الإدارية.

واكتمل العقد في أوائل السبعينات وظهرت جلية صورة "بيروت الكبرى" المزدحمة ببنيانها وبسكّانها، وقد تعدَّى عددهم المليون نسمة.

III ـ هل من نظرة شاملة إلى بيروت اليوم؟ وكيف نراها، كيف نقرأها؟

يتضح من النظرة الشاملة إلى مدينة بيروت الكبرى اليوم، أنها بالغت بتمدُّدها على الشريط الساحلي، كما بالغت بتسلقها التلال المحيطة بها شرقاً فأصبحت بقياساتها، وبمساحتها، وبعدد سكانها، وكأنها خارج المقياس (Hors echelle) مقارنة بقياسات الوطن، وبمساحته، وبعدد سكانه. وبالغت أيضاً، بتعدياتها على البحر، فلم يعد لها حدود. فحصلت بذلك قطيعة كاملة بين بيروت الكبرى، ومكانها الطبيعي. واللافت أن بيروت الكبرى هذه رغم تمددها غير المنضبط، تبدو مكتظة شديدة الكثافة في معظم مناطقها. والمتنزه المغامر، يلاحظ كثافة البنيان ترهقه، من برج حمُّود مروراً بالسيوفي، وأحياء منطقة الأشرفية، إلى البسطة، والمصيطبة، وصولاً إلى رأس بيروت. ويمكننا أن نلاحظ الكثافة الضاغطة للبنيان، إذا انطلقنا في نزهة أخرى من رأس بيروت باتجاه برج البراجنة، مروراً بالمصيطبة، وبرج أبو حيدر، والمزرعة، والطريق الجديدة.

والإكتظاظ والكثافة، يعمّان المدينة، دون مراعاةٍ لمتطلبات المعطى الطوبوغرافي المتنوع فيها. يشعر المتنزه المغامر، وكأن الإكتظاظ واحد في تلال السيوفي وفي

الأشرفية، أو في المصيطبة، والظريف، وبرج أبو حيدر، على الرغم من التنوع الطوبوغرافي لهذه الأمكنة، والذي يتطلب تنوعاً موازياً في الكثافة وفي ارتفاع المباني.

ويزداد شعوره بالإكتظاظ، كما يزداد إحساسه بالإختناق، وهو يرى في نزهته غياباً شبه كاملٍ للحيز العام، عنيت الحدائق العامة الواسعة، والساحات الكبيرة، والفسحات، والزوايا المنظمة، والتقاطعات الموسَّعة، والمنحدرات الصعبة المشجَّرة، والأرصفة بخاصة. فإذا استثنينا حرج بيروت، وحديقة محلة الصنائع، فإننا لا نجد في بيروت حدائق عامة ذات تأثير في محيطها. فحديقة تلة الخياط مثلاً، وحديقة برج أبي حيدر كمثال آخر، تكادان لا تظهران وسط النسيج الذي يحوطهما. ويَصحُ القولُ ذاته، في حديقتي السيوفي ومار نقولا. وكما غابت الحدائق عن المدينة، إلا النادر منها، كذلك غابت الساحات إلا النادر منها أيضاً.

وتصبح الأحياء اصطفافاً رتيباً للمباني إذا لم تتنوع الوظائف في كل حي، الدكان، والمقهى، والنادي، وحديقة الأطفال، لأذكر بعض ما هو ضروري لإنتاج حياة لائقة في الحي. كما تصبح الأحياء اصطفافاً قامعاً للمباني، إذا لم يُنظَّم كل حيٍّ حول حيز عام مناسب، فيه الحديقة، متنفَّساً ومكاناً للراحة، والساحة مكاناً للقاء سكان الحي. وتصبح الأحياء تجميعاً للمباني لا معنى له، إذا لم ينظَّم كل حيٍّ، بشكل يجعل عناصر الحيز العام فيه متصلة بعضها بالبعض

الآخر، بالطرقات، وبالفسحات، وبالأرصفة، للتأكيد مرة أخرى بأن الأرصفة هي جزء هام من الحيز العام المديني.

VI - بيروت الممَّزقة، بيروت الأحياء المبعثرة المغلقة.

يرى البعض،أن بيروت، هي اليوم مدينة مفتتة. وسبب تفتتها، تناحر أهلها، الديني - الطائفي - المذهبي. سأنظر إلى التفتت هذا، من زاوية التنظيم المديني للمدينة، أي الرؤية الهندسية والعمران الذي يحققها، تاركاً للمختصين مواضيع الدين، والثقافة، والإجتماع أيضاً.

فبيروت اليوم، بعد انقضاء عقد على بدء إعمارها، هي مدينة ممزَّقة، بالمعايير المدينية، وبالدلالات الحسية والمرئية للكلمة، أيضاً. إنها مدينة قد مزقها الإعمار. بيروت اليوم هي مجموعة بقعٍ مسكونة. فالناظر إلى الصور الجوية للمدينة، أو المتجول فيها بسيَّارته، إذ لا مجال لنزهة طويلةٍ على الأقدام في مدينة بيروت، تصدمه كل هذه الأوتوسترادات العريضة التي تخترق المدينة آتية من كل صوب، أو تلك الإلتفافية التي تزنر المدينة مرات ومرَّات. فهي مستهجنة، في مدينة عتيقة، مكتظة، كمدينة بيروت.

لقد استعمل المخطِّطون ومعهم المعمِّرون، المبضع بقسوة ظاهرة، في تصميم الأوتوسترادات والبولفارات وفي

تنفيذها، فمزقوا جسد المدينة المكتظ. لم يكترثوا بالبنيان الكثيف الموجود، ولم يلتفتوا إلى ساكنيه. لم يكترثوا بالمتغيرات الطوبوغرافية وبإملاءاتها. فمسار الأوتوسترادات، عليه أن يبقى مستقيما، أفقياً يرى المخطّطون، فلم يكترثوا بالمباني التراثية، ولا بالمباني ذات القيمة الجمالية. ولم يكترثوا بالتلال، وبالحدائق، أو ببقايا الساحات. على مسار الأوتوستراد أن يكون أفقياً أصروا، دون توقف ودون تقاطع. فاستعملوا المبضع، واقتطعوا من جسد المدينة من لحمها، شرائح عريضة مستقيمة. حفروا الخنادق عميقة، والأنفاق ممتدة معتمة، وأقاموا الجسور طويلة على طبقات. إنها أشبه بمجاري الأنهار، لا عبور من ضفة إلى الضفة الأخرى إلا فوق جسور نادرة متباعدة. قسّموا المنطقة الواحدة، والحي الواحد، وربما الزقاق الواحد أيضاً. وغالباً ما تَقتطِعُ الجسورُ أجزاءً من الشرفات القائمة، أو تمر بمحاذات النوافذ في طبقاتها العليا، أو تسد المداخل، في طبقاتها السفلية. لا مكان للمشاة، لا مكان للناس، في هذا المشهد السوريالي لجسد المدينة، محفوراً، ممزّقاً، مقطّعاً. فكيف سيتم التواصل بين أحيائها؟

● أن تُمزّق طرقاتُ السير السريع المدينية (Autroutes Urbaines) جسد المدينة، أن تُمزّق مَناطِقَها وأحياءها وتجعل التواصل بين ناسها صعباً لا بل مستحيلاً، إن ذلك هو بلا شك خاصية بيروتيّة.

● أن يتم الأعمار وفق شعار كل شيء للسيارة، ولا شيء للمشاة، هو أيضاً خاصية بيروتية، ربما رأيناها في الرياض، إلا أننا لم نرها، لا في دمشق ولا في القاهرة... ولا في باريس، خاصةً.

● وبيروت بلا حيز عام ملائم، بيروت بلا مركز وبلا قلب، بيروت هذه هي مجموعة أحياء.

خسرت بيروتُ بما سمّي أعمارُها حيّزها العام، عندما تملكت شركة عقارية واحدة النواة التاريخية للمدينة، فألغت الشركة ساحة البرج ساحة الشهداء، الساحة التي رافقت المدينة في تحولاتها فتحولت معها. الساحة المقفلة بالضرورة، كما عرَّف كاملو سيت الساحات. الساحة - مكان اللقاء المركزي الوحيد لناس المدينة، وفي كل المناسبات. وألغت الشركة أيضاً ساحة الدباس، وكانت صغرى الساحات في قلب بيروت، وصِلتُها بسوق النجارين وبالأحياء السكنية الكائنة في شرقها. وصارت الساحتان وجزء من شارع بشارة الخوري، جادة البرج العريضة والمفتوحة على البحر. ماتت الساحتان ولم تولد الجادة بعد.

وحسناً فعلت ندى صحناوي عندما أقامت تجهيزاً في موقع ساحة الدباس، لتعرض هناك ما يصلها من كتابات تتذكر بيروت. لقد ملأت مكان الساحة، برزم من الصحف العتيقة على شكل مكعبات متساوية الأضلاع والارتفاع، رصفتها بانتظام صارم، فبدت وكأنها مقبرة واضحة التنظيم.

لقد دُفنت (بضم الدال) إلى غير رجعة، معالم الذاكرة الجماعية هناك. والمكان، بكل ما دفن فيه يمكنه أن يكون مقبرة بالفعل.

تملكت الشركة العقارية النواة التاريخية لمدينة بيروت، فخسرت المدينة بهذا التملك قلبها، والحيز العام فيها، ومعظم المعالم حاملة ذاكرتها الجماعية، فبدت وكأنها قد فقدت كل العناصر التي توحّدها مدينياً.

لذا قيل فيها ربَّما، إنها مجموعة أحياء، معزولة بعضها عن البعض الآخر، بالأوتوسترادات والأنفاق والخنادق والجسور.

هدَّمت الشركة العقارية ولكنها لم تبن بعد، باستثناء إقبال الأغنياء العرب وبعض الأغنياء اللبنانيين، على بناء الأبراج عند أطراف مياه البحر المردومة في قلب المدينة، حيث سيملكون البحر، ويحجبونه بكبرياء عن الآخرين، حتى الساكنين في مرتفعات المدينة. تسكن شارع المكحول المرتفع، فيحجب البحرَ عنك، برج يقوم على رصيف عين المريسة بموازاة مياه البحر. ما هذا الفهم لتنظيم المدينة، ولعلاقتها ببحرها؟ ما هذا الفهم لإملاءات المكان الطبيعي على الرؤية الهندسية للمدينة، وعلى العمران الذي يحقق هذه الرؤية؟

املاءات المكان الطبيعي توجب البناء المنخفض بموازاة البحر. وغالباً ما يكون البنيان عامودياً على البحر وليس

موازياً له. كما توجب تباعد المباني التي تبنى على الواجهة البحرية، بالقدر الكافي كي يرى الساكنون بالخلف، البحر من الفجوات بين المباني القائمة في الواجهة. تنظم المدينة المطلة على البحر، وكأنها مدَّرج لمسرح روماني، تتوجه كلُّ مقاعده وليس مقدمته فقط، نحو المشهد أمامه وهو البحر.

نعود لنقول إن الشركة العقارية هدَّمت ولم تبن بعد. والمباني الموجودة في شارع المعرض وفي امتداداته، هي كولونيالية قديمة، يناهز عمرها الثمانين عاماً. رُمِّمتْ بإتقانٍ واضحٍ، وبحرصٍ على التفاصيل، جعلتنا نخاف من لمسها مخافةَ أن نشوِّهها. رُمِّمت بإتقانٍ، فجاءت نظيفةً لماعةً، تندلق النظافة من شبابيك طوابقها العلوية الفارغة، فبدت بكل هذا الجهد، وكأنها رُمِّمت كي ننظر إليها، لا كي نسكنها. إفتتن البعض بالمباني الكولونيالية المرمَّمة، فاعتبروا شارع المعرض ومتفرعاته، البقعة الوحيدة التي يمكن أن تكون المدنيَّة والمدينيَّة لبيروت؟!

أن تكون معايير المدينة، "المدنيَّة" "والمدينية" مشهدية، متحفية، فهذا ما لم يعد يتبناه أحد، خاصة في أجزاء من المدينة، أفرغت من نسيجها الإجتماعي بقوة السلطة وقوة المال. فالناس لا يسكنون المتاحف.

والمدينة المدينيَّة، ليست واجهة أنيقة نمتع النظر بتفاصيل بنائها وربما بتنوع معروضاتها أيضاً.

المدينة المدينيَّة، هي أولاً النسيج الإجتماعي المتماسك

الذي يسكنها. والحفاظ على النسيج الإجتماعي داخل المدينة المرمَّمة، هو الذي يضمن وحدتها، ويحظى بإعجاب المقيمين والعابرين. فهل نسي المفتونون بالمباني المرمَّمة، شارع المعرض والناس الذين كانوا يقيمون فيه قبل ثلاثة عقود؟ والمطاعم الشعبية، وأكشاك الصحف، وصراخ الباعة؟ ودكاكين النحَّاسين، والخياطين، وبائعي الأقمشة، والمكتبات؟ والجليلاتي، والسحلب، والأوتوماتيك "وصحن الفول بليرة"؟ هل نسي المفتونون مكاتب التجار، والمحامين، والمهندسين، والسماسرة، والصحف، ونقابات العمال، في الطوابق، فوق العجقة الشعبية تملأ الأروقة؟

لا مقيمين اليوم في شارع المعرض ومعظم متفرعاته. وكل الذين نراهم فيه هم عابرون. مقاه ومطاعم بأسماء أجنبية، بالكاد نستطيع قراءتها في الطابق الأرضي، ولا نرى أجنبياً واحداً في المكان، وكل الطوابق العليا فارغة. لا حياة في الشارع بالمعنى الإنساني العميق للكلمة، لا أثر للتواصل فيه، مشع من تحت معتم من فوق كما كتبتُ مرة. هل رأى واحدنا مدينة مدينيَّة تقوم على المقاهي وعلى المطاعم فقط؟ مدينة مدينيَّة تقوم في مبان فارغة تسكنها الأشباح، لتزيل الغبار عن نوافذها الأنيقة؟ ويخشى المفتونون بالمباني المرمَّمة أن تتدهور هذه البقعة أعني وسط بيروت، تحت وطأة الجشع وشهوة الربح، ويحوِّلها المال إلى مجموعة من

الدكاكين. ولكن!... إذا كان تدهور هذه البقعة سيكون بأن يحولها المال إلى مجموعة من الدكاكين، فإن التدهور قد حصل مع البداية، وما البداية بالتالي سوى صورة النهاية، إذ ماذا في هذه البقعة الآن غير الدكاكين؟ والدكاكين لو علم المفتونون، هي متعثرة فعلاً. يفتح دكان، ويُقفل آخر، إذ لا حياة في هذا القسم من المدينة. وما زواره سوى عابرون، أتوا من مناطق بعيدة للنزهة، وكأنهم في بلد آخر، في عاصمة أخرى، لا علاقة لهم بها.

ولتكتمل الصورة، فإن الجالسين في هذه البقعة، في مقاهيها ومطاعمها،هم بمعظمهم، مع بعض الاستثناءات بالطبع، تلك القشرة التي تطفو على سطح المجتمع، قشرة مقلّدة تجلس ظهراً في هذه البقعة من المدينة، وتنتقل مساء إلى أماكن مماثلة في شارع فردان (دون Dunes، ستاربكس كافيه، أموره إلخ)، ثم تلتقي شلل القشرة ذاتها ليلاً في شارع مونو. إنها القشرة تعبر مع العابرين، ويصح فيها قول المفتونين بأن لا حاضر لها غير التقليد والمحاكاة - أي حاضر الغرب الحديث. جرّدوا هذه القشرة، من أثر الغرب فيها، فلن يبقى، فيها شيء أبداً لن يبقى جامع ولن تبق كنيسة، لن يبق شيء أبداً سوى الفراغ الفاقع.

أما بيروت الحقيقية بيروت الناس، بيروت العميقة تحت القشرة، قشرة السلطة بكل مكوناتها، السياسية والمالية،

والثقافية، في مؤسسات الدولة وخارجها، وقشرة الجالسين في مطاعم شارع المعرض المرًمم ومقاهيه، بيروت الحقيقية هذه، هي مدينيَّة أصيلة، وستبقى كذلك.

وفي بيروت الأصيلة هذه شوارع مأهولة، متكاملة الوظائف، مجالها المعماري متجانس أحياناً، مقبول التناقض أحياناً أخرى، وتنظيمها مقبول، وأهم ما فيها نسيج إجتماعي زاخر بالحياة.

أدعو المفتونين بالمباني الكولونيالية المرًممة، إلى زيارة شارع عبد الوهاب الإنكليزي، ومحلة رأس النبع، ومحلة السيوفي، وشارع محمد الحوت، وشارع الخندق العميق، والكثير من شوارع الأشرفية، وشارع لبنان والشوارع المتفرعة منه، ستتولد لديهم أثناء الزيارة غبطة خاصةً، محفوفة بمشاعر جمالية، مختلفة عن تلك التي شعروا بها في شارع المعرض، وبمشاعر إنسانية خاصة، تضج بحياة متعاضدة منتجة.

سيشعرون في هذه الأمكنة، أن ثمة جهد أنساني يبذل يومياً، لتأتي المدينة بالراحة الفكرية والجسدية لساكنيها.

السفير 9/ 1/ 2004

4

مراحلُ، في عمارة بيروت:

تحُولْ، هادىء أحياناً، وتغيير فجُّ غالباً

I ـ في موقع بيروت الطبيعي، وفي بدايات التحول في عمارتها.

كل قراءة، لعمارة مدينة ما، عليها أن تبدأ بقراءةٍ وإن سريعةٍ للموقع الطبيعي الذي تقوم عليه المدينة. علينا أن نبدأ إذاً، بقراءة الموقع الطبيعي الذي تقوم عليه مدينة بيروت، لنستطيع قراءة عمارتها.

موقع بيروت الطبيعي هو مثلث غارق في البحر. رأس المثلث إلى الغرب، وتحده الهضاب وبعدها الجبال، شرقاً. إنه شبه أفقي، فيه الكثير من التضاريس والنتوءات، أذكر منها رأس بيروت وتلة الخياط، وبرج أبو حيدر، والمصيطبة،

والاشرفية، وفسّوح، والسيوفي، وكل النتوءات المطلة على مجرى نهر بيروت شرقاً. أما الضواحي في الشمال وفي الجنوب فهي منبسطة بموازاة الشاطئ، لا تلبث أن ترتفع في هضاب باتجاه الجبال القريبة.

للمثلث ضلعان، الضلع الأول إلى الشمال الشرق، وفيه مرفأ بيروت الحالي، الذي يمتد من مصب نهر بيروت حتى الحوض الأول، قبالة ما يعرف اليوم بجادة البرج أو جادة الشهداء. وبعد المرفأ، الأراضي المكتسبة بالردم حتى فندق سان جورج وكلها أملاك سوليدير، وفيها المارينا الشرقية، والمارينا الغربية العملاقة. ويتتابع ردم البحر بعدها مستثنياً فسحة تنفس صغيرة في عين المريسة، وأخرى في الرملة البيضاء. وهاتان الفسحتان هما كل ما تبقى لأهل بيروت من بحرهم وشاطئهم.

أما الضلع الثاني فهو إلى الجنوب الغربي وفيه، المطار في طرفه، وقبل المطار منطقة الأوزاعي ومنطقة الفنادق الحديثة. هذا هو باختصار الموقع الطبيعي الذي تقوم عليه مدينة بيروت اليوم، عنيت بيروت الكبرى.

وأنا لست مؤرخاً بالتأكيد، ولا أطمح إلى الكتابة في التاريخ، وهناك كثر كتبوا في تاريخ بيروت. منهم صالح بن يحيى، والأب لويس شيخو، والشيخ طه الولي، والمحامي عبد اللطيف فاخوري... وغيرهم. وربما استطعت عبر ما كتبوا تلمُّس البدايات في تحوُّل بيروت وعمارتها، وتلمُّس بعض المراحل في تحولاتهما اللاحقة.



تحول هادئ (زقاق البلاط)

ففي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، كانت بيروت مدينة متواضعة، قامت حول مرفىء طبيعي صغير، لم يتعدَّ عدد سكانها العشرة آلاف نسمة. زنَّر السكانُ مدينتهم بالأسوار، وجعلوا فيها بوابات متعددة، تُقفَلُ باكراً كل يوم، مثل باب الدركة، وباب إدريس، وباب يعقوب، وباب عصُور، وباب البرج.... وغيرها.

لم تتغير أحوال بيروت إلا في نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر، عندما زاد الغرب من اهتمامه بها، مثل اهتمامه بغيرها من المرافئ على الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، من الإسكندرية، إلى حيفا، مروراً ببيروت، وصولاً إلى مرسين وغيرها من المرافئ العثمانية، الملائمة لاستقبال السلع بكثافة.

والغربُ في ذلك الزمن هو القوى الأوروبية الرئيسة الست آنذاك، وهي فرنسا في الطليعة ومعها بريطانيا، وبعدهما النمسا، وروسيا، وبروسيا (المانيا اليوم) وسردينيا، (ايطاليا اليوم).

والتبادل الحر مثل التجارة الحرة اليوم، هو عنوان الاهتمام في تلك المرحلة، وهو عنوان الاهتمام اليوم وربما سيكون عنوان الاهتمام غداً. وهو يهدف في جملة ما يهدف، إلى إغراق المنطقة بالسلع المصنَّعة العالية الجودة، وتعزيز السيطرة عليها تجارياً واقتصادياً، وتكثيف التغلغل الثقافي فيها، تمهيداً للسيطرة الكاملة الآتية.فتعددت حملات

الإرساليات الدينية، وكثر المبشّرون، وبُنيت المدارسُ والكنائس، وعُمِّمت ثقافاتٌ متعددة المنابع واللغات. وشهدنا القوى الأوروبية الست، تتوزع الوصاية على طوائفنا في العام 1860، وصولاً إلى استنباط صيغة سنجق جبل لبنان المميز داخل السلطنة العثمانية، ونظام المتصرفية فيه.

نسيج من علاقات التبعية الاقتصادية والثقافية نشأ بين مجموعات من سكان جبل لبنان وبيروت، وبين القوى الأوروبية النافذة آنذاك. فازداد استيراد السلع لاستهلاكها، أو لإعادة تصديرها من بيروت إلى مناطق واسعة داخل السلطنة العثمانية. فتعزّز دور مرفأ بيروت بسرعة، ونمت بفعل كل ذلك طبقة التجار الجدد متصدِّرة الهرم الاجتماعي في بيروت وفي جبل لبنان أيضاً. فضاقت المدينة بناسها، وكان عليها أن تخرج من سجن أسوارها إلى المناطق المجاورة، وأولها منطقة زقاق البلاط، لتمهّد الطريق أمام المدينة المفتوحة المعاصرة.

في هذا الخروج، وفي البيت ذي الأقواس الثلاثة والذي انتشر بعده والمسمى تجاوزاً بيتاً لبنانياً، كانت بدايات التحوُّل، أو التحول الأول في عمارة بيروت.

II ـ من هو المعمار؟ ومن صنع هذا التحول؟

من المفيد في البداية التذكير بأن تعليم الهندسة في المنطقة عامة، لم يبدأ إلا في العقود الأولى من القرن

العشرين، باستثناء تجربة محمد علي المبكرة في مصر. وتلاه تعليم العمارة بعد عقود طويلة. وكان أولاد بعض الميسورين يتوجهون إلى أوروبا أو إلى أميركا ليتعلموا الهندسة والعمارة. إلا أن أثرياءنا كانوا يلجؤون إلى معماريين من إيطاليا ليُصمّموا لهم الدور والقصور. هذا ما فعله الأمير بشير الثاني في قصر بيت الدين، وما فعله آل سرسق وغيرهم كثر، في بيروت وفي طرابلس.

إلا أن البنيان بصورة عامة، كان يرتفع على أيدي مهنيين كانوا في الوقت ذاته مصمِّمين وبنَّائين. وكانت عمارتهم إنتاجاً حرفياً بامتياز، لصيقة موقعها تُصنع من مواد المكان، وبمساهمة المهارات المحلية المتوفرة. ومعظم عمارة بيروت في تلك الفترة كانت من الحجر الرملي المستخرج من صخور بيروت الرملية. ولا يزال هذا الحجر العتيق ظاهراً في شارع سبيرز، وفي سور الجامعة الأميركية في بيروت. وهو لا يزال موجوداً في الكثير من البيوت القائمة الآن، وإن كان مكسواً بطبقة كلسية أو اسمنتية لحمايته من التقلبات المناخية الموسمية. كان البيت من طابق واحد أو من طابقين حوله حديقة، وغالباً ما كان يُطلُّ على البحر.

وفي اعتقاد البعض، أن هذا البيت هو بيت جبلي ريفي، وسقفه القرميدي المنحدر إنما صُمِّم للمناطق الجبلية المرتفعة حيث تكثر الثلوج. والحقيقة، هي أن هذا البيت هو بيت مديني بامتياز، نشأ في بيروت بدايةً، وفي المدن الساحلية

الأخرى بعدها، تلبيةً لحاجاتٍ اجتماعيةٍ محدَّدة. وهو بالتأكيد ليس بيتاً لبنانياً كما يدَّعي البعض، بل هو بيت عثماني متوسِّطيٌّ، لا يزال موجوداً بكثرة إلى الآن على امتداد الساحل الشرقي للمتوسط، من حيفا في فلسطين، مروراً بالمدن الساحلية اللبنانية كافة، وصولاً إلى طرطوس، وجبلة، واللاذقية في سورية، ومنها إلى انطاكية ومرسين في تركيا، وربما أبعد من ذلك. وقد أصدرت الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة مؤخراً كتاباً أنيقاً حول الموضوع. حمل الكتاب اسم: " البيت البيروتي ذي الأقواس الثلاثة، عمارة بورجوازية في المشرق ".

هذا البيت هو مصنَّع هجين. إنه يعكس مهاراتٍ محلية في البنيان، كما يعكس، وفق ما يؤكده البعض، تطُّور مفهوم الفناء الداخلي المفتوح الآتي إلينا من منطقة ما بين النهرين بداية، ومن الجزيرة العربية ومن الصحراء لاحقاً، حيث كان الفناء الداخلي المفتوح، وسيلةً مناخيةً ترطِّبُ المجالات، ووسيلةً اجتماعيةً أيضاً، بحيث يعيش أفراد العائلة في مجالٍ آمن، دون أية علاقة مع الخارج.

فالبيت في تصميمه، مغلقٌ على الخارج، مفتوحٌ على الداخل، حيث الفناء، ونافورة المياه، والحديقة.

لقد تطور هذا المفهوم لارتباطه بنشوء حياة مدينية، بدت إلزاميةً مع كثرة الوافدين إلى المدينة التي توسعت وازداد دور مرفئها. فنشأ هذا البيت، محولاً الفناء الداخلي المفتوح، وفق

تأكيدات البعض أكرر، إلى مجال وسطي مسقوف عُرف بالدار أو بالليوان، أو بأي تسمية أخرى. وتوزعت الغرف على جانبي الليوان أو الدار، كما كانت تتوزع على جوانب الفناء المفتوح. توسَّط البيتَ، الفناءُ الخارجي الصحراوي المتحول داراً أو ليواناً، وتزينت واجهاته بالأقواس المزركشة الآتية من البندقية، وتعمَّم بالسقف القرميدي الأحمر الآتي ربَّما من الأناضول. إنه بيت التهجين الناجح بامتياز. استعملته البورجوازية التجارية البيروتية الصاعدة لسكنها المديني، ثم انتقل إلى سائر المدن، وإلى سائر المناطق.

III ـ وماذا عن الهوية؟ وهل في لبنان عمارة لبنانية؟

وماذا عن الهوية، ونحن نتكلم عن البيت "البيروتي" ذي الأقواس الثلاثة؟ والعمامة القرميدية الحمراء؟

في الكلام عن العمارة في لبنان، أشير إلى أنه لكل بلد خاصياته الطبيعية، أو لكل مجموعة من البلدان أو لكل منطقة، خاصياتها الجغرافية والمناخية. هناك في كل مكان، فصول، وأمطار، ورياح سائدة. هناك توجيه مفضَّلٌ وشروق وغروب. هناك طبيعة وحدائق. هناك مواد متوفرة، وتقنيات صالحة، ومهارات ملائمة. إن كل هذه المعطيات، تساهم في صنع المسكن المحلي في مناطق لبنان المختلفة بطبيعتها وبمناخها. وربما استطعنا الكلام عن مساكن في لبنان، متعددة

بتعدُّد المناخات فيه، وبتعدد مواد البناء المتاحة. فالبيت البقاعي كان بيتاً طينياً لعدم توفر الحجر. هذا ما نراه في يونين البقاعية حتى يومنا هذا. وزحلة بقيت بيوتها طينية حتى العام 1888، كما تظهرها صورة لبونفيس نشرها فؤاد دباس في أحد كتبه. وفي المقابل في البلدات والقرى الجبلية حيث يتوفر الحجر، كانت كل البيوت من الحجر. وفي الهضاب والمنحدرات الجبلية، كان البيت عبارةً عن سطوحٍ متدرِّجةٍ، مثل الجلول المتدرجة المزروعة حيث قام البيت. وفي السهل كان البيت أفقياً. وفي عكار بنيت البيوت من الحجر البركاني الأسود. وفي الجنوب أخذ البنيان منحى آخر كما نراه في دردغيًا في قضاء صور.

ثمة طرق متعددة لجأ إليها البنَّاؤون، مستعملين مهاراتهم والمواد المتوفرة، ليدمجوا البيوت في الأمكنة، وليحتضنوا فيها طريقة عيش الناس. كان البيت عبارةً عن مأوى حقيقي دافىء يحتمي به الناس، ويألفون إليه ويريحهم. وبهذا المعنى يمكننا أن نتكلم بلغة انتروبولوجية معاصرة، عن بيت لبناني متعدد النماذج ومتعدد المواد، حيث تتعدَّد طرق العيش، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن البحر إلى أعلى السفوح وإلى البقاع. حمل هذا البيت في نماذجه المتعددة سمات محلية صافية، مرتبطة بالناس وبمكان عيشهم.

يصح هذا الكلام بالطبع عن البيت التقليدي في كل مكان. فهو بيت بيئي بامتياز واضح الهوية، وعمارته هي

عمارة محلية موروثة، أو عمارة تحدارية كما يسميها الجادرجي، واضحة الاصالة وأكيدة الانتماء. أما مع توسع المدن، وانتشار السكن المديني، وتعميم الاقتباس المتنوع المصادر وبدرجات متفاوتة من النجاح، أصبح من الصعب الكلام عن عمارة لبنانية. وربما كان من الأفضل استبدالها بمقولة "العمارة في لبنان".

IV ـ من عمارة البيت ذي الأقواس الثلاثة، إلى عمارة زمن الانتداب.

أو من التحول الأول، إلى التحول الثاني.

في العام 1920 ابتدأت مع الانتداب الكولونيالي الفرنسي ومع اعلان لبنان الكبير، المرحلة الثانية من التحول في عمارة بيروت. فقد أدخل الكولونياليون بعض عناصر التجديد، كالشوارع العريضة، ومواد البناء المصنَّعَة، ونمطاً استهلاكياً نهماً. وكان العثمانيون قد سبقوهم إلى ذلك عبر التنظيمات، وعبر إدخال وسائل النقل الحديثة كالترامواي والسيارات، منذ العقد الأول من القرن العشرين. وحاول الكولونياليون أن يُسْقِطوا فوق نسيج المدينة التقليدي العتيق، نسيجاً مدينياً منقولاً عن المدينة الغربية. الانتداب الكولونيالي كان فرنسياً، والنفوذ الثقافي والمديني الذي فرضه علينا الكولونياليون كان فرنسياً. تمثَّل في حقل العمران، بالفكر

المديني والمعماري الذي اعتمده هوسمان في باريس، والذي ترك آنذاك أثراً بالغاً في معظم المدن الاوروبية.

حاول الكولونياليون أن يزرعوا في قلب بيروت التاريخي ساحة شعاعية كالنجمة، شوارعها مستقيمة ممتدًّة حتى البحر أحياناً، سمُّوها ساحة النجمة، وأرادوها أن تحاكي ساحة النجمة في باريس. فأكملوا هدم معظم النسيج المديني القديم لتحقيق ذلك. ولكن لحسن حظنا أقول، لم تكتمل ساحة النجمة المنشودة، لأن بعض شعاعاتها اصطدمت بالكنائس والمساجد العتيقة المكتظّة في المنطقة. ولم يتمكن الكولونياليون من هدم الكنائس والمساجد، وبقيت النجمة غير مكتملة، وبقي النسيج القديم قائماً فاعلاً وحياً، حتى هدَّمته سوليدير مؤخراً.

أما على صعيد العمارة، فقد أدخل الكولونياليون بقسوة، المفهوم الهوسماني الذي يقضي بتقسيم واجهة المبنى إلى ثلاثة أقسام عامودية، تتكرر في المباني المتلاصقة التي تصنع واجهة الشارع أو جدار الشارع. هذا ما نراه اليوم في عمارة شارع المعرض، حيث أُدخلت أيضاً في الأروقة الممتدة على جانبي الشارع بعضُ المفردات المستوحاة من العمارة العربية الاسلامية، فسمِّيت هذه العمارة بالعمارة الكولونيالية المستعربة، وسمي نمطها بالنمط الكولونيالي المستعرب (colonialisme arabisant). وقد عمَّت العمارة، ذات الواجهات المقسمة إلى ثلاثة أقسام عامودية، شوارع وسط

بيروت في بداية العشرينات. فنحن نراها اليوم في شارع فوش، وشارع المعرض، وشارع اللنبي، وشارع ويغان. كما نراها في كل الشوارع الضيقة والمتعامدة شمال مبنى بلدية بيروت. ونلاحظ دون عناء، أن أسماء الشوارع تدل على الفترة الزمنية التي بنيت فيها، حيث العمارة كولونيالية، والمورفولوجية المدينية هي كولونيالية أيضاً. ومع توسع المدينة، وجدنا أنماطاً متعددة من البناء الكولونيالي تنتشر في مناطق بعيدة نسبياً عن قلب المدينة التاريخي، في شارع سبيرز، وفي القنطاري، وفي شارع مي زيادة. كما وجدناها تتمدد إلى الجهة الشرقية من قلب المدينة التاريخي، إلى الجميزة، صعوداً إلى منطقة السراسقة في الأشرفية. واللافت أن بعض السمات العربية المشرقية التي ميَّزت العمارة في منطقة وادي أبو جميل، جعلت الباحثين الغربيين يسمونها "المشرقية" (la levantine).

أربعة عناصر هامة، ميَّزت الامتداد المديني في تلك المرحلة:

1 - العنصر الأول، وهو عنصر اقتصادي اجتماعي، تجلَّى بدخول فئات واسعة إلى مجال السكن المديني، وتكونت بذلك شرائح اجتماعية جديدة مرتبطة بالتجارة، طامحة إلى الصعود والترقي الاجتماعيين.

2 - العنصر الثاني، وهو تقني انشائي معماري، تمثل باستعمال مادة حديثة في الهيكل الانشائي في البنيان وفي

الكثير من تفاصيله وزخارفه، وهي الخرسانة المسلحة أو "الباطون المسلح". لقد لعبت هذه المادة دوراً حاسماً في تشييد الأبنية ذات الطوابق المتعددة، حيث سكنت الشرائح الاجتماعية الجديدة المشار إليها سابقاً. سكنت هذه الشرائح في شقق فوق بعضها البعض متَّبعةً النمط الغربي، مبتعدةً عن البيوت المستقلة التي تزنرها الحدائق، والتحقت كلياً بالنمط الغربي الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي. وشكلت الشوارع والأحياء التي سكنتها، أجزاء جميلة من المدينة. وهي لا تزال إلى الآن متجانسة، تعج بالحياة وبالناس. ومن الضروري المحافظة عليها بكل الوسائل.

3 - **أما العنصر الثالث**، وهو مديني معماري، إذ تم أثر ذلك الاستغناء عن علاقة المبنى بالحديقة. فاصطفَّت المباني على حدود الشارع، وانفتحت في واجهاتها النوافذ، وأطلت شرفاتها على الشارع، وتعززت بذلك ثقافة جديدة، قوامها العلاقة بالشرفة، وبالشارع، وبالمباني المقابلة.

4 - **أما العنصر الرابع والأخير**، فهو التحول الليّن والهادىء، من البيت "البيروتي" ذي الأقواس الثلاثة، إلى المباني الجديدة ذات الهيكل الانشائي المصنوع من الخرسانة المسلَّحة، والمتعددة الطوابق.

لقد حافظت هذه المباني في تيبولوجية مسطحاتها، على نموذج البيت "البيروتي" التقليدي، في تنظيم مجالاتها وفق تيبولوجية هذا البيت، إذا صح التعبير. فبقي الدار أو الليوان

في الوسط، وتوزعت حوله الغرف، وبقي المطبخ والحمام في طرف الممر الضيّق الموصل إلى المدخل. وهو الممر الوحيد في البيت. كما استلهمت تيبولوجية واجهات البيت البيروتي، في تيبولوجية واجهاتها محور في وسط هذه الواجهات، وتأليف متماثل على جانبي هذا المحور، حيث استُبدِلت الأقواسُ الثلاثةُ أحياناً بفتحاتٍ ثلاث، فتحةٌ عريضة في الوسط، وفتحتان عاموديتان في كل من جانبيها، ورُبطت الفتحات الثلاث بصرياً بفتحةٍ رابعةٍ فوقها على شكل قوس. واستُبدلت الشرفة الرخامية الناتئة، بشرفة من الخرسانة في وسط الواجهة ناتئة هي الأخرى، ومتكررة بعدد الطوابق. درابزين الشرفة من الحديد المشغول بعناية، كما في شرفة "البيت البيروتي". وتكررت في الواجهة، الشرفات الناتئة أحياناً، أمام نوافذ الغرف المطّلة على الشارع.

٧ ـ الاستقلال محطة، وبعد الاستقلال تغيير فج وحاد.

ومع الاستقلال ابتدأت المرحلة الثالثة. والحداثة في العمارة التي شرعت منذ منتصف الثلاثينات، بإزاحة الطرز المعماري الكولونيالي، ترسَّخت بقوة، في السنوات التي تلت، خاصة بعد الاستقلال.

وعندنا، كما عند غيرنا في البلدان العربية، كانت العمارة الحديثة التي عرفناها هي عمارةُ الطرز الدولي (Style

(International)، الذي تم تعريفه في معرض نيويورك للعمارة الحديثة، والذي عُرضت فيه أعمال المعماريين روّاد الحداثة، خلال عقد امتد من العام 1922 حتى العام 1932.

وُضعت بعد المعرض، القواعد الناظمة لعمارة الحداثة، أو لعمارة الطرز الدولي. وهي في معظمها قواعد في الشكل، مأخوذةٌ عن النقاط الخمس التي صاغها المعمار الفرنسي المشهور لوكوربوزيه (Le Corbusier) وهي: المسطح الحر، والهيكل الإنشائي الظاهر أحياناً، والمتكرر بإيقاع مقروء، والواجهات الحرة بفتحات أفقية عريضة، والبناء الذي يقوم على أعمدة منتظمة التباعد والتكرار (pilotis)، بحيث تبقى الأرضُ حرّةً تحت المبنى، والسقفُ المسطحُ لاستعمالاتٍ جماعيةٍ للساكنين.

دخلت عمارة الطرز الدولي بقوة، مع تعاظم دور بيروت الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في الحياة اللبنانية العامة. ولا بد هنا من التأكيد، بأن ما سُمّيَ لاحقاً بالنمو غير المتوازن، ترسّخ في السنوات التي تلت الاستقلال. فتضخّم خلالها دور بيروت، وتهمّشت كل المناطق. كبرت المدينة واحتكرت كل شيء. فيها الثقافة وفيها السياسة، فيها الصحافة وفيها التعليم، فيها التجارة وفيها الترفيه، فيها الصناعة وفيها فرص العمل. باختصار فيها كلُّ شيءٍ وفيها خاصةً كلُّ الناس. فالزحف إلى بيروت، أصبح السمة الاساس للتكوين السكاني للبنان الاستقلال، بحيث لم يكد يكتمل العقد

الخامس من القرن العشرين (1950 - 1960) حتى أصبحنا نرى بيروت كما نراها تقريباً اليوم، من حيث امتدادها الأفقي ومكوناتها المدينية والمعمارية.

إن هذا المشهد العام لعمارة المدينة، الذي تكوَّن بفعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أشرنا إليها، إنما تكون بالتدرج. بليونةٍ، وبهدوءٍ، وبتواصلٍ، في البدايات، ثم بقطعٍ فجٍّ وحادٍّ في العقود الأخيرة.

لم نر في لبنان الحداثة في العمارة كما تصورها روَّادها: ديموقراطيةً، إنسانية بمقياسها وبأهدافها، دلالةَ الراحةِ، وعلامةَ الازدهار والرفاهية، التي توهَّموا بأن الثورات الصناعية المتتالية عندهم، ستحملها إلى الشعوب، كل الشعوب. بل إن ما رأيناه، هو هذا الطرز الدولي الذي تجسَّد في مبانٍ طبقاتها تتعدد بإضطراد، وتزداد ارتفاعاً كل يوم. مبانٍ ملوَّثة، قامِعة، مُعدَّة لسكن الزاحفين الجدد إلى المدينة، بحثاً عن حياة لائقة.

لقد غاب "البيت البيروتي" البورجوازي، وسط الزحمة الخانقة للناس في المدينة، وفُرِضَ على الجميع نمطُ الطرزِ الدولي، نموذجاً معمَّماً للسكن في كل الأمكنة، لا علاقة له بطريقة عيش الناس، هنا،هناك، أو هنالك. نموذجٌ معمَّمٌ، فيه المدخلُ، وقسمُ الليلِ، وقسمُ النهار، والمطبخُ الصغيرُ المتَّصلُ بالضرورة بالمدخل وبزاوية الطعام. دخل الناس إلى هذه النماذج، يبنيها ويبيعها التجار ومعماريُّوهم. فمنهم من

اضطر إلى التأقلم معها واستعملها كما صُمِّمَت، ومنهم من تمرَّد على القوالب المفروضة عليه، واستعمل مجالاتها وفق حاجاته الخاصة وطريقة عيشه. وما عِمارة بيروت، في المناطق المكتظّة خاصةً، كالطريق الجديدة، والفاكهاني، وبرج أبو حيدر، والمصيطبة، والبسطا، والاشرفية، والسيوفي... سوى التعبير الفج عن هذا النموذج "الدولي المعمَّم"، والذي يُعاد إنتاجه بانتظام ودون أي تعديل، منذ نصف قرن. مع التأكيد على تعديل جذري في نمط عيش الناس، إذ أُلزِموا بالابتعاد عن التجاور في مساكن تقوم في طابق واحد فسيح، في عمارة متوسطة الإرتفاع. ثم أُلزموا بسكن مبانٍ صغيرة المساحة أفقياً، شاهقة الارتفاع. إنها العمارة العامودية المزدهرة اليوم في كل الأحياء وفي كل الزواريب. إنها عمارة الأبراج في بيروت، إنها بيروت الأبراج.

VI ـ نظرة إلى سنوات إعادة الإعمار، أو ورشة إعادة الاعمار.

النظرة إلى سنوات إعادة الإعمار أو إلى ورشة إعادة الإعمار، تبدو ضرورية في هذا السياق. إلّا أن لدي بعض الأفكار الأولية، التي أريد إضافتها، قبل إلقاء النظرة هذه.

● **الفكرة الأولى**، هي أن المشهد المديني في بيروت

كما نراه اليوم، وعمارة بيروت كما نراها اليوم، لم تكتمل إلا في منتصف الستينات، وربما أبعد من ذلك، في منتصف السبعينات. فمنطقة "الحمراء" كانت منطقة زراعية حتى بداية الخمسينات، ولم تزدهر كبديل لقلب بيروت الذي كان يعاني من الإختناق، إلّا من منتصف الخمسينات حتى منتصف الستينات، حيث بنيت المنطقة، وبني الشارع وازدهر، وأصبح مقصد الميسورين من اللبنانيين والعرب والأجانب، فيه التسوُّق، وفيه مقاهي الأرصفة، ودور السينما والمطاعم... أما منطقة تلة الخياط المطلة على كورنيش المزرعة، فلم تُقَم فيها سوى مبانٍ قليلة. وكل ما هو قائم فيها اليوم بني خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بين العام 1975 والعام 2005. وربما صحَّت المقولة ذاتها حول منطقة الرملة البيضاء، التي نُظِّمت كمنطقة راقية، ولم يُبنَ فيها إلا القليل حتى العام 1975، وهي تتوسَّع الآن بسرعة.

خلاصة القول، إن بيروت التي نعرفها اليوم وننظر إلى عمارتها وهي تتحَّول، لم يكتمل المشهد المديني فيها بحيث نستطيع الكلام عن عمارة المدينة، إلا في أواسط السبعينات عشية الحرب الأهلية.

● والفكرة الثانية، هي أن بيروت التي نعرفها كانت، حتى منتصف السبعينات، مدينة شبه أفقية مثل باريس وروما. ولهذا الكلام مدلول معماري محدَّد. إذ إن امتداد المباني الأفقي، كان أكثر حضوراً من إرتفاعها. كان إرتفاع المباني

معتدلاً، وكنا نقرأ عمارة الشارع بكونها سلسلةً من المباني الأفقية المتلاصقة أو المتجاورة، صانعةً ما نسمّيه منظورُ الشارع، أو الرؤية الإجمالية للشارع (prospect).

● **الفكرة الثالثة**، هي أنه مع تعديل قانون البناء في العام 1971 عندما كان هنري إده وزيراً للأشغال العامة، ومن ثم تعديله ثانية في العام 1983عندما كان الراحل بيار الخوري وزيراً للأشغال العامة، تغيّر المشهد المديني في بيروت بشكل جذري، وتغيّرت عمارتها. غاب المنظور الأليف، وأصبحنا نرى بيروت العامودية تأخذ مكان بيروت الأفقية. وفي هذا التغيير الفج، ما يتناقض كلياً مع موقع بيروت الطبيعي ذي التضاريس المتعددة، ومع علاقتها بالبحر. فالمباني العامودية اليوم غالباً ما تفقد تناسقها، إذ تبدو صغيرة المساحة الأفقية، مبالغةً في الارتفاع. وفقدانُ التناسق هذا يدلُّ، على هشاشتها، وعدم ثباتها، كما يشير كأنها غير متينة ولا توحي بالاطمئنان. إذ تبدو هزيلةً، سريعة العطب، وإخلاؤها في الحوادث أو في الكوارث الطبيعية، يبدو بالغ الصعوبة.

● **الفكرة الرابعة**، هي أن مورفولوجية المدينة تغيَّرت بسرعة غير مألوفة وخلال عقدين من الزمن (1975 - 1995) ونمط المباني العامودية تشاد في اماكن ضيقة وغير ملائمة، لا يزال مندفعاً بقوة حتى يومنا هذا.

● **الفكرة الخامسة**، هي أن الشرائح العليا من المجتمع وبعض الفئات المتوسطة فيه، أصبحت تفضّل السكن في

الاعالي* كما يقال، أي في الأبنية المرتفعة، وفي الطوابق العليا من هذه الأبنية. ومن المعروف أنهم يشترون مساكنهم هذه بأسعار باهظة، إذ ترتفع الأسعار بشكل مضطرد مع ارتفاع موقع المسكن في البناء. ما هو سبب ذلك؟ هل في الأمر شيء من الغرور ومن التعالي؟ أم فيه رغبةٌ في الابتعاد عن ضجة الشارع؟ أو ربما عن عامة الناس؟ أم فيه نوع من البحث عن الاستقلالية المطلقة في السكن المديني؟

وبالعودة إلى ورشة إعادة الإعمار أو إلى سنوات إعادة الإعمار كما سميت، أبدأ بالتمييز بين البنيان أو التشييد، وبين العمران. إن ما شهدناه في النصف الأول من التسعينات من القرن الماضي، ليس عمراناً، وليس مشروعاً إعمارياً. إنه في أحسن الحالات، طفرة في البنيان. فما بني في لبنان في السنوات الخمس الأولى من التسعينات، يعادل مجموع ما بني في لبنان خلال ربع القرن الذي سبقها. وفي سجلات نقابة المهندسين في بيروت ما يوثّق ذلك بشكل دقيق. فالأمتار المربعة المبنية كانت بالملايين كل سنة.

لقد ساد في البلد في حينه، وهم السلم الآتي روّج له مسؤولون كبار. فتحدَّثوا عن الهدوء والإزدهار القادمين، اللذين سيعمَّان المنطقة، ورأوا أن لبنان سيكون المستفيد الأول من كل ذلك. فساد بموازاة الوهم الأول، وهمٌ ثانٍ، رأى ملايين الأخوان العرب يفدون إلى لبنان، للتسوق والسياحة والتنزه، وربما لما هو أكثر امتاعاً لهم وترفيهاً.

وبنينا للوهم المزدوج، أبراجاً فسيحة شاهقة بقيت في معظمها فارغة. فلا السلم أتى ومعه الإزدهار والإستقرار، ولم نر ملايين السوّاح العرب على شرفات الأبراج، وفي صالات الفنادق. سبع مليارات من الدولارات قدّرها المختصُون في حينه، جُمّدت في مبانٍ بقيت فارغةً لمدة طويلة. ثم تراجعت الطفرة في الأعوام التالية (1997 - 1999) وفق سجلات نقابة المهندسين في بيروت دائماً، ودخلنا مرحلة الركود الكامل اقتصادياً وعقارياً.

وفي السنوات الثلاث التي سبقت الحرب الإميركية الاسرائيلية على لبنان، وتحديداً بعد أحداث أيلول في أميركا، والحرب على أفغانستان وعلى العراق، تجدّدت الطفرة وإن بشكل جزئي محدود، فطالت الواجهة البحرية لمنطقة سوليدير، ووادي أبو جميل، والجمّيزة، وبعض المناطق الأخرى في بيروت وفي بلدات الإصطياف. هل نرى في الطفرتين، وفي ما قد يهب علينا من طفرات مماثلة، مشاريع إعمارية حقيقية؟

إن توزع البنيان بشكل إنتقائي على المناطق، في غياب تصور متكامل لعملية الاعمار، إنما يدلُّ على حمّى التفتيش عن الربح. وكل ما شهدناه وما نشهده الآن وربما ما سنشهده لاحقاً، ليس سوى عمليات عقارية صافية، تدر على أصحابها أرباحاً سريعة، ربما استفاد منها البعض أيضاً.

وفي نظرة متأنية إلى عمارة بيروت اليوم، وبعد كل

الطفرات في البنيان، يتبادر إلى الذهن سؤال بديهي بعد سبع عشرة سنة على توقف الحرب الأهلية: هل استطاعت ورشات الاعمار، أو طفرات البنيان، أو المعالجات المستقلة، أو المبادرات الفردية على أنواعها، هل استطاعت كل هذه الجهود، أن تنزع عن بيروت لباس الحرب الذي ارتدته خلال خمس عشرة سنة؟ ولا تزال ترتديه وإن بصورة جزئية؟

أدعو السائلين إلى أطراف شارع بشارة الخوري، وشارع سورية. أدعوهم إلى الخندق العميق، وطريق الشام ومنطقة الناصرة. أدعوهم إلى شارع مونو وكل متفرعاته المختبئة تحت الاشجار وفي الزواريب، أدعوهم إلى أماكن أخرى قد تكون موجودة ولكنني لا أعرفها. في كل هذه المناطق والأماكن، لا تزال بيروت ترتدي لباس الحرب، آثارها بارزة وحضورها قوي.

ولكن!؟ ألم يكن من المفروض، أن يدفع مشروع إعادة إعمار وسط بيروت التجاري كما سمّوه نازعين الميزة التاريخية عنه، ألم يكن من المفروض، أن يدفع هذا المشروع بقوة، باتجاه نزع لباس الحرب عن المدينة بكاملها بعد كل هذه السنوات؟ لا بد في هذا الصدد من التشديد على أن مشروع إعادة إعمار الوسط التجاري لمدينة بيروت، قد ابتدأ قاصراً. وقصوره هذا كان موضع نقد، منذ إقراره في خريف العام 1991، ونشوء شركة سوليدير.

● قيل في حينه إن القصور الأول في المشروع، هو في

عدم اندراجه في تصور شاملٍ لمعالجة آثار الحرب في المدينة بكاملها. فالناصرة وطريق الشام مثلاً، ليست بعيدة عن وسط بيروت، والمسافة الممتدة من مستديرة الطيونة حتى مستديرة مار مخايل في الشياح في مثلٍ ثانٍ وإن كانت خارج بيروت الادارية، فهي جزء هام من بيروت الكبرى.

● وقيل أيضاً إنه كان على المشروع الأساسي، أي مشروع إعادة إعمار وسط بيروت التجاري، أن يوسّع دائرة التدخل لتشمل المحيط المباشر له، أي شارع سبيرز وشارع كليمنصو، والقنطاري، وزقاق البلاط، والباشورة، وشارع مونو، وربما كل المنطقة المتضررة الممتدة من شارع الاستقلال جنوباً حتى جادة فؤاد شهاب شمالاً، وذلك ضمن قراءة شاملة لآثار الحرب، وأن تعددت الشركات العقارية، وتنوّعت وسائل المعالجة.

● وقيل أيضاً إن المشروع، تعمَّد عدم توسيع دائرة التدخل مع تعدد الشركات والوسائل، كي تبقى العقارات في هذه المناطق، خالية كانت أو مبنية، رهينة وضعها وسهلة المنال، يصطادها بسهولة أصحاب النفوذ وأصحاب الرساميل، من مالكي سوليدير وزبائنها، بعد أن تتقدَّم الاعمال في إعادة الإعمار في وسط بيروت. وربما حصل ما يشبه ذلك في منطقة القنطاري، وهذا ما يحصل الآن في منطقة زقاق البلاط.



قطع فج (عين المريسة)

VII ـ القطع الفج في عمارة وسط بيروت.

مشروع إعادة إعمار وسط بيروت ليس قاصراً فقط، بل أن فيه تزوير واضح لتاريخ المدينة، واستباحة لا سابق لها لتواصل عمارتها.

سّمي المشروع إعادة إعمار وسط بيروت، مع نزعٍ متعمَّدٍ للصفة التاريخية عنه، سهَّلت عليهم جرائم الهدم، وإزالة امكنة الذاكرة الجماعية فيه، من الساحات، إلى الأسواق التقليدية وعلاقتها التاريخية بالبحر وبالمرفأ القديم، إلى المباني التاريخية والمعالم المدينية. ضاعت ساحة الدباس، وحوصرت ساحة رياض الصلح، لتصبح زاوية صغيرة ملحقة بعقار كبير خلفها.

وغداً، سيغيب حضور تمثال رياض الصلح في المجال، عندما يقوم خلفة برج جان نوفل المنتظر.

وبعد غدٍ، ستطغى ابراج نورمن فوستر على جادة الشهداء، وتصبح، بحضورها وبارتفاعها الشاهق، النصب الوحيد في المكان، بديلةً عن نصب الشهداء.

وفي القريب، ستَبني "الجميلة" إيفانا ترامب برجها الزجاجي الملوَّن، وقد خصَّصته ليكون محطات فاخرة لتوقف سريع للأغنياء والمشاهير على أرضنا.

نشهد منذ أربعة أعوام، إنطلاقة القطع الفج والبالغ الحدة، لكل تواصل في عمارة المدينة.

ربما سنتناوله في نصوص لاحقة.

الأخبار في 25 كانون الأول 2006

5

المعمار... العمارة، والمجتمع

I ـ في عالم اليوم، يستمر تمدُّد المدينة الموروثة من العصر الوسيط، دون ضوابط

يوصَفُ المجتمع في البلدان المتقدمة، بكونِه مجتمع ما بعد الصناعة، أو مجتمع ما بعد الحداثة. وهناك مَن يحذِّر من حلول مجتمعٍ ما بعد الكائن البشري. ويستمر في هذا المجتمع، تمدُّد المدينةِ الموروثة من العصر الوسيط دون ضوابط. وتزدهرُ بفعلِ ذلك، نظرياتٌ متعددة تزعم فهم المدينة هناك.

فيتحدَّث بعضُها عن المدن التي تطفو، (Villes Emergentes) والتي تظهرُ بالتدرّج في الضواحي.

ويتحدَّثُ بعضُها الآخر عن الشبكات المعاصرة، شبكاتِ المواصلات والإتصال والمعلوماتية، وعن الثورة الرقمية، وعن دورها في صنع مدن اليوم.تصنعها بمقاييس جديدة، وبفهمٍ مختلفٍ لبنية المجتمعِ فيها. ويبالغُ هذا البعضُ في

تمجيدِ دورِ الشبكاتِ المذكورة، ويدعو صراحةً إلى تدميرِ كلِّ ما هو قائمٌ في المكان ليُفرغه، ويجعَله صحراءً، يملأُها بالسياراتِ، وبشبكاتِ المعلوماتِ.

ويستمرُّ عندنا، تمدُّد مدننا، وهي في معظمِها، مدنٌ تقليديةٌ موروثةٌ. يستمرُّ تمدُّد القاهرة، ودمشق، وصنعاء، وغيرها، من المدن العربية التاريخية. كما يستمر تمدُّد مدننا في لبنان، ويستمرُّ خاصةً تمدُّد بيروت. فبيروتُ منذ الانتداب الفرنسي، هي تَجمُّعٌ لكلِّ المراكز. فهي مركزُ الدولةِ، ومركزُ المجتمعِ. وهي خاصةً المركزُ الماليُّ، والمركزُ التجاريُّ. فيها كل السلطات، فيها الثقافة والصحافة، فيها، وفي امتداداتها، ثلثُ سكان لبنان تقريباً. وفيها يُعادُ إنتاجُ مجالنا الإجتماعي القائم على اقتصاد الريع، فيُعادُ معه إنتاجُ علاقاتِ الإنتاجِ التي توحِّدُ هذا المجال، على الرغم من كل التجزئةِ الظاهرةِ فيه. توحِّدُه في الجزءِ المرئي منه أيضاً، أي في المشهد العمراني في المدينة وخارجها: في امتدادِ البنيان، وفي التبعثر العشوائي لأمكنةِ السكن، وفي ازدحام المباني، وفي أشكالها.

II

مجالنا الاجتماعي، والمدينة

في ضوء هذه القراءة لمجالنا الإجتماعي، كيف تبدو

مدُننا!؟ كيف يبدو المشهدُ العمرانيُّ فيها!؟ كيف تبدو بصورةٍ خاصة عاصمتُـنا بيروت!؟

* المتنزّه في أزقّة صور العتيقة، والحالمُ التائهُ، بين قلعةِ البحرِ وقلعةِ البرِ في صيدا القديمة، واللّذيَن يُدهِشهما سحرُ المرئيّ في الزواريبِ الملتويةِ هناك، وهنالك،

* والمتجوّلُ في أسواقِ البترون الدافئة، المفتونُ بالساحاتِ المفاجئةِ، وبالكنائس الحجريَّةِ المعمّرة،

* والفضولي الضائع في أسواقِ طرابلس المملوكية المتشابكة، والذي يصلُ من قلب هذه الأسواق التي تعجُّ بالحياة، إلى مدرسةٍ هنا، وإلى حمامٍ هناك، وإلى مسجدٍ هنالك، فيفهمُ عندها بسهولةٍ، أسُسَ التنظيم المديني الذي صيغ، في ضوءِ علاقةِ كلّ هذه المكوّناتِ المدينيَّةِ بالمسجدِ الجامع حيث هو،

* والمسكونُ بحنينه، والذي يقيس بخطواته كلَّ يومٍ، مناطقَ القنطاري، وسبيرز، وزقاق البلاط، وشارع سوريةَ، والخندق العميق، ومار نقولا، والجمّيزة، والرميل، والمدوَّر، والصيفي، فتقودُه كلُّ الدروبِ إلى قلب بيروت، إلى نواتها التاريخية، وقد دمَّرتها جرَّافات رأس المال الجشع والمتوحش.

* إن كل هؤلاء يُدركونَ، أن مُعظم مُدننا هي من صنع التاريخ، وأنها قامت على أرضنا قبلَ وصول حضارة ما يسمّى اليومَ بالمجتمع ما بعد الصناعي، وأن أجزاءها الحلوةَ

موجودةٌ فيها، قبل تفجُرها بما بنته المضارباتُ العقارية العمياء، فيتساءلون، هل هي عمياء فعلاً؟.

* إنَ كلَّ هؤلاء، يجزمون، أنَّ المدينة التاريخيةِ عندنا هي مدينةٌ جميلـةٌ، يحلو الإنتفـاع بمرافقهـا. إذ يستمرُّ إلى يومنا، انتفاعُ الناس بالأسواقِ، وبالساحاتِ، وبالممرَّاتِ، وكأنَّهُ العيدُ اليوميُ الحقيقي. ولا يطمحُ هذا الكلامُ، إلا إلى تأكيدِ موضوعتين اثنتين:

- الأولى، وهي الدور المميز لكل ما يُمكن الحفاظُ عليه دون مبالغة، من النسيج العمراني الموروث، في إعادة صياغة المدينة الجديدة، المتحوّلة دائماً.

- والثانية، إن المجال المبني المعاصر إنما يدلُّ بمُعظمه، على تطلُّـعٍ فجٍّ نحو التجارةِ، نحو المال. وقد تحَّول بمعظـمِه، إلى "مُنتج - سلعةٍ"، يتنافى بشكلٍ صارخٍ مع المدينة، كعمل إبداعيٍّ جَماعي.

* نتجول في بيروت، فنرى الفوضى والعِدائية تسكنان المجالَ المبنيَّ فيها. فمنذ ثلاثة عقود، كانت واجهاتُ معظمُ الشوارعِ ذاتُ ارتفاعِ متوسطٍ، تتجاورُ فيها المباني بإيقاع هادىء. وكانت إيحاآتُ المنظور أفقيةً، تنسابُ بموازات الأرصفة. وكانت الشرفاتُ فسيحةً تحكي عن شمسِنا، والمباني مطليةً بألوان الرمال والتراب، تُحسن ارتداءَ الظلال. وتغَّيرت واجهاتُ هذه الشوارع في العقدَين الأخيرين،

فتضاعف إرتفاعُ المباني في كل الأماكن وتعطَّل المنظورُ فيها، فضاعت الإشارةُ الحلوةُ إلى امتدادِ الطريق.

* لقد تحوَّلت بيروت بسرعةٍ غير طبيعية، خلال ربع قرن.

III ـ من هو المعمار في هذا المجال الاجتماعي؟ وما هي العمارة؟!

من هو المعمار؟ في هذا المجال الاجتماعي؟ الذي وصفناه؟ وما هي العِمارة؟!

● المعمار باللغة العربية، هو المختص الذي يمارس مهنة العِمارة (بكسر العين).

والمعمار في اللغات الغربيــة ذات الأصل اللاتيني هو: (Architecte) بالفرنسية و(Architect) بالانكليزية و(Architetto) بالايطالية. وأصل المصطلح لاتيني وهو (Architectus). انه وفق التعاريف، المهني الذي يتصور الفكرة الرئيسة في المباني، ويتصوَّر تزيينها، ويدير عملية تنفيذها. وأصل المصطلح، إغريقي (Architekton)، وهو مؤلف من قسمين: الأول (Archi) أي الرئيس أو الاستاذ، والثاني (Tekton) أي الحرفيين البنائين. فالمعماريّ في الأصل الإغريقي للمصطلح إذاً، هو رئيس البنائين.

وكان المعمار في البداية كاهناً، تصوَّر عمارة

التيوقراطيات الشرقية، ونظَّم فيها عوالم خرافية يحرِّكها نوع من السحر قائم على عالم الحيوان، أو على عالم الفلك. وأول المعماريين المعروفين، هو المعمار الفرعوني الشهير (Emhotep).

أما في بلاد الإغريق، وفي روما بعد ذلك، غالباً ما كان المعمار مهندساً، وفي كل الأحوال كان مهنياً ممارساً. ومنذ عصر النهضة، حيث ظهر الـ (Architecteur) الفرنسي والـ(Architettore) الايطالي، فهو مستشارٌ فني، يطبِّق القواعد والرموز والمقاييس، ويتجه ليصبح ناشطاً إنسانياً(Humaniste)، مهملاً التقنيات، في الوقت الذي كان يتسع فيه عمل المهندس. ولم يكن هذا الاختلاف واضحاً في البداية. إلا أنه ازداد وضوحاً في زمن الثورة الصناعية. وفي زمنٍ تفرض فيه التجارةُ والصناعةُ والتكنولوجيا إيقاعها على العالم، يُعلن المعمار ديمومة عملِه، وقيمته الإنسانية الكونية.

● والعِمارة (بكسر العين) في اللغة العربية، هي (السكن، الاقامة، الأهل). فالفعل عَمَرَ المكان (بفتح الحروف الثلاثة) يعني سَكَنَ المكان، أو أقام فيه، وبذا يكون المكان قد (عَمُرَ) (بضم الميم) بمن فيه، والبيت معمورٌ، أي مسكون أو آهلٌ. أما العَمارة (بفتح العين) فهي ما يُعْتَمَرُ به، أي يُوضع على الرأس، من عمامةٍ، أو قبعةٍ، أو تاج.

● والعمران، هو البنيان أو ما يُعمَّر به المكان، وتُحسَّن حالته من كثرة الأهالي فيه. أما العمران عند أبن خلدون فهو

المجتمع، إذ يعرِّفه بكونه التساكن في (مِصرٍ) أي في مدينة أو في (حِلَّةٍ) أي في قرية، للأنس واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش.

● أما مصطلح العِمارة في اللغات الغربية مثل الفرنسية (Architecture)، والإنكليزية (Architecture)، فإن أصل المصطلح، هو الكلمة اللاتينية .(Architectura) وهي مؤلفة من (Architect) و Ura، حيث يعني المقطع Ura، فعل أو عمل الـ Architect أي المعمار. العِمارة إذاً هي فعل، أو عمل المعمار.

وتُعرَّف العِمارةُ في الموسوعات الغربية المعاصرة، بكونها فنُّ البناء، وفق قواعد جمالية وهندسية ورقمية محدَّدة. إنها فن جماعي، يُنظِّم المجالات المبنية لتحتضن حياة الناس، ولتكون إطاراً لأعمالهم وللهوهم ولترفيههم، ومجالاً لا ينحصر في الصروح، بل يتناول الملجأ، والكوخ، والأثاث، وكل ما يستعمله الناس في حياتهم اليومية.

والعِمارة عند نشأتها في فجر الأزمنة التاريخية، كانت في الأساس دينية. وكان الحسُّ الجمالي فيها يتغَلَّب، دون إهمال الاقتصاد في المواد وفي طرق البنيان. وكأن هذا الإهتمام المزدوج بالفن وبالاستعمال، يُقدِّم إمكانيات لها مقياس مشترك واحد هو التقنية. لذا قرأنا ڤيتروف (Vitruve) يكتب عن المتانة والإستفادة أو الإستعمال والجمال

(Firmitas, Utilitas, Venustas) منذ ألفي سنة، في كلامه عن المباني، كما أننا نقرأ اليوم المعماريين البنيويِّين يكتبون عن عمارة ثلاثية القيم: القيمة الوظيفية، والقيمة الجمالية، والقيمة الرمزية.

إلا أن المعماريين الأنتروبولوجيين المعاصرين، إذ ينطلقون من التعريف السائد ذاته للعمارة بكونها فن البنيان أو فن التعمير، يتساءلون هل العمارة هي فن فقط؟ ليؤكدوا أن العمارة بالأساس، هي ظاهرة اجتماعية دائمة، تتحدَّد في إنتاج أشياء مألوفة نستعملها كل يوم. العمارة في رأيهم، هي مجموعة هذه الأشياء المنتجة والمستعملة، منظورٌ إليها بمجملها، في مكان معين وفي زمنٍ معين. ولا تُصبح العمارة من هذا المنظور، تلك المجموعة من المنشآت والمباني التي نختارها لقيمها الجمالية أو النمطية أو التاريخية. العمارة ليست اللوڤر وڤرساي ورونشان، العمارة ليست قصر الأمير بشير أو قصر الأمير أمين، إنها إلى جانب هذه الصروح، الملاجىء الصغيرة في أعلى الجبال، ومساكن المزارعين الحجرية، تنبت من المصاطب الصخرية في منحدراتنا.

إنطلاقاً من هذا المفهوم تصبح العمارة فعل مجتمع، تشهد على المجتمع الذي انتجها في زمنه وفي مجالاته. إنها تشرحُ المجتمع وتفسِّره، في الوقت ذاته الذي يفسِّر فيه المجتمعُ العمارةَ ويشرحُها. ومصطلح العِمارة من هذا

المنظور، يتابع المعماريون الأنتروبولوجيون، يصبح مرتبكاً وغامضاً، ويفضّلون عليه مصطلح الفعل المعماري (Le Fait Architectural).

ما هي العمارة إذاً؟ في مجالنا الإجتماعي؟ كيف نقرأها!؟

نقرأ العمارة!؟ يتساءلون!؟ نقرأها نعم، في كل ما يختبىءُ خلفَ غلافِها، في كلِّ ما تحجُبه واجهاتُها.

ما هي العمارة إذاً!؟ هذا السؤال الذي طُرح ولا يزال منذ قرون، أي منذ أن وُجد المعمار كمهنيٍّ محترفٍ خرّيج الأكاديميات والمعاهد.

● هل العمارة هي فن!؟ هل هي فن فقط؟ نكرر؟!

لا يستهوي هذا التعريفُ إلا محبّي رسمَ الواجهات، المولَعين بالزخارفِ وبالتزيينات، المنكبّين على نحتِ الكتلِ والنتوءات.

● هل العمارة هي تقنية!؟

لا أعتقدُ أن هذا التعريفَ يستهوي أحداً في عالمٍ تَغزوه الهندسة، وتَسكُنُه التقنياتُ والتكنولوجيا. سيُزيحُ هذا التعريفُ المعمار من المجال الإجتماعي، وسيُعطي مكانَه في عمليةِ التشييد للمهندسِ المختصِّ، وهو اليوم المهندس المختص بالخرسانةِ المسلحة، أو المهندس المختص بالهياكل المعدنية المعقدة أو بالهياكل المسّماة هجينة (HYBRIDE)، أو

للمهندس المختص بالشبكات، شبكات النقل، وشبكات الإتصال، وشبكات المعلومات. هذا إذا تسمرنا على سطح الأرض، ولم نسكن المركباتِ الفضائيـة التي تدور حـول كوكبنـا. أو إذا لم نحاول الهبوط فوق سطح المريـخ. أو إذا لم نوغل في قراءةٍ جديدةٍ، لمسألة التشييد، فنرى مع بعض نظريات اليوم، أن لا مسألةً خاصةً تتعلقُ بالتشييد وبالبنيان. وكلُّ المسألة تنحصرُ في "الفبركة" (FABRICATION). فنحن لا نبني عمارة اليوم بل نفبركها، كما تقولُ النظريات. ولا عملٌ خاصٌ بالمعماريّ في هذا المجال. وكلُّ العملِ للمعماريّ أو للمهندس أو لغيرهما، ينحصرُ بالبحث عن الموادِّ، وعن طريقةِ "فبركة" الأحجام والكتل.

● **هل العمارة هي علم!؟**

لن أتوقف عند هذا التعريف، فهو لا يستهوي أحداً أيضاً. ولم نلاحظ إلى يومنا أيَّ جهدٍ منهجيٍّ لصياغةِ نظامٍ معرفيٍّ علميٍّ خاصٍ بالعمارة.

● وربما كانت العمارةُ كل ذلك معاً، أي فنٌّ، وتقنيةٌ، وعلمٌ. أو كانت فوقَ ذلك كله، ناتجَ ممارسةٍ إجتماعيةٍ، تقفُ عند تقاطُع ثلاثةِ مفاهيـم تختزنها العمارة في آنٍ واحدٍ، وهي، **الوظيفةُ، والبنية أو الهيكل، والشكل.**

● وثمة نظرياتٍ جديدة، تؤكدُ هنا أيضاً، أن هذه الرؤية لم تعد كافيةً. وأن مكتسباتِ النصف الثاني من القرن التاسع

عشر وأوائل القرن العشرين، قد أصبحت عتيقةً. فصيغةُ الهيكلِ الإنشائي للمبنى يُغطّيه غِلافه أو جلده، قد تخطتها المعطياتُ التقنية الجديدةُ، التي تستطيعُ أن تُنتِج مبانٍ، تدلُّ على وحدةٍ، بين أرض المبنى وجدرانه وسقفه، تصلُ إلى حدِّ الذوبان. ومع الأدوات الرقمية، نستطيع أن نرسم كلَّ الأشكالِ، وأن نحتسبَ كلَّ الهياكلِ، كما يؤكِّدُ المنظِّرون. والهياكلُ الإنشائيةُ الجديدة، تصنعُ الأشكالَ المعاصرةَ وليدة الأدواتِ الرقمية، هي هجينةٌ، مرنةٌ، ليِّنةٌ، تخلطُ الموادَ والأنماطَ الإنشائية. إنها كثيرةُ الحيويَّةِ وملتبسةٌ في آن، وتستطيعُ أن تحجُب الطريقة التي تعملُ بها.

IV ـ العمارة كمنتج لممارسة اجتماعية، أو كمنتج إجتماعي.

● ماذا تريد كلُّ ملعقةٍ أن تكون!؟ يسألُ "لويس كان" (Louis Khan) ماذا تريدُ كل وردةٍ أن تكون!؟

كل ملعقةٍ تريد أن تكون "الملعقة"، أي وعاءً أجوفاً، ذي يد طويلة نمسكه بها، لنأكل الأطعمة السائلة. ولا فرق إذا كانت الملعقةُ هذه من ذهبٍ، أو من خشب. المهمُّ أنها تشيرُ بذلك، إلى المبدأ الذي صنعَ شكلها ودلَّ على طريقة الإنتفاعِ بها. كلُّ ملعقةٍ تُريد أن تكون ذاتَها، وكلُّ وردةٍ تريد أن تكون "الوردة"، تريدُ أن تكون ذاتها، يُتابع لويس كان.

• كالملعقة وكالوردة، تريد العمارة أن تكون ذاتها الأصلية. فيدل المدرَّج والمقاعد التي فيه على "ماذا؟" يريد مجالُ المسرح أن يَكون، ويحكي الصمتُ، الذي يسكنُ المسجدَ، عن "كيف؟" يريدُ مجالُ المسجدِ أن يكون. فالمسجدُ، والكنيسةُ، والمسرحُ، هي أعمالٌ معماريةٌ بامتياز، عليها أن تخدم مؤسساتٍ للإنسان، عليها أن تدلَّ عبر الإنتفاع بها، على المبدأ الذي ساهَمَ في صنع شكلها.

• العمارةُ إذاً هي كلُّ ما ذكرتُ دفعةً واحدة، ومن غير الممكن فهمها إلا كمنتج لممارسةٍ إجتماعيةٍ، شبيهةٍ بالممارسات الإجتماعية المماثلة، كالطبِّ، وذلك رغم كل المقاربات التي ذكرت. وخاصةً على الرغم ممّا يقوله لويس كان، أن العمارة هي غير موجودةٍ بالفعل، إنها موجودةٌ في الذهن فقط. وما هو موجودٌ بالفعل هو الفعل المعماري، الذي يتبناه اليوم المعماريون الأنتروبولوجيون.

وعلى الرغم ممّا يقوله اليوم، أي بعد أربعة عقودٍ، مسيميليانو فوكساس (Massimiliano Fuksas)، بأن المدينة... هي الناسُ الذين يتنزَّهون، عندما تبدأ العمارةُ بالإختفاء لتُصبح لنا، لنمتلكَها... يقول فوكساس، وأنا أرغبُ بتصميمِ عمارةٍ تُصبح مدينةً عندما تختفي، فيُثيرني فيها المرئيُّ وغير المرئي... المرئيُّ هو فوكساس، وغير المرئي هو العظيمُ الرائعُ!... المجالُ، والتوتُّرُ، والأحجامُ، والهيكلُ الإنشائي،

والموادُ... كلُّ ذلك لا يُزعجني... إذ إنني لا أرى العِمارةَ من هذا المنظار، فالعِمارةُ في ذهني، ينهي فوكساس.

وعلى الرغم ممّا يراهُ البعض، وهم ينظرون إلى العِمارةِ المعاصرة، فيرونَ أن دورَ الشبكاتِ فيها إلى ازدياد، فيؤكِّد هذا البعضُ، إنطلاقاًمن الدور المتزايد للشبكات، أن الأشكال التقليديَّةَ للعمارةِ كما عَرَّفناها هي إلى زوال تدريجيٍّ، ليحلَّ محلَّها مفهومٌ للعِمارةِ، يجعلُها قريبةً من مفهومِ الخدماتِ، تؤمِّن إطاراً عاماً للحياةِ. خدماتٌ تشبه خدماتَ المياه، والصرفِ الصحي، والكهرباء، والهاتف، والأنترنت، متبنياً بذلك نظريات "أرشيغرام" العتيقة، أو نظريات "باكمنستر فولر"، بعدها.

أو على الرغم ممّا يعتقده آخرون كُثرٌ، في زمن اهتزاز مهنةِ العِمارة باهتزاز الكثير من الطوباويات، من أن التسليم بوجودِ التعقيداتِ والتناقضاتِ والإلتباساتِ في عمارةِ اليوم، وفق ما رآه "روبرت فنتوري" منذ أربعة عقود، هو الثمن المتوجِّب دفعه لنخرج من سيطرةِ طوباوية جديدة، تريدُ للعمارةِ أن تكون، وفي الوقت ذاته: بدائية ومعاصرة، مؤقتة ودائمة، حرفية وصناعية.

● من غير الممكن إذاً، وعلى الرغم من كل هذه المقاربات المدهشة، من غير الممكن، فهمُ العمارةِ إلا كناتج لممارسةٍ اجتماعيةٍ، شبيهة بالطب مثلا. فالطبُّ ومعه الأطباء، يستعيرون المعلومات التي تُتِيحها علومٌ متعددة، كالفيزياء

والبيولوجيا والفيزيولوجيا وعلم النفس، وغيرها. والطبيب، رغم تعدُّد الإختصاصاتِ المعنيَّةِ بجُزئيات الجسد، فهو يستعمل دائماً مفاهيمَ عامـةً، تعودُ إلى الفلسفة. كمفهومِ الطبيعي ونقيضه، ومفهوم التوازنِ ونقيضِه، وغيرها. وكلُّ هذه المفاهيم، تبرِّر تفكيراً نظرياً، وتحرِّكَ مداركَ ذاتَ أبعادٍ فلسفية.

● والمعمار، إذا صحَّت المقارنة، هو كالطبيب، يستعير معرفةً متنوعة توفِّرها له علومٌ متعددة، كالرياضيات، والمعلوماتية، والاقتصاد السياسي، والسيميولوجيا، وعلم النفس، وعلم الإجتماع، وغيرها.

والمعمار كالطبيب، يتصرَّفُ بمجموعةٍ من المفاهيم، العامة صُنِعَت بعناية، ومنها المقياسُ، والتناسقُ، والتماثلُ، والتناغمُ، والتناقضُ، والسكون، والديناميكية،والتوتُّرُ، وغيرها. وكلُّ هذه المفاهيم تقعُ في دائرةِ التفكير الفلسفي، إلا أنها، غيرُ كافيةٍ لصياغةِ بنيان فكريٍّ، له بعدٌ علميٌّ متماسك.

والمعمار في عصرِ المعلوماتية خاصةً، يجدُ موقعَه بصعوبةٍ بين المهندس والتقني. كما يجد مكانه بصعوبة بين المروِّجين، ومالكي الأراضي،والتجَّار، والمنتفعين بالعمارة، والسلطات المختلفة. وكلُّ هؤلاء هم شركاءُ، في الممارسةِ الإجتماعيةِ الواحدة.

والمعمار وهو منتجُ مجالٍ، بمشاركةِ كثيرين، فهو يعملُ

في مجالٍ محدَّدٍ، وهذا المجالُ المحدَّد، هو جزءٌ إقتُطِعَ من المجالِ الشامل، الذي تمَّت تجزئته، وتملُّكه أجزاء. وأداةُ عملِ المعمار، هي لوحةُ الرسمِ البيضاء، أو شاشةُ الحاسوب، فتبدو أداةُ العملِ هذه وكأنها محايدة. أو أحسنُ من ذلك، تبدو وكأنَّها مرآةٌ أمينة. يرسُم المعمار على اللوحةِ البيضاءِ مسطحاتِه خطوطاً ماهرةً، فتبدو اللوحةُ - المرآةُ، وكأنها تعكُسُ عبرَ هذه الخطوطِ، الأشياءَ الحقيقية الموجودةَ في العالم حوله. إلا أن الحقيقة، هي غيرُ ذلك تماماً، وكل مرآة هي خادعة. فاللوحةُ تفرُض نظامها لقراءةِ الواقع. ولا يستطيعُ المعمار، أن يُسقط بسهولة فكرَهُ وتصوراتِه على لوحةِ الرسمِ أمامَهُ، فيجعلُ بذلك الحاجاتِ، والوظائفَ، مرئيةً. فهو غالباً ما يخلط بين المشروع الفعلي، وبين ما يُسقطه على اللوحةِ، في فهمٍ مثاليٍ، يجعل الحقيقةَ تضيع في خدعةِ المرآة.

تضيع الحقيقةُ في الحيادِ الظاهرِ للوحة الرسم، أو لشاشة الحاسوب.

تضيع الحقيقةُ، في وهمِ التطابُقِ بينَ مجالِ اللوحَةِ أو الحاسوب اللذين يبدوان محايدين، وبين المجال الحقيقِّي بكلِّ ما يجري فيه، وبكلِّ ما يقوم عليه. فلا تبقى مسطحَّاتُ المعمار بريئةً على لوحتِه البيضاء أو على حاسوبه، إذ على الأرضِ الصلبةِ، تصنعُ الجَّرافاتُ المسَّطحاتِ .

يقودنا هذا السياقُ إلى التساؤلِ عن جوهرِ عمل المعمار

على لوحته البيضاء أو على حاسوبه. هل هو مهارةٌ؟ أم تقنيةٌ؟ أوكّد إنه حلمٌ. إنه بحث عن طبيعة الأشياء. إنه تحقيق لأعمال معمارية، أو أفعال معمارية، تقومُ، لتخدم مؤسَّساتٍ للإنسان.

في عمل المعمار هذا مهارةٌ أكيدة، وفيه تقنيةٌ أيضاً. فيه بحثٌ، وفيه حلم خاصةٌ. إلا أنه فوق كل ذلك، طريقةَ تصوُّرٍ،المهارةُ فيها منظَّمةٌ وفق قواعدَ خاصةٍ بها. وغالباً ما يُصبح عملُ المعمار من هذا المنظور مصفاةً.وكل مصفاةٍ تنتقي وتميِّز بالضرورة. إنها تهملُ هذا الجزء أو ذاك من الواقع، وتُكملُ، وعلى هواها، الفراغات التي تحدُث في النصِّ من جرَّاءِ ذلك. وتذهبُ المصفاةُ في انتقائها وفي تمييزها، أبعدَ من الإيديولوجيةِ، لصيغةِ العمارة كمهنةٍ، كممارسة اجتماعية. تذهب المصفاة أبعدَ من كل ذلك، لتصل إلى درجةٍ تُقنِّعُ معها الطلَبَ الإجتماعيَّ الحقيقيَّ، أو تَحجُبه. وهل من مثال للدلالة على مصفاة المعمار هذه، في ممارسته اليومية لمهنته، وهي تقنِّع الطلب الإجتماعيَّ الحقيقيَّ لا بل تحجبه، هل من مثالٍ للدلالةِ على هذه المصفاة، أكثرُ بلاغةً، مما نشاهده اليوم عندنا من نماذج للسكن!؟ ملايينُ متعددة من الأمتار المربَّعة، تُـشَّيد وتُبنى، يُصمِّمُها المعماريون، وهي متشابهة، وتكاد تكون نموذجاً واحداً، في أقصى الريف اللبناني، وفي أرقى جادات العاصمة!؟

٧ ـ ماذا في الخاتمة!؟

ماذا في الخاتمة!؟ في الخاتمة، استنتاجٌ ثلاثيٌ الأبعاد:

أولاً: * من منظار محاولة الإبتعاد عن الممارسة - المصفاة، التي تقنّع الطلبَ الإجتماعيَّ الحقيقيَّ أو تحجبه، من هذا المنظار، لم يعدِ الرسمُ، أو الضربُ على الحاسوبِ، كافياً للمعمار، بل أصبحَ من واجبه أن يتكلّم أيضاً. أصبحت مخاطبةُ المساهمينَ الآخرين في صنعِ المجال، من واجبه.

أصبحَ من واجب المعمار، مخاطبةَ الذين سينتفعونَ بالمجالِ أولاً، وقبلَ مخاطبةِ المساهمين الآخرين في صُنعه. فلا يُرى في المعمار رجلَ رسمٍ ورجل تصوُّر فقط، بل رجلَ مخاطبة أيضاً.

ثانياً: * وبالعودة إلى المعمار مُنتِجُ مجالٍ بمشاركة كثيرينَ، أرى، أن الإشكالية العامة للمجال، تُلزمنا أن نعالج مسألةَ مهنةِ المعمار، بإخضَاعها إلى المسائل العامَّة. فنرفضُ عندها، الفصلَ بين المعمار وبين منظمِّ المدن، ونرفضُ الفصلَ بين العمارةِ وبين المدينة. فالمعمار، ومنظمٌ المُدُن، يتقاسمان في عملهما المجالَ مع آخرين، خاصةً مع مالكي الأراضي. يقتسمونه بينهم، ويُجزِّئونه، كلٌّ على هواه، بحيث تبدو التجزئةُ مبرَّرةً على المستوى النظري. إذ لكلٍّ من

الفاعِلَيْنَ في التجزِئة هذه منسوبُه، ومقياسُ تدخُّله. فيغيبُ الشاملُ عندها إذ يَحجُبه الجزئيُّ، ويعملُ كلٌّ من الفاعِلَيْنَ في مجالٍ مجرَّدٍ، تَصَوَرَهُ على مَـنسُوبه، وقاسَه بمقياسه. المعمار في الجزئي، ومنظمُ المدنِ في الكليّ. في حين أن المسألة المطروحةَ اليوم وبإلحاحٍ، هي في ضرورة التغلُّبِ على هذه التجزئة، وفي وصل المنسوبين، **الجزئي**، مجالِ المعمار، والكليّ مجال منظمِّ المدن. أي بتعبير أدق، **وضعُ الجزءِ في موقِعِه، في إطارِ الكل**.

ثالثاً: * يحتاجُ هذا الوصلُ إلى الكثيرِ من الجهدِ. إلا أن ما يُهمنا الإشارةُ إليه هنا، على مستوى الممارسة المهنية للمعماريين، هو أن هذا الوصلَ يُصبِحُ ممكناً، عندما يتخلّى معظم المعماريين، عن وهمٍ متشبث بهم، وهمٌ يُقنعهم، بأنهم لا يزالون أسيادَ المجال، يتصَورونَه، ويُحقِّقُونَه في المجتمعِ وفقَ مفاهيمهم. ومجالُ المعماريين هذا، هو مجالٌ فارغٌ، نقيٌّ، متجسِّدٌ في الأرقامِ.

مجال المعماريين هذا، مجسَّدٌ في النِسبِ وفي التناسقِ، في التناقض وفي التجانسِ، في السكونِ وفي التوتُّر.

إنه مجال بصريٌّ، مرئيٌّ، مرسومٌ، مشهديٌّ، ..... يُمـلأُ لاحقاً من مِنظارهم، بالأشياءِ وبالسكانِ، وبسائر المنتفعين به. ومجال المعماريين هذا، يجاورُ المجالَ المجرَّد للفلاسفةِ وللمفكرين.

إن في هذه الرؤية ارتباكٌ، ربما قادنا إلى إلغاء الزمن، وإلغاء دوره في صنعِ المجال.

عنيت الزمنَ التاريخيَّ، والزمن الراهنَ .زمن الحياة المتحّولة دائماً، المطلّ على زمن المستقبل.

والزمن هذا، في التاريخِ، في الراهنِ، وفي المستقبلِ، هو صانعٌ أساسٌ، للمجال الإجتماعيّ،

غيرُ النقيّ، غيرُ الفارغِ، والمملوءُ دائماً بالأشياءِ، وبالناسِ، وبالذاكرة.

السفير 27 ايار 2005

6

الأبنية البرجية في النسيج المديني المعاصر

قراءة ملويَّة مواربة، وتوصيف غير مكتمل(*)

I ـ مقدِّمة

أبراجٌ، أبراجٌ. أبراج!

أبراجٌ منعزلة، متعالية، قامعة،

أو أحياءٌ كاملةٌ من المباني البرجية، للتجارة والأعمال، وربما للسكن أيضاً.

إن هذا الشغف، أو بشكل أكثر دقَّةً، إن هذا الافتتان المتزايد، بالمباني التي تبالغ بارتفاعها، ينتشر في المدن الكبرى في عالم اليوم. في أوروبا، وأمريكا، وآسيا،

(*) أُلقيت في المؤتمر المعماري الرابع لنقابة المهندسين الأردنيين: مؤتمر ومعرض الابراج والأبنية العالية الاول، عمان، 9-10-11/ 6/ 2008.

وأفريقيا، وأوستراليا، وفي بعض ارجاء الوطن العربي، في دبي، في أبو ظبي وفي الدوحة، في الرياض وفي جِدَّة، في بيروت وفي القاهرة، كما يشهد بداياتٍ له، في عمَّان وفي العقبة.

مجموعة من التساؤلات تفرض نفسها، في مقدِّمة هذا النص:

● 1 - هل المبنى - البرج، هو دلالة الثروة؟ هل هو التعبير الصافي عن جبروت رأس المال؟ والمثالُ الصارخُ عن الركضِ وراء الربح؟ فتزدحم الناس في الطوابق المكدَّسة، في لهاثٍ وراء عزلةٍ مُتوَهَّمة، وحريةٍ متخيَّلة، يصنعها التفرُّد برؤية آفاق لا حدود لها؟ كلُّ ذلك، لتزداد عائدات المستثمرين في العقار؟

● 2 - أم إنه حضورٌ طاغٍ للتقنية وللتكنولوجيا المتقدمة، في البنيان المعاصر؟

● 3 - وهو يحكي بالتالي، قوة الإنسان، وتصدِّيه الناجح لتحدِّي التجاوز؟ تجاوزَه المتجدِّد لذاته، ولقدراته؟

● 4 - أم أنه منجَزٌ مدهشٌ، تتعرَّف من خلاله المدينةُ على ذاتها؟

● 5 - وهو بالتالي رمزٌ، يختصر كامل المجال، حيث يبنى؟

عَرِفت الإنسانيةُ المباني المرتفعة منذ بابل وبرجها. وتعدَّدت التجاربُ في هذا المجال، منذ بداية القرن العشرين حتى يومنا. نذكر منها برج أيفِلْ في باريس، وأعمال أوغُست

بيريه في فرنسا، وبرج إلّينوي في أمريكا، وقد صمَّمه فرانك لويد رايت، وأبراج ايفان ليونيدوف في موسكو، والمباني المرتفعة في مدينة شيكاغو...وغيرها مما لا ضرورة لذكره.

وقد دلَّت المواقفُ المفهوميَّةُ من الأبراج، وأساليبُ المقاربات المختلفة لهياكلها الإنشائية خلال القرن العشرين، دلَّت هذه المفاهيمُ وهذه الأساليبُ على مراحلَ، على عتبات.

● 1 - ابتدأت هذه المراحل:

- بالتوسُّع في استعمال المادة،

- ثم بالإبتكار في تطبيق قواعد الفيزياء،

- فظهر الإرتفاع في المباني، كشكلٍ من السمو بالعادي المألوف. حصل ذلك، عندما فرض منطقُ "جلدِ العمارةِ" نفسه على البنيان المعاصر.

● 2 - ثمَّ، ليزداد ارتفاعُ المباني، أُضيف إلى الهيكل الإنشائي المعدني السائد، نواةٌ من الخرسانة المسلحة.

● 3 - وما لبث بعد ذلك، أن دَمَج الإنشائيون المبتكِرون الهيكلين المعدني والخرساني. كلُّ ذلك، ليغدو المبنى أكثر إرتفاعاً.

II

المباني البرجية في محيطها

كيف تبدو المباني البرجية في محيطها؟

معظم المدن الكبرى في العالم، ومعظم المدن الكبرى

في الوطن العربي أيضاً لا تزال مدناً أفقية. فباريس مدينة أفقية بامتياز، مع برجٍ يتيم معزولٍ وسط النسيج المديني في دائرة مون بارناس، وحي الأعمال البرجي في دائرة الديفانس. وروما أفقية بإمتياز ايضاً، ولندن هي شبه أفقية، مع وجودٍ يزداد باضطراد، للأبنية المبالغة بالإرتفاع.

لا يصحُّ هذا التوصيف بالطبع، عند مقاربتنا للمدن الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية، في نيويورك ومنهاتن، وفي تشيكاغو، وفي ما يسمى "الداون تاون" في المدن الأمريكية الكبرى.

أما في الوطن العربي، فدمشقُ مدينةٌ أفقية، وحلب أفقيةٌ أيضاً، وعمَّان أفقيةٌ، ومبانيها منتشرة بارتفاع شبه موَّحد على مجموعة من التلال، بالاضافة إلى تونس، والدار البيضاء، ومرَّاكش، وطرابلس، وغيرها من مدنِ المغرب العربي، والتي لا تزال كلُّها إلى الآن مدناً أفقية.

أما بيروت، فقد تحوَّلت خلال العقود الثلاثة الأخيرة، من مدينة أفقية إلى مدينة ذات منحىً عاموديٍ واضحٍ، تتجه فيها المباني بإضطراد نحو الارتفاع المتزايد. وحمَّى الأبراج كما سبق واشرت، تلتَهم المزيدَ من تراب الخليج العربي، ومن مياهه المردومة. إشكالية فريدةٌ متعدِّدة الأبعاد، تحدِّد علاقة المبنى - البرج في المجال حيث يُشاد:

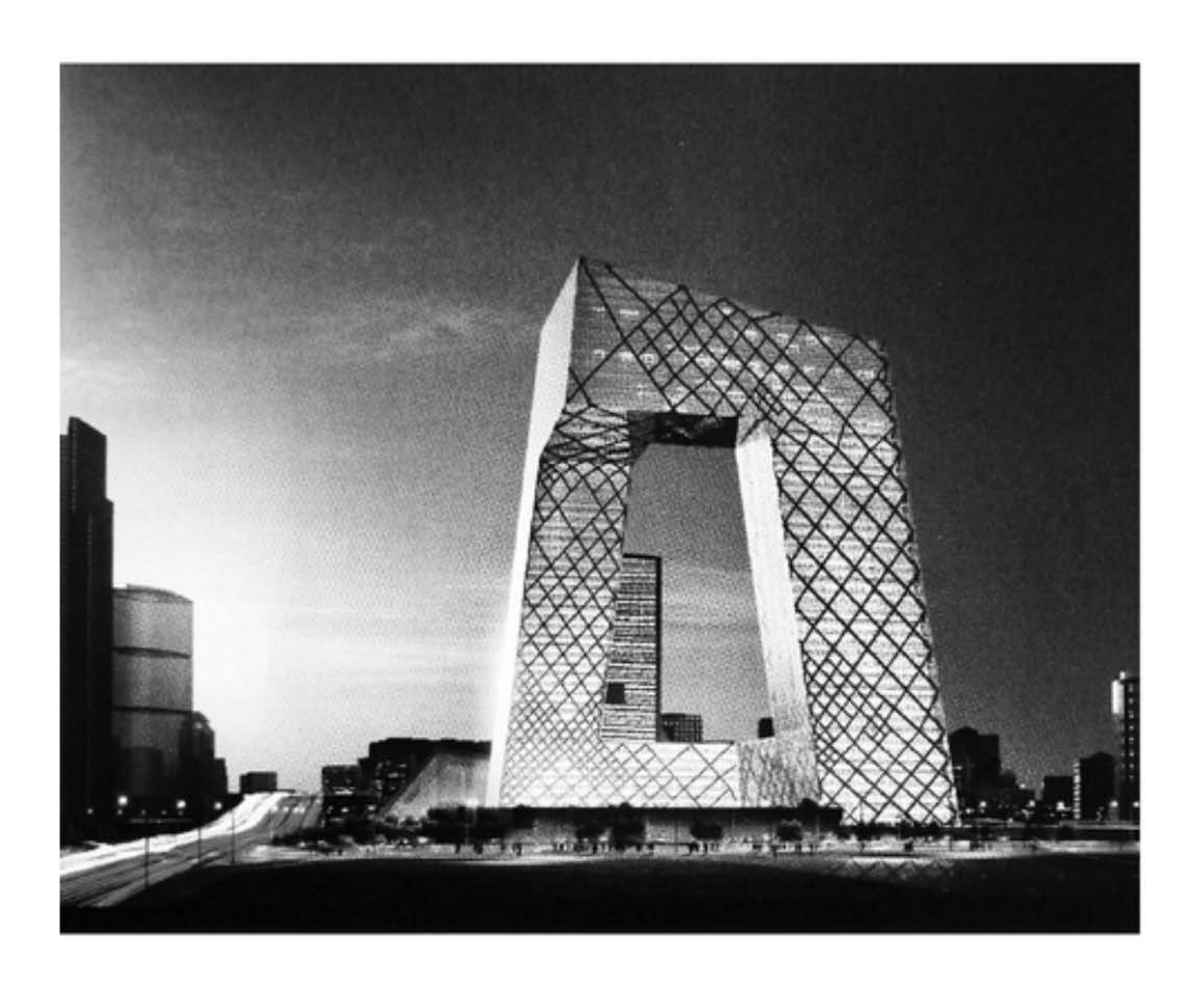
● 1 - فالبرج المنعزل، أو الحي البرجي للأعمال أو للسكن إذا وجد، عليه أولاً أن يكون له بُعدٌ إشهاريٌ، بُعد

العلامة الفارقة، وشهادةُ التميُّز، وصفحةُ الإعلان الكبرى في المجال. وحبَّذا لو أشارت هذه الصفحة الإعلانية، إلى مرافق مدينيَّة، أو إلى مؤسَّسات عامة.

● 2 - وعليه ثانياً، رُغم قساوة ارتفاعه، وشدة التوتر الذي يزرعه في المكان حيث يقوم، وتأثيره المدمِّرعلى النسيج المديني حوله، وعليه، على الرغم من كل ذلك، أن يحمل بعض ما يستطيع إضافته إلى السياق العام حوله، ليبدو متناغماً معه. أي عليه أن يرتدي بعداً سياقياً يخفِّف من عزلته، ومن غطرسته، ومن سلبية حضوره، فيتكاملُ مع المدينة وإن بنجاحٍ جزئي، ويساهمُ في صياغة شكلِها العام، ويؤدِّي بالتالي إلى القدرةِ على قراءة هذا الشكل، وإلى سهولةِ فهمِ الناسِ له.

● 3 - وعليه ثالثاً في السياق العام الذي أشرنا إليه، أن يتحلَّى بالقدرة على إبتكار تقاطعاتٍ واضحةً، بين الحضور الإنشائي المثقل بالتعقيدات، والحضور الإيكولوجي الضروري.

● 4 - وعليه رابعاً بالإضافة إلى كونه معلماً بارزاً، أن يُعيد الحياة إلى حي أو إلى جزء من المدينة، عبر المنشآت العامة التي يحويها من محطات النقل، والمنتزهات، وكل الإطلالات الممكنة على المدينة من الحيِّز العام الواجب الوجود فيه، بالإضافة إلى تعدُّد وظائفه، وتعدُّد الإنتفاع به، مما يجعله يضج بالحياة ليلاً نهاراً.



ريم كولهاس ـ مركز التلفزيون الصيني

● 5 - وربما كان عليه أحياناً، وفي حالات فرديَّة نادرة، أن يحقِّق إنجازاً تقنياً ومعمارياً فذاً يضعه في سياق العمارة الإستشرافية، الإستباقية، الرؤيوية، التي عرفناها في الستينات من القرن الماضي، مع أرشيغرام، والميتابوليسم، والميتابوليسم + موفوزيس، وغيرها من التصوُّرات - الرؤى.

III - إلى ما يهدف مصمموا الأبراج وبُناتها، في مجتمع ما؟

المجال، وبعد الرمز.

إلى ما يهدف مصمموا الأبراج وبُناتها، في مجتمعٍ ما؟ سنتساهلُ، أو سنتفاءلُ إذا أردتم، ونرى، أن مصمِّمي الأبراج وبُناتُها، في مجتمعٍ ما، إنما يهدفُون إلى تأكيد الثقة في مكوِّنات هذا المجتمع، الاقتصادية، والإجتماعية، والسلوكية، وإلى تثبيتِ الثقة في قِيَمِه أيضاً. وتُصبح العِمارة دفعةً واحدةً، رمزاً لكلِّ ما هو إيجابيٍّ. إذ إنَّ الحصول على مستوى عالٍ من الأداءِ في ما يبنى، يتمُّ وسط حماسٍ عامٍ يحيط بعملية البنيان. والشغف بالأبراجِ، هو اليوم في أوجه. ولكن!؟

ولكن، هل نستطيع أن ننسى أن هذه المباني المدهشة، لا قيمةَ فعليَّة لها، إلا بكونها نماذجَ عن تفوقٍ تقنيٍّ صافٍ،

يحوّلها إلى رموزٍ وشعاراتٍ معمارية، يرادُ لها أن تكون بمقياس ما يسمّى "بالمدن الحديثة؟"

فالبرج كمجالٍ مبنيّ، يفرُضُ نفسه بقوّة في نظر الجميع، وفي المتخيِّل لدى كل واحد منا. إنه رمز العِمارة بامتياز كما يزعم البعض، وهو يُصبح بالتالي، وفي افضل الأحوال، أيقونةَ المدينة، ومثالاً للبنيان ذي الجودة المميَّزة، في كل متطلباته.

أتصوَّرُ أن الإقتراب من منهاتن من على باخرةٍ أمضت شهوراً قبل أن تصل إليها، مثَّلت لمدَّة طويلة، برهةً استثنائيةً لكلِّ الذين كانوا يزورون الولايات المتحدة الأمريكية أو يهاجرون إليها في بداية القرن العشرين، ومن أي مكان أتوا. إذ إن مجالَ البرج هو مجالُ رؤيته، أي مجالُ إدراكِه حسياً، فهو خارج المقياس مقارنةً بالمبنى العادي.

هكذا، كانت الحال منذ أن كانت العِمارة، وطوال تاريخها. من أهرامِ مصر على حدود منبسط الجيزةَ، تُرى من بعيد في الوادي، وكأنَّ الصحراء قد ارتفعت نحو السماء، إلى مجموعةِ نيويورك اللمَّاعة قبالة المحيط.

وإذا كان ذلك البرجُ، مصنَّعاً بشكلٍ يمكننا أن نتعرَّف عليه بسهولة، بحيث يُمكنُ تحويلُه في وجدانِ الناس إلى تعويذةٍ أو ذكرى، فلا يُمكننا أن نختصره بكونه أيقونةً مستقلةً. إذ إن صداهُ في المجالِ الحقيقيّ حولَه،هو الذي يؤكِّد قيمةَ

التعرُّف عليه من الجميع سكاناً كانوا، أو سواحاً، أو معماريين، أو مجرَّد مارة.

فالمبنى - البرج في المدينة، يساهمُ في اختصارِ روحِها في شعارٍ يفهمه الجميع. وأن نبني برجاً، يعني أن نبني دلالةَ قوَّةٍ، وأن نُطلق التحدِّي للتفوُّق ولتجاوز الذات، في الوقت ذاته الذي يتمُّ فيه صهرُ الجماعة، عبر شعورها بالانتماء إلى العمل العظيم، هذا ما يعتقده البعض على الأقل.

IV ـ هل تتناقض المواقف من بناء الأبراج؟ ومن مقولة عامودية المدن!؟

في البدء كانت كل المدن أفقية قبل أن يصبح بعضها عامودياً، فهل تتوحَّد مواقف الناس من بناء الأبراج؟ ومن رؤية مدينتهم تزدادُ مجالاتُها توتُّراً، بتوجُّه أبنيتها بشكلٍ مبالغٍ نحو السماء؟ وكأنها تخلَّت عن الأرض الصلبة التي يعيشونَ عليها!؟

الإحساسُ حيال بناء الأبراج في المدن يتمُّ، بطريقتين متناقضتين مختلفتين باختلاف الحضارة المدينية التي يعيش فيها كل من طرفي المعادلة. الطرفُ الذي يقبلُ الإندفاعَ المجنونَ نحو السماء، كتقدمٍ نحو ما يسمِّيه "الحداثة"، تقدمٌ لا يمكن وقفُه، بتصوُّرِه. والطرفُ الآخر، الذي يعتبرُ أن الحياة المدينية لا يُمكنها أن تتطوَّر بشكلٍ طبيعيٍّ، إلَّا بعلاقةٍ مباشرةٍ وصلبةٍ وغنيَّةٍ وثابتةٍ مع الأرض.

في ظل هاتين القراءتين المختلفتين، تأخذ المدن موقفين متناقضين.

فالبرج المنفرد المنعزل، في بعض المدن الأوروبية، هو نوع من العلامة النادرة، مع نشازٍ يقاربُ "مافوق الإنساني".

فسِهام كنيسة "الساغرادا فاميليا" أو "العائلة المقدَّسة" في برشلونة التي صمَّمها غَودِي، يُمكنُها أن ترتفع خارجَ شبكة إدلفونسو سردا القاسية، لتقترِحَ التذكيرَ بالإلهي، الذي لا يمكن للإنسان أن ينساه. والرغبةُ الحاليَّةُ للمدينة أي لبرشلونة، في الحضورِ على المقياس الأوروبي، قادها إلى القبول بتشييد برجين متجاورين على الواجهة البحرية بمناسبة الألعاب الأولمبية في العام 1992، وإلى برجِ أغبار (AGBAR) أي برج مياه برشلونة، ومصمِّمه جان نوفل، الذي بُني في الفترة الأخيرة. ويعودُ إلى هذه الأبراج، وقد قَبِلها الناس، تجسيدُ الجهدِ المبذول لحضورِ المدينة الكامل، على المسرح الاسباني والعالمي.

وهيمنةُ البرج بشكلٍ عامٍّ في المجال المديني، هي هيمنةٌ مؤقَّتة. فهو يُصبح بعد حينٍ، نوعاً من الفضول نكتشفه عند منعطفٍ، أو في نِظرةٍ خاطفةٍ ملويَّة وموارِبة. وفي المدن حيث تكثر الأبراج مثل هونغ كونغ، ومانهاتن، وسيدني...، من الضروري، أن يتميَّز البرجُ في رسمه الهندسي، وفي شكله، وفي التفاصيل التي تصنع غلافه، حتى نستطيع أن نميِّزه فنراه

عن بعد، أو أن نراه بتقطعٍ وبشكلٍ متناوبٍ ونحن نتجوَّل في المدينة، عبر الفجوات التي تفصلُ بين الأبراج المتزاحمة.

٧ ـ المعدني والنباتي

تَتمعدنُ مدنُ اليوم، حيثُ تكثرُ الأبراج، وقد ذكرتُ بعضَها. تتمعدَنُ بهيكلِها الإنشائيِّ من الحديد الصلب، وبغلافها الزجاجي الملوَّن المعتم.

وقد رأى فرانك لويد رايت، مستبقاً المدَّ المعدني الراهن وهو الذي عاش بداياتِه في شيكاغو، أنه من المناسب للإنسان الذي يسكن في مكانٍ محدَّد، أن يشعرَ وكأنه يسكنُ الأراضي في كامل امتداداتها.

ففي مشروعه لمدينة "بروداكر" الذي صمَّمه في العام 1934، يرى رايت، أن كل مبنى، هو نقطةٌ في شبكةٍ يوجِّهها لصالح اكتشاف القارة الأميركية بكاملها، وهو يرى فيه مشهد ما قبل المدينة.

فالبرجُ المنعزل، هو نقدٌ غيرُ مباشر لكثافة تمركز ناطحات السحاب، في أحياء المال والأعمال في المدن الأميركية الكبرى. وبرجُ الإلينوي والذي كان قد رسمه بدايةً لمدينة شيكاغو، صمَّمه رايت في النهاية، بارتفاع يصل إلى 1609 أمتار، متجنباً بذلك أي زيادة مرتجلة قد تضاف إليه. إن هذا البرج، هو التعبيرُ الفريدُ عن هذا الحلم الذي

اختصره ريم كولهاس بقوله بما يشبه الصراخ: "الكثافةُ في العزلة، إنها الحل المثالي".

ففي الوضعِ الاقتصاديِّ والثقافيِّ العالميِّ المُعاصر، والذي يدفعُ الناسَ بقسوةٍ إلى التكدُّس في المدن، المدن الغنية والمدن الفقيرة على السواء، نرى السجال يحتدمُ، بين المدينة كمنتَجٍ "ممعدنٍ" وبين المجالات المدينية النباتية الخضراء. ويأخذُ هذا السجالُ بُعداً كونياً. وكان لوكوربوزييه قد أشار إلى هذا الموضوع، في مخطوطته حول نيويورك وعُنوانها، "عندما كانت الكاتدرائيات بيضاء". وتنطلق المسألة عنده، من مشاعرَ تتأجَّج عبر المواجهة بين الإصطناعي العظيم كما يراه، والطبيعي المُستعاد، وفي هذا ما يحدِّدُ الأهدافَ التي على العمارة أن تُحقِّقَها:

● ثلاثماية متر من الإرتفاع، هو حدثٌ معماريٌّ، يقول لوكوربوزييه. إن هذا الإرتفاع يمثِّل شيئاً هاماً في نظامِك البسيكوفيزيولوجي كإنسان، تشعر به في الرقبة وفي المعدة، يتابع لوكوربوزييه. إنه شيءٌ جميلٌ بذاته.

● ناطحة السحاب مبالغةٌ بصغرها، وتدمِّر كلَّ شيء. إجعلها أكبرَ، وأكثرَ ارتفاعاً. إجعلها حقيقيَّة ومفيدة. فتُعيد لكَ أراضٍ شاسعةً، وتدفع ثمن الأملاك المدمَّرة، وتُعطي الخُضرة للمدينةِ وقد رُفعت عماراتها على أعمدة، وترسُم فيها نظام السير الذي لا عيب فيه (....).

● السنترال بارك، هو أمثولةٌ أخرى يقول لوكوربوزييه. أنظروا كيف أن الفنادق الكبرى، والمساكن الفخمة، أنظروا إليها جميعاً وقد أتت بشكل عفوي، بشكل طبيعي، لتُطلَّ بشبابيكها على السنترال بارك. إلا أن السنترال بارك هو كبيرٌ جداً، إنه ثقبٌ كبيرٌ وسط المنازل (....)، الخضرةُ، ومجالات البارك خاصةً، عليها أن تُكرَّر وتُوَزَّع على امتداد الأراضي في مانهاتن (أنتهى).

كان لوكوربوزييه يؤمِن بالتنظيم المدينيّ الذي يدافع عنه، كما يؤمن بالقوَّة السياسيَّة المنظَّمة، لعِمارةٍ يتصورُها على امتداد الأراضي، مرفوعةً على أعمدةٍ منتظمة، قادرةٍ أن تعطي للطبيعةِ معناً حقيقياً في المدينة.

VI ـ المدينة ذات الأبعاد الثلاثة.

وماذا عن المدينة ذات الأبعاد الثلاثة؟

ماذا عن التنظيم المديني الثلاثي الأبعاد؟

أصبح من الممكن تقنياً مع المباني المبالغةِ بارتفاعها، والمنتشِرة بكثافة من هونغ كونغ، إلى كوالا لامبور، إلى نيويورك وسيدني، إلى قطر والدوحة وأبو ظبي، أصبح من الممكن، مع انتشار المباني التي تنطح السحاب فعلاً لا تشبيهاً أو استعارةً، أصبح من الممكن تقنياً، اعتبارُ ناطحة السحاب مدينةً بذاتها. إذ إن تكديس الناس في طوابقَ،

بعضُها فوق البعض الآخر، قد سمح عند إحتساب الإستعمال، بأن نرى مساحةَ الأرض التي تقومُ عليها ناطحةُ السحاب قد تضاعفت مراتٍ ومرات، وبأرقامٍ تزدادُ يوماً بعد يوم. فيزدادُ عدد سكّانها، وهم يقومون بنشاطات متنوّعة ومتكاملة، مما يعطي لناطحةِ سحابٍ فعليّةٍ منفردةٍ، شكلَ مؤسّسةٍ مدينيّة متكاملة.

إن البناء المُبالغَ بارتفاعه، ولّد عند البعض الوعدَ بتنظيم مديني حقيقيّ ثلاثيّ الأبعاد، مكدّساً من الأرض حتى السماء الربط بين المباني، والأرصفة، والممرات المرفوعة، وجسور النقل الهوائية، كما جاء في "كوسموبوليتية المستقبل" وقد تصورّها موزيس كنغ في العام 1908 ونقلها عنه ريم كولهاس في كتابه "هذيان نيويورك" الصادر بالفرنسية في العام 2002.

لقد جسّد المعمار الروسي إيفان ليونيدوف هذا الجهد المفهومي للصلة بين عدّة أبراجٍ، في مشروعه لبناء مجمّع وزارة الصناعة الثقيلة في موسكو، في العام 1934، كما سبق وذكرت. اقترح ليونيدوف في مشروعه، مجموعةً من ثلاثة أبراجٍ، باشكالٍ هندسيةٍ مختلفة، ينزاحُ واحدها عن الآخر بلطفٍ، بما يضمن رؤيةَ كلٍّ واحد منها، من مختلف الأماكن المحيطة بها.

أعاد ليونيدوف إبتكار الساحة الحمراء، فأقام فيها منَّصةً ممتدَّة ربطت الأبراج ببعضها وشدَّتها إلى أرضِ الساحة، ورسم في المِنَصَّة مُدَرَّجاً للإحتفالات الرسمية، وخلق رابطاً

بصرياً بين مجمَّع الوزارة وكنيسة القديس باسيليوس بقببها الشاعريَّةِ الملوَّنة. ولحَظ في التأليف، ممرَّاتٍ علويةً على ارتفاعاتٍ مختلفة تربُطُ أبراج المجَّمع، وتكسِر عزلتها وتفرُّدها الوقحين.

VII ـ البرج ورؤية الأفق.

وإذا كان المبنى - البرج، يُرى عن بعد في الأراضي التي تحوطه، فإنه يُتيحُ رؤية الأراضي هذه وكأنها أكثر امتداداً. ويزدادُ الشعور بالامتداد، كل ما نظرنا إلى الأراضي حول البرج من حيِّزٍ فيه، أكثرا ارتفاعاً. وافضلُ حيِّزٍ للرؤية في المبنى - البرج، هو عند قمَّته. والناظرُ من هذا الحيِّز المرتفع إلى ما حوله، يرى فوراً وبشمول، مجموعةً من المشاهد المتتابعة لكل منها خطُّ أفقه. والإحساس بالدوار الذي نشعرُ به، ونحن في قِمَّة الأبراج الشديدة الإرتفاع، هي علامةُ نجاحها، كما يرى البعض. فالبرجُ في هذه الحالة، هو مُصنِّعٌ يثير المشاعر كما يقول لوكوربوزييه، ويُقيمُ علاقةً مباشرةً مع زائره.

إن برج إيفِل، وكثرٌ هم الذين يعرفونه، هو بالتأكيد، من أفضل الأمثلة عن المنشآت العامودية التي أُنجِزَت حتى الآن. فالمصعد فيه، يتبعُ إنحناءة الهيكل الإنشائي قبل القِمَّة، ويُصبح عامودياً بشكل تدريجي، مما يجعلُ الزائر يعيش نوعاً

من الارتباط الخاص بينه وبين البنيان المعدني، تنشّطه الحركة ويوسّعه الفراغُ المحيط. فالشبكةُ المعدنيَّةُ التي تتقارب مكوّناتها مع صعود الزائر، تثير لديه المشاعر بخفة الكائن، وبتحرُّره المطلق من الأرض، وبحريَّةٍ تولِّد لديه راحةً، وإن متوهَّمة. يُمجِّد برج إيفِل عبورَ الفراغ الذي يولِّده إكتشافُ باريس من فوق، من الأعلى، هذا الإكتشافُ يجعلُ المشاعرَ أكثرَ صفاءً.

وقيمةُ الأبراج تكمُنُ جُزئياً في مجالاتها الداخلية. لقد أشار أوغست بيريه إلى هذا الجانب في العمارة العامودية، في أبراجه السكنية. إلا أن هذه الإشارة جاءت أكثر وضوحاً، في قبب الأجراس في كنائسه.

ففي كنيسة القديسة تريز في مونمانيي (للعام 1932)، نجدُ المجال الداخلي في موقع الجرس، يرتفع بكامل ارتفاع قُبَّته، فيدخلُ في تناغم مع المجال المماثل داخلَ الكنيسة، مكوِّناً مثلَّثاً قائمَ الزاوية يستعيرُ البعدين الأساسيين عند الإنسان، العامودي والأفقي، تعبِّر عنهما رمزية الصليب. ويُصبح البرجُ مع اوغست بيريه بنياناً أي تشييداً، يظهرُ فيه الحسُّ المعماري دون أي التباس أو خداع.

البرج بكليَّته، هو بنيانٌ عند أوغست بيريه. وكل مكوِّن فيه، هيكلٌ حاملٌ أو جدار فاصلٌ، يُظهر ذاتَه بدونِ أي تبرُّجٍ أو زُخرفٍ، كما في برج غرونوبل. ومجالُ البرج الداخلي

المفرَّغ، هو المكوّن النشط الذي يغمُر الإنسان الصاعد داخله، في حمّام من الضوء.

العِمارةُ عند أوغست بيريه هي فنُّ التوسُّط بين قيمٍ متعدِّدة. وهي تعبيرٌ عن كل ما هو إيجابي في فعل البنيان، في أبعاده الثلاثة: التقنية (المتانة) والفلسفية (الإنتفاع أو الاستفادة) والروحية (الجمال)، بالعودة دائماً إلى فيتروفيوس.

VIII

في الخلاصة، الطرز والإبداع، في لغة البنيان.

ماذا في الخلاصة بعد هذا السرد المطوَّل؟

في الخلاصة، إن بنيان الأبراج يرتكزُ على تفتيش متناقض: المزيدُ من المجالات مكَّدسةً بعضُها فوق البعض الاخر، مع القليل القليل من المواد. يأخذُ الحجمُ هنا مكان الكُتلة، وتتغلَّبُ الخِفَّةُ والليونةُ، على الثقلِ وعلى الوزن.

وتعدُّد البرامج في الحالات المثلى، يولِّد تنوعاً في الأحجام التي تترابط غالباً في مجالٍ شاهقٍ فارغ.

تَقْرَأُ التنقُّلَ، عبر مجموعةٍ من المقاطع تتابع وكأنها تدور داخل مجالات البرج، فترى المشهد الإفتراضي المحيط بك، عبر اماكن لها حضورٌ متناقض. إنها قراءةٌ أصيلة بالفعل، ولكنها قراءةٌ ملويَّة، مائلةٌ، مواربة، تنجُم مواربتها عن

حركتك في الداخل، حيث يساهم الهيكل الإنشائي في التأليف، كوسيلة اساسية للتعبير.

و"ما بعد الحداثة"، هو، الطراز المفضّل وفق ما يراه ريم كولهاس. إنه المروِّج المتحمِّس "للحداثة" يقول كولهاس، فهو في متناول الجميع. ناطحةٌ للسحاب مستوحاةٌ من باغودٍ صينية، أو من قريةٍ توسكانية، أو من الإثنتين معاً.

يطرحُ البرجُ مسالة الطراز في أسوأ معانيه المفردة. ففي الوقت الذي تتعولم فيه تيبولوجية المباني البرجيَّة، تتفَّرد مورفولوجياتها، وتتميَّز بكونها ملجأً للهُوية، كما يراها كولهاس.

يدافع الطراز عن القواعد اللغوية الوطنية في العمارة، في ماليزيا أو في تايوان. كلُّ الهواجِس يُعبَّر عنها في المحيط وفي اللِّباس الخارجي للمبنى، في حين يُصبح المجالُ مبتذلاً حتى الضجر، كما يقرأه كولهاس مرةً أخرى.

يعود الطراز أحياناً إلى استلهام الكتلة المعمارية في عصرٍ ما. إنهُ انتصارٌ للتاريخ بدلالاتٍ دون مضمون. كلُّ شيءٍ هو صالحٌ لنستعيده، بما في ذلك تجاربُ الطليعيين الذين كانت لغاتُهم في الغالبِ، محاولاتِ قطعٍ مع الماضي دون أي تنازل. وهكذا يتحوَّل الحديث إلى اصطلاحٍ أو رمزٍ، في حين أنه كان في البدء، لغةً جديدةً جذرية الإختلاف، في طريقةِ الوجودِ وفي البناء.

يكون الطراز أحياناً من ابتكار معمارٍ معيَّن، يحكي لغةً شخصيَّةً عليها أن تختلف عن لغة الجار، بمميِّزاتها الخاصة.

كيف وصلنا إلى مثل هذه المرحلة حيث نعتبر تقنية البنيان طرازاً؟

لأنه لم يعد للطراز بالتأكيد أية علاقة بالبنيان، كما يرى البعض.

وعندما يكونُ البنيانُ أي التشييدُ، الممرَّ الإلزامي لكل انجازٍ في المجال، يُصبح البُنْيانُ بالتالي المعرفَة التي تسمحُ بتقويم المصنَّع المشيَّد، عند تقاطع العِمارة، والفنِّ، والتقنية.

IX ـ الخاتمة.

وماذا في الخاتمة!؟

في الخاتمة، كما في المقدِّمة، أبراجٌ، أبراجٌ، أبراج.

إذا كان تكديسُ الطوابقِ وتكديسُ المساحاتِ المبنيَّةِ، بعضُها فوق البعض الآخر، هو السبب الحقيقي لدفع المباني باتجاه الإرتفاع، وإذا كانت المبرِّرات الماليَّة هي الرافعة الرئيسة لهذا التوُّجه نحو الأعلى، فإن كل ذلك لا يُنتجُ أية قيمةٍ مجاليَّةٍ للأبراج. أو بصيغة أخرى أكثر دقَّة، إن كل ذلك، لا يعطي الأبراج أيَّةَ قيمةٍ وسط النسيج المديني حيث تقوم.

إن رؤية المجال الفسيح الممتد بلا حدود، والإحساس

الوجودي الفيزيائي لواحدنا وهو عند قمَّة بناءٍ، بأنه يحلّق وكأنه على قمة جبل، إن هذين: الرؤية والإحساس، خارجَ أي كسبٍ عقاريٍّ وماليٍّ، ربما استطعنا اعتبارهما المسبِّبان الرئيسان لوجود المباني التي تقتحم القمم.

يبدو السببان المذكوران إلزاميين، بالمقدار ذاته الذي يبدو معه ناتجُ الإرتفاع نسبيَّ النجاح، وبعيداً عن أيةِ قراءةٍ مباشرة، لا مُواربة فيها ولا التواء. خاصَّةً وأن أيَّ ارتفاعٍ نصلُ إليه اليوم، سوف نتخطّاه غداً، لأسبابٍ ماليةٍ أكثر من أيّة أسباب أخرى.

من هذه الزاوية، نشاهد صعوداً قوياً، لتيارات تحوّل قراءةَ البرجِ من علامة قوةٍ، وانتصارٍ، وتحدٍّ للسماء، إلى قراءةٍ مليئة بالقلقِ والتساؤل.

وبُرج ريم كولهاس، الذي صمَّمه للتلفزيون المركزي الصيني (CCTV) في العاصمة بيجنغ، حيث يلتفُّ حجم البرج أفقياً، أملساً، متواضعاً، موازياً للأرض التي يقوم عليها، معيداً ارتباطه بها وإن عن بعد،

إن برج ريم كولهاس هذا، يختصر ببلاغةٍ بداية التحول الذي أشرنا إليه.

إنها صورةٌ مُقلقةٌ "لبرجِ المستقبل"، تُدمِّر صورته المتفائلة، المنتصرة، المتعالية، العدائية، القامعة، وتستبدلُها بصورةٍ فيها الشكُّ مكان اليقين، والتردُّدُ مكان الثقة والتأكيد.

ومن الضروريِّ في كلِّ الصِيغ، التأكيدُ في الخاتمة، على

أن التعبير التقني يبقى الأساس، في الصياغة المفهومية لعمارة الأبراج.

وكلّ ما تألّقتِ التقنيةُ في الأبراجِ مفهوماً وتنفيذاً، كلّما ازدادت الأبراجُ فقراً في أدائها المجالي، وانعزالاً في موقعها المديني.

العِمارة البرجيَّة في تحولُّها المجالي، لا تزال في البدايات. قراءتُها ملويَّة موروبة، وتوصيفُها غير مكتمل.

السفير في 22 أيار 2009

المراجع:

1 - John Dos Passos (Manhattan Transfer)
Gallimard - Folio Paris 1973.

2 - Paul Auster (Trilogie new yorkaise)
Cité de verre. Acte Sud Montpellier 2002.

3 - Le Corbusier : Quand les Cathedrales etaient blanches
Artemis Zurich 1972.

4 -New york Delire Rem Koolhas
Parenthéses Marseille 2002.

5 -Andrei Gozak et Andrei Leonidov
Ivan Leonidov, Academy editions Londres 1988.

6 -Auguste Eiffel : L'art de l'Ingénieur, Constructeur, Entrepreneur Inventeur Centre Georges Pompidou (Antoine Picon). Paris 1997.

7 -Auguste Perret, L'Architecture D'Aujourd'hui Paris 1991.

8 -Techniques et Architectures No. 350, Novembre 1983.

9 -Techniques et Architectures No. 471, Avril-Mai 2004.

III

العمارة، التراث والمجتمع

•

7- مؤتمر هيئة المعماريين العرب الرابع:
حلب بين التراث والمعاصرة، المؤتمر والإعلان.

8- مقابلة مع المعمار رهيف فياض،
رئيس هيئة المعماريين العرب، رئيس المؤتمر.

9- إعلان حلب، حول التراث المعماري العربي، والمعاصرة.

10- ما هو التاريخي التراثي في مدننا؟ ولماذا نحافظ عليه؟

7

مؤتمر هيئة المعماريين العرب الرابع

"حلب ـ بين التراث والمعاصرة"

I

تأسس إتحاد المهندسين العرب في نيسان / إبريل من العام 1963 في دمشق. وتشكل الإتحاد عند التأسيس، من الهيئات الهندسية في كل من (1) المملكة الأردنية الهاشمية، (2) والجمهورية العربية السورية، (3) وجمهورية العراق، (4) ودولة الكويت، (5) والجمهورية اللبنانية، (6) وجمهورية مصر العربية. وأُعلن قيام الاتحاد رسمياً أثناء إنعقاد المؤتمر الهندسي العربي الثامن في القاهرة في أيار / مايو من العام 1963 أيضاً.

ويضم الاتحاد الآن بالإضافة إلى الهيئات المؤسسة، الهيئات الهندسية في كل من (7) دولة الإمارات العربية (8) ومملكة البحرين، (9) والجمهورية التونيسة، (10) والجمهورية الديموقراطية الشعبية الجزائرية، (11) وجمهورية

السودان، (12) ودولة فلسطينن، (13) والجماهيرية العربية الليبية، (14) والمملكة المغربية، (15) والجمهورية اليمنية. وقد أنشأ اتحاد المهندسين العرب، في صلب بنيته التنظيمية والمهنية، هيئات متخصصة مستقلة أهمُها هيئة المعماريين العرب التي أسسها في 1993.

وقد عقدت هيئة المعماريين العرب أول جمعية عامة لها في العام 1994، حيث أنتخبت رئيساً ولجنة تنفيذية من ستة أعضاء منهم نائب للرئيس فأبتدأت بذلك الدورة الأولى، تلتها ثلاث دورات، الثانية في العام 1998، والثالثة في العام 2001، والرابعة أي الحالية، في أوائل العام 2005، والتي ستستمر حتى آخر العام 2007.

وتضم هيئة المعماريين العرب، المعماريين من أحد عشر بلداً عربياً، وهي (1) الأردن، (2) والامارات العربية، (3) والسودان، (4) وسورية، (5) والعراق، (6) وفلسطين، (7) والكويت، (8) ولبنان، (9) والجماهيرية الليبية، (10) ومصر، (11) واليمن. وقد أنضمت مؤخراً إلى الهيئة (12) النقابة الوطنية للمهندسين المعماريين الجزائريين. كما انضمت إليها (13) النقابة الوطنية للمهندسين المعماريين التونسيين كعضو مراقب.

وتعمل الهيئة بمثابرة، كي ينضم إليها المعماريون من البلدان العربية الأخرى. فأقامت في سبيل ذلك علاقات وطيدة مع النقابة الوطنية للمهندسين المعماريين في المملكة المغربية، ومع معماريين في البحرين، ومع غيرهم. وعملت الهيئة ولا تزال، وهي ملتزمة بنظامها الأساسي. فحرصت دائماً على تجميع كل الإمكانيات لايجاد عمارة عربية مميزة، منسجمة مع البيئة العربية، منبثقة من التراث العربي، ومعتمدة

على التطورات العلمية والفنية، والتقنية. وتجهد الهيئة للحفاظ على التراث العربي، وإبراز أثره في تقدم الحضارة، وتعريف العالم به.

II

لقد قامت الهيئة في الدورات الثلاث السابقة بعدة نشاطات أبرزها مؤتمراتها العلمية الدورية، التي حدَّدها عنوان عريض هو: مدنٌ عربية.

- كان عنوان المؤتمر الأول الذي عقد في بيروت في العام 1999، **القدس الآن، المدينة، والناس، تحديات مستمرة**. واسباب اختيار القدس موضوعاً للمؤتمر آنذاك، كانت واضحة. وهي لا تزال قائمة إلى الآن. ففلسطين محتلة كلها، وشعبها يتعرض للذبح الوحشي كل يوم في الضفة وفي غزَّة خاصة، والقدس عاصمتها ورمزها مهدَّدة بالتهويد الكامل، وناسها محاصرون. إلا أنهم مقاومون، يواجهون بصلابة كل أصناف التحديات. وكان المؤتمر الوسيلة الفضلى تعتمدها هيئة المعماريين العرب، لفضح مخططات الاحتلال الإستيطاني الصهيوني حيال المدينة الرمز، ولإبراز نضال ناسها الصلب، لاحباط هذه المخططات بكل الوسائل، حفاظاً على المدينة، وعلى مكانتها العمرانية، والرمزية، والروحية، في فلسطين، وفي الوطن العربي، وفي العالم الإسلامي. وقد صدرت وثائق المؤتمر في العام 2000 في بيروت، في كتاب أنيق جميل.

وحرب الإبادة المتصاعدة التي تشنها اسرائيل اليوم على شعب فلسطين ومقاومته، ما هي إلا فصل من فصول نهجها المستمر لتصفية كل مقاومة صلبة تقوم على الأرض العربية. ففي تموز الماضي، تصدّى شعب لبنان ومقاومته، للحرب الأميركية عليه. فقاتل المقاومون اللبنانيون الأبطال، طيلة ثلاثة وثلاثين يوماً، وأوقفوا الآلة العسكرية الإسرائيلية الضخمة، وأرغموها على الإنسحاب، دون أن تحقق أياً من أهدافها، رغم ملايين القذائف والقنابل، الذكية، والعنقودية، والفوسفورية، والمشعة، التي انهمرت علينا مطراً صيفياً حارقاً ومدمراً. وربما عملت هيئة المعماريين العرب على تنظيم نشاط تضامني رمزي مع لبنان ومقاومته ومع فلسطين، يعقد في الضاحية الجنوبية أو في بنت جبيل أو في الخيام، أو في خيمة كبيرة فوق دمار عيتا الشعب، عند الحدود مع العدو.

ـ أما المؤتمر الثاني، الذي عقد في الجماهيرية الليبية في العام 2001، فقد بقي في السياق ذاته سياق "مدن عربية" إلا أنه عالج موضوعة "المعايير التخطيطية للمدن العربية". وقد صدرت وثائقه أيضاً في كتاب في طرابلس في الجماهيرية الليبية، في العام 2001.

ـ أما المؤتمر الثالث، الذي عقد في صنعاء، في العام 2004، فقد عاد إلى السياق العام سياق "مدن عربية " بشكل أكثر وضوحاً، إذ كان عنوانه، صنعاء،عراقة مدينة. وفي العنوان أهداف المؤتمر كلها. وأهمها، تعريف المعمار

العربي بالعمارة اليمنية، من خلال دراسة النسيج العمراني لمدينة صنعاء القديمة، وإبراز دور هذا النسيج، في الحفاظ على الموروث الحضاري اليمني بكامله.

III

ـ مؤتمر هيئة المعماريين العرب الرابع سيعقد في حلب في 14 و 15 و16 تشرين الثاني الجاري. عنوان المؤتمر هو "حلب بين التراث والمعاصرة"، ومحاوره الرئيسة هي للمصادفة، أربعة ايضاً:

1 - المحور الأول: **حلب التاريخية حضارة وانتماء.**

2 - المحور الثاني: **الحفاظ على التراث الحضاري في حلب التاريخية.**

3 - المحور الثالث: **التكامل بين حلب التاريخية ومحيطها العمراني المعاصر.**

4 - المحور الرابع: **العمارة المعاصرة في حلب، وإشاكالية الهوية.**

يبتعد المؤتمر في عنوانه وفي محاوره الأربعة، عن القراءة الأيقونية للتراث الحضاري في حلب، وعن النظرة المتحفية إليه. ويقترح مقاربة تحليلية تصاعدية (كريتشاندو) كما يقال في لغة الموسيقى.

■ فيبدأ في محوره الأول، بالتوقف عند التاريخ في

حلب، وعند أهم الأحداث التي مرت عليها وصنعت تحولاتها. إذ لا مبالغة في القول إن حلب، هي أفضل شاهد على ما حفره التاريخ في المنطقة برمتها. عَبَرَها الفاتحون والغزاة القدامى، الحثيون، والحوريُّون، والمصرويون الفراعنة، والفرنجة الصليبيُّون، والمغول...، ثم طرد الأيوبيون الفرنجة. وجاء بعدهم المماليك، والسلاجقة الأتراك، والعثمانيون...، ثم الكولونياليون الفرنسيون. قامت فيها الممالك، وانهارت. واستقرَّت حلب بعد رحيل الجميع، سوريةً، عربيةً، إسلامية.

ثم يتوقف المؤتمر في محوره الأول أيضاً، عند التطور العمراني لحلب القديمة، محللاً العهود التاريخية المتعاقبة، مستعرضاً واقع مدينة حلب التاريخية، دارساً العهود القديمة المتعاقبة، باحثاً في معالمها الأثرية البارزة، يصفها ويحللها، ويحدد مكانها في تاريخ المدينة، ودورها في تكوين نسيجها العمراني.

■ وينتقل المؤتمر في محوره الثاني، إلى موضوعة حلب التاريخية، وإلى سياسات الحفاظ على التراث الحضاري فيها. ففي حلب اليوم قلعتها، وقد شيدت فوق جبل قام هناك منذ أن كان التاريخ. وأُكمل الجبلُ بإرادة الناس وبسواعدهم. أكمل الناس بالردم الجزئي صناعة جبل، وبنوا فوقه قلعة. أحاطوها بالمياه، وجعلوا في أسوارها بوابةً شاهقة مدهشة، هي في المدينة رمزها. ثم بنى الناس حول القلعة المساجدَ،

والأسواقَ، والخاناتِ، والحمَّاماتِ، والمدارسَ، والدورَ، والمنازل...، بنى الناس حول القلعة كل سبل العيش. أربع ماية هكتار من الموروث العمراني، يعيش فيه الناس اليوم، ويشكّل القلب النابض للمدينة المتروبولية المعاصرة. ويحافَظُ على هذا الموروث بمنهجية، ومعرفة، ودقة، ومهارة، واحتراف، وإصرار.

فيتوقف المؤتمر عند هذه التجربة في المحافظة لدراستها، واستلهامها في تجارب ميدانية أخرى على امتداد الوطن العربي. من مشروع الإرث الثقافي والتنمية المدينية في لبنان، والذي يطمح إلى إدماج الموروث المبني في الحياة المدينية المعاصرة في كل من طرابلس، وجبيل، وصيدا، وصور، وبعلبك.

إلى تجارب الحفاظ على المدن التي انشئت في الفترة ما بين العام 1850 و1950 في بعض الدول العربية.

■ ثم ينظر المؤتمر في محوره الثالث إلى حلب المعاصرة. نسيج مديني متجانس، منخفض في وسطه، مرتفع في أطرافه بلطف، كالصحن. المدينة التاريخية في زاويته الجنوبية الشرقية، ومعظم التمدد المديني غرب المدينة التاريخية. في هذا النسيج المتمدد، والذي يبدو وكأنه بلا حدود، مليونان ونصف من السكان. وفيه نصف الصناعة السورية تقريباً، ومعظم التجارة، والكثير من التعليم، والثقافة، والسياحة.

■ ويستمر المؤتمر في منهجه التصاعدي، فيبحث في محوره الثالث الذي لا نزال بصدده، في جدلية العلاقة بين المدينة التاريخية، والنسيج المديني المعاصر الذي يحوطها. مقاربةٌ فيها الكثير من الاشكاليات، والكثير الكثير من الأسئلة الجوهرية:

1 - ما هو دور المدينة التاريخية، في النسيج المديني الكلّي للمدينة؟

2 - هل تتكامل معه؟ وما هو دورها في هيكلة (structuration) المدينة بكاملها؟

3 - ما هو دورها في بثّ الحياة فيها باستمرار؟

4 - كيف يندمج النسيج الموروث بعمارته وبناسه، في نسيج المدينة المعاصرة؟

5 - وهل ينتجا معاً تنمية مدينية إنسانية شاملة للمدينة بكاملها؟ تنمية مستدامة؟ كما يقال اليوم.

■ ويستمر المؤتمر في محوره الرابع والأخير، في الابتعاد عن القراءة الأيقونية للتراث الحضاري في حلب وفي الوطن العربي، كما يستمر في الابتعاد عن النظرة المتحفية إليه. فيطوّر مقاربته التحليلية التصاعدية، ويبحث في تأصيل القيم الحضارية في العمارة العربية المعاصرة، ويفتش عن وسائل الاستفادة من التجارب العربية في البحث عن هوية معمارية عربية نفتقدها، معالجاً موضوعة المعاصرة، وجدليات

الهوية، وإشكاليات التراث. وينتهي المحور بمناقشة الاشكالية الاساسية:

كيف ننتج في حلب اليوم، عمارةً معاصرةً، تدلُّ على هويتها، وعلى انتمائها الحضاري؟

IV

طاولة مستديرة، حول " التراث المعماري العربي الاسلامي والمعاصرة "، ستختتم نقاشات المؤتمر الذي سيستمرُّ ثلاثة أيام. وسيشارك في هذه الطاولة، معماريون ممارسون، وأكاديميون، وباحثون من لبنان، والعراق، ومصر، والأردن، والسعودية، وسورية.

ستوثَّق كل المداخلات، كما ستوثَّق كل المساهمات، وكل الآراء، لتصدر مع وثائق المؤتمر بصفة "إعلان حلب حول التراث المعماري العربي والمعاصرة ".

-1- سيحيِّي الإعلانُ بالضرورة إختيار حلب، عاصمةً للثقافة الاسلامية للعام 1427 هـ الموافق للعام 2006 م.

-2- وسيعتبر، أن اختيار حلب مكاناً وموضوعاً للمؤتمر الرابع لهيئة المعماريين العرب، يعود إلى مكانة حلب الفريدة في تاريخ المنطقة منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كما يعود إلى الاهمية البالغة للمدينة التاريخية فيها. اهمية مساحتها 400 هكتار محافظٌ عليها، واهمية الإرث المبني فيها.

-3- وسيشيد الإعلان بمدينة حلب نموذجاً حياً للمدن العربية الاسلامية. فالمدينة التاريخية، فيها هي أكبر مدينة عربية إسلامية متواصلة الوجود حتى يومنا هذا. إنها مدينة حية، ديناميكية، فاعلة في محيطها المباشر وفي سورية، وفي المنطقة بكاملها.

-4- وسيؤكد الإعلان، أن العمران التاريخي في حلب، والعمارة العربية الاسلامية فيها، يعكسان بأمانة وصدق، التحولات التاريخية التي مرت بها المدينة في العصور الاسلامية المتلاحقة والمتواصلة.

-5- وسيرى الإعلان، أن الإرث الثقافي في حلب، عمراناً متضامًّاً كثيفاً وعمارة أصيلة غنية بمفرداتها وبثروتها الرمزية والجمالية، إنما يعكسان بصدق وأمانة مرة أخرى، بنية المجتمع الاسلامي في تحولاته الكبرى. وقد أراد هذا المجتمع، أن يعبِّر عن ذاته دائماً ورغم كل المتغيرات، بكونه مجتمعاً متراصاً، متعاضداً، فيه وحدة وتكامل بين كل مكوناته.

-6- وسيؤكد الأعلان أن هذا الإرث في العمران وفي العمارة، هو ثروة حضارية نادرة، ومرجعية ثقافية لا غنى عنها، تستدعي كل الاهتمام وكل الدراسة. وهي تستدعي بالتأكيد التعريف بها، بكونها جزءاً هامًّاً وفاعلاً في الحضارة الانسانية في العالم بأسره.

-7- وسيشير الإعلان، إلى أن الكثير من التيارات

المعمارية المعاصرة والتي تزدهر اليوم مع تراجع فكر الحداثة في العمارة الذي يدَّعي الكونية والشمولية:

البحث المتعدد المنابع عن العمارة لصيقة المكان، والعمارة الاقليمية المناطقية، والعمارة المناخية، والعمارة الإيكولوجية، والعمارة البيئية، والعمارة المستدامة... وغيرها،

إن كل هذا الحراك في ميدان التفتيش عن الابداع والخصوصية في العمارة، إنما يمكن أن نجد له ما يفيده ويغنيه في العمارة العربية الاسلامية الموروثة، لأن في هذه العمارة عناصر حية، يمكن توظيفها بفاعلية في عمارتنا المعاصرة.

-8- وسيؤكِّد الإعلان، أنه وربما وجدنا في هذا الشكل من التواصل الحي، ما يساعد على سد الفجوة السحيقة بين الإرث المبني، والمعاصرة. إذ غالباً ما تكون العمارة المعاصرة بليدةً، قبيحةً، مدّمرةً.

-9- وسيؤكد الإعلان على أن روح العصر، لا تحدِّدها السطوة الفجّة للرأسمال المتوحش على قطاع البنيان، والذي يُحوِّل العمران والعمارة إلى استثمارات عقارية صافية لا علاقة لها بالمكان وبناسه، ولا مكان فيها لأي إبداع إنساني حقيقي.

بل أن روح العصر تتأكد، من خلال الفهم العميق

للمكان حيث تقوم العمارة. هذا الفهم الانساني للمكان، بناسه، وبمقوماته، وبإمكاناته المتاحة، في كل الميادين.

-10- وسيؤكد الإعلان، على ضرورة الحفاظ على هذا الإرث الثقافي المبني عمراناً وعمارة، وحمايته وتوظيفه في الحياة المعاصرة، بما يساعد في إيجاد تنمية إنسانية حقيقية وشاملة.

-11- كما سيشير الإعلان إلى أهمية تجربة حلب الفريدة في هذا المجال.

V

يترافق هذا النقاش الفكري خلال أيام المؤتمر الثلاثة، مع ثلاثة معارض، تحاول أن تجد لها مكاناً في محاوره، وذلك عبر تجارب العارضين.

ـ المعرض الأول وعنوانه، الحفاظ على التراث وإدماجه في الحياة المعاصرة للمدينة، بمشاركة سورية، ولبنانية، وفلسطينية، وسعودية.

ـ والمعرض الثاني وعنوانه، العمارة المعاصرة في النسيج التقليدي الموروث، ودورها في إعادة هيكلة المدن (Restructuration) وفي بثّ الحياة فيها وإحيائها، بمشاركة سورية ولبنانية.

ـ والمعرض الثالث وهو الأهم على ما أظن، وعنوانه

الأصالة والمعاصرة في العمارة، تجاربٌ عربية، بمشاركة بارزة لمعماريَّيْن عربيَّيْن رائدين، رفعة الجادرجي من العراق وراسم بدران من الأردن.

VI

● من المفرح في هذا الزمن الرمادي القاتم، أن نجد في عمق العتمة، بقيَّةً من ضوءٍ نستخدمها، لنقرأ في مدننا وفي عمارتنا، ماضياً وحاضراً. وربما استطعنا، بمساعدة المتبقي من هذا الضوء، أن نقرأ أيضاً، في مستقبل عمراننا وعمارتنا.

● من المفرح في زمن التشرذم، أن نسمع ونرى أربعة عشرة متحدثاً في المؤتمر، وأن نرى فيه خمس ماية وخمسين معمارياً وباحثاً عربياً، يشاركون في أعماله.

● من المفرح أن نراهم يجتمعون لمدة ثلاثة أيام متتالية، ليتناقشوا في أمور الإرث الثقافي المبني ويتطلعون في ضوئه، إلى حاضرنا ومستقبلنا.

● من المفرح أن تشدَّ كل هولاء، الميزات العمرانية والمعمارية التاريخية الفريدة لمدينة حلب، باحثين في وسط العتمة، وبمساعدة المتبقي من الضوء الخافت، عن ما قد يشدهم مستقبلاً.

سيأتون إليها من الجزائر وتونس وليبيا، من مصر والسودان والاردن.

سيأتون إليها من سورية، ولبنان، والعراق، وفلسطين. سينظر هؤلاء تحديداً، إلى باب الفرج، وباب أنطاكية، وباب قنسرين. سينظرون إلى قلعة حلب وبوَّابتها المدهشة، إلى الجامع الأموي وإلى الكنائس العتيقة، إلى الأسواق وسوق الصاغة خاصةً، سينظرون إلى الخانات والحمامات وكل ما في المدينة من معالم، وسيرون في اللحظة ذاتها، وعلى شاشة متخيلة تنبسط امامهم صافية مضيئة، سيرون في اللحظة ذاتها، القاهرة، والقدس، ودمشق، والخليل، وحيفا، وطرابلس، وصيدا، وصور.

سيرددون، وهم الذين تصدوا للحرب على لبنان، وهم الذين يتصدون يومياً لحرب الإبادة الصهيونية على فلسطين، سيرددون ما قاله زميل فلسطيني عزيز: لا! لن تستطيعوا أن تقسموا مياه البحر الواحدة،

لا! لن تستطيعوا أن تهزمونا.

سيأتون إليها متابعاً بعد توّقفٍ تعداد من سيأتي، من السعودية، والكويت، والبحرين، واليمن.

● من المفرح أن نرى، بين مئات المختصين المشاركين في المؤتمر، رؤساء البلديات في مدننا الساحلية التاريخية كلها أو من ينوب عنهم، عنيت الميناء، وطرابلس، وجبيل، وصيدا، وصور.

● من المفرح أن نسمعهم يتكلمون العربية بكل لهجاتها.

الأخبار 10 تشرين الثاني 2006

8

مقابلة مع المعمار رهيف فياض

رئيس هيئة المعماريين العرب
رئيس المؤتمر

على هامش أعمال المؤتمر أجرت المهندسة ماريبت جبور من اللجنة الإعلامية للمؤتمر لقاءً مع المعمار رهيف فياض حيث قال:

المؤتمر نشاط دولي وهو مؤتمر هيئة المعماريين العرب الرابع ولا توجد أية استثنائية في انعقاده. إنه نشاط يتكرر كل ثلاث سنوات علـى شكل مؤتمر، يقف بهدوء عند مدينة عربية معينة يقاربها من حيث أهميتها. قد تكون المدينة تراثية أو ذات وزن كبير في البلد العربي المعني أو أن فيها عمارة ذات قيمة. وهذا المؤتمر الدوري عقد في حلب.

لماذا في حلب؟

حلب مدينة عريقة في التاريخ، كثر الكلام عنها خلال

المؤتمر واحتل الكلام عن تاريخها جزءً رئيساً في مشروع الإعلان. فالتاريخ فيها ليس عابراً بالمعنى المديني فقط. لقد حفر فيها، وهذا الحفر العميق موجود بتراكم العمارة ذات القيمة التاريخية عبر عصور عربية إسلامية متلاحقة. حلب ليست مدينة تاريخية فقط، فهي مدينة متروبولية كبرى، فيها مليونان ونصف من السكان ولها دور كبير في الاقتصاد السوري. ففيها نصف صناعة سورية، وفيها الكثير من التجارة، وهي مركز سياحي كبير لكل ذلك تم اختيار مدينة حلب.

من اشترك في المؤتمر؟

هيئة المعماريين العرب تضم الآن أحد عشرة بلداً عربياً يمكن أن نسميها، هي بلدان المشرق، سورية لبنان الاردن فلسطين العراق، وبلدان أفريقيا، مصر السودان ليبيا، وفي الخليج العربي الإمارات والكويت، واليمن، وأنضمَّت إلينا مؤخراً الجزائر عضواً كامل العضوية وتونس عضواً مراقباً، إذاً ثلاثة عشر بلداً عربياً يشارك في المؤتمر.

المؤتمر يعقد مع الجمعية العامة لهيئة المعماريين العرب وبالتالي هناك حضور لجميع أعضاء الهيئة، ومن ثم هناك المؤتمر بموضوعاته التي جذبت المشاركين الكثر وقد تعدَّى عددهم الأربعمئة وخمسين مشاركاً، بالإضافة إلى المشاركة السورية، فكانت المشاركة العربية كثيفةً، أنا أراها استثنائية.

المؤتمرات السابقة لم أر فيها حضوراً كما رأيت في حلب، كانت القاعة ملأى من اليوم الأول إلى اليوم الأخير. إن عناصر الجذب إلى المؤتمر كانت القدرة على صياغة نشاطات مرافقة لها قيمة ثقافية تشد إليها مهتمين من خارج إطار هيئة المعماريين، ألا وهي المعارض. أهم هذه المعارض كان معرض إحياء التراث وإدماجه في الحياة المعاصرة، بمشاركة من سورية تتناول أعمال الترميم والإحياء في دمشق وحلب، ومشاركة من فلسطين حيث رأينا الحفاظ على مدينة الخليل، وبمشاركة من السعودية عن طريق مؤسسة التراث بالرياض، وكانت المساهمة اللبنانية مميزة وهذا ليس إنحيازاً مني لأنني لبناني. كل مدن الساحل اللبناني كانت مشاركة، وحضور هذه المدن لم يكن عبر الجهود المبذولة لأعمال الترميم فقط، بل عبر رؤساء كل البلديات. ثم كانت الجامعة اللبنانية ممثلة بمركز الدراسات العليا للترميم في طرابلس بحضور عميد معهد الفنون الجميلة د. هاشم الأيوبي. ثم كان المعرض الثقافي البالغ الأهمية للمشاريع العمرانية في المدن القديمة ودورها في إعادة هيكلية المدينة وإحيائها. وهذا منهج تنظيمي عليه أن يفتش عن عناصر تستطيع أن تحول المدن المنسيَّة إلى مدن حية لا إلى أماكن متحفية وأماكن نقدسها بل أماكن للحياة. ركزنا بخيار فكري وهادف على إبراز المشاريع التي تقوم في المدن بهدف إحيائها. وكان المعرض الثاني من صفحتين، صفحة لبنان لأنها مشاريع طلاب الجامعة

الاميريكية بالتعاون مع بلدية الميناء ومشاريع عشرة خريجين للعام 2004-2005 بحضور أساتذة الطلاب، أما الصفحة الثانية تعود إلى خريجي العمارة من كليات سورية.

المقاربة الفكرية الأخرى كانت أكثر عمقاً، تكلمت عنها في جلسة اليوم الثاني، وهي الأصالة في العمارة العربية المعاصرة في التجارب العربية التي حاولت أن تظهر الجهد العربي ليكون عربياً اصيلاً وليس في البلدان العربية فقط. المحور بهدفه الفكري كان يريد أن يقارب حقبتين من تاريخ العمارة في الوطن العربي متميزتين مرحلة الستينات التي شهدت نهوضاً كبيراً ومن الوجوه البارزة في تلك الفترة الجادرجي. سلّطنا الضوء على الحراك في العراق، وأردنا أن نعرضه ليس لقيمته بل لإبداعيته في تلك الفترة حيث كان في العراق إبداع حقيقي باستخدام بعض المفردات في العمارة. كان المقصود بالعمق الفكري أن نحدث مقارنة بين فترة النهوض في الستينات وفترة الكبوة في الثمانينات. فاقترحنا على راسم بدران أن يشارك وكانت المقارنة بين حقبتين وبين منهجين، أقول مع شيء من الثقة أن الجادرجي يمثل مدرسة تحاول أن تكون مبدعة فيها جهد فكري وقراءة عميقة في تفاصيل العمارة في العراق. من التراث المتراكم في حضارات ما بين النهرين حاول صهر التراث بالحداثة. أما مع راسم بدران فكنا نريد أن نعكس لغة أخرى لأن ما يميز بدران مهارة يدوية خارقة وقدرة نادرة على قراءة التفاصيل وفهم

عميق لدور هذه التفاصيل في تكوين العمارة العربية التراثية. فطرح مقولة الإبداع بلغة جديدة ولكن مع الأسف لم يساعدنا راسم بدران في ذلك واستطعنا أن نحقق نصف طموحنا الفكري.

بالعودة إلى المؤتمر ذاته يمكن بعد هذا العرض، أن نفهم القيمة الفكرية للمؤتمر. بمحاوره أولاً أردنا أن نسلط الضوء على حلب في التاريخ وعلى التاريخ في حلب بتعدد المتكلمين في هذا الموضوع، ومن ثم بتسليط الضوء على دور المدينة التاريخية في صنع المدينة المعاصرة ووصولاً إلى التصدي إلى إشكالية كبرى هي إشكالية الهوية انطلاقاً من حلب نموذجاً، طارحين الفكرة الأساس.

هل نجح المعمار الحلبي في إنتاج عمارة أصيلة لها هوية؟ إذا كان الجواب بالنفي ما هي المعوقات؟ وكيف ننظر إلى عمارة المدينة؟

هذه كانت أحدى مفاصل المؤتمر، وفي سياق زيارة المدينة كانت المشاهدة لصالح العمارة الموروثة إذ بدت المدينة القديمة أكثر تماسكاً من العمارة الحديثة. هناك جهد تخطيطي في حلب يحدد المواد وعدد الطوابق والوجيبة (النظام العمراني). هذا النظام العمراني أعطى للمدينة شيئاً من التجانس، شيئاً من الألفة، من الاقتراب من الناس، لا تقطع بشكل فج ثقافتهم وتاريخهم. إلا أنها في الوقت نفسه كثيرة التزيين والزخرفة والإضافات غير المفيدة، كما عرضت في

جلسات المؤتمر فبدت كثيرة الانتقائية وكثيرة المزج، وفيها ثقافة معمارية واضحة.

ولكن قراءة المدينة القديمة مذهلة. فتفاصيلها مدهشة بجمالها وإتقانها وحرفيتها ومدهشة بموقعها في العمارة فهي أحد مكوناتها إن لم تكن المكوّن الأساس. بالطبع كان المؤتمر البوابة التي دخل منها أناس المهنة والعاديون إلى تفاصيل المدينة فأحبوها مرتين مرة لاسمها وتاريخها ومرة للمعرفة الحسية اليومية بالحدث المعماري.

بالعودة إلى المؤتمر، الحضور كان مدهشاً والاهتمام والمشاركة بأوجهٍ متعددة، هذا سائلاً، وذاك مصوراً، وذاك مشاركاً. كان الاهتمام حقيقياً لا زيف فيه وأنا أعتبر أن المؤتمر كان حدثاً ثقافياً عبر الاهتمام والحضور. المؤتمر كان بالإضافة للقاء المعماريين العرب وهو الهدف الأساس إذ إنه في النظام الأساسي على الهيئة أن تعمل على جمع المعماريين العرب والتعرف إلى الكفاءات المعمارية العربية في جهد موحد لحماية الإرث المعماري العربي وتعريف الناس به. ومن هذا المنظار أعتقد أن انعقاد المؤتمر في حلب لم يكن إطاراً فكرياً لحلب فقط بل للمعماريين العرب كلهم، ولم يكن نشاطاً ثقافياً ارستقراطياً بل كان حدثاً ثقافياً ذا صلة بقضايانا الكبرى المطروحة اليوم.

كان في قلب التضامن والدعم الكامل للشعب

الفلسطيني، كان في صلب القضية الفلسطينية والقضية اللبنانية والقضية العراقية. إن هذا الحضور للقضايا العربية الكبرى، ليس إقحاماً للسياسة في العمارة، فالعمارة هي منتج اجتماعي والاحتلال في العراق ابتدأ بتدمير التراث العراقي ليجرد الشعب من ذاكرته، لأن الإحتلال يعرف قيمة التراث في قلب الناس وفكرهم. كنا حاضرين في القضايا الكبرى، مثل تدمير بنت جبيل وعيتا الشعب. فالقضية من صلب العمل الثقافي للمعماريين.

كان المؤتمر وسيلة للتعريف بنشاطات هيئة المعماريين العرب

ـ ففي نشرة المعمار العربي التي وزعت (اربعة أعداد) نجد كل نشاطات الهيئة.

ـ كتاب وقائع أعمال المؤتمر الأول "القدس الآن المدينة والناس".

ـ لقاءات متعددة مع العديد من الأطراف العربية والسورية لشرح النظام الأساسي للهيئة ولتوضيح نشاطاتها بما يساهم في تحسين وضعها.

ـ جلسة صياغة الإعلان كانت أهم جلسة في المؤتمر لأنها كانت محصلة لمجموعة النشاطات الفكرية التي جرت خلال أعمال المؤتمر.

أرادت الجلسة بالإعلان، تلخيص الموضوعتين الرئيستين

التراث والمعاصرة محاولة طرحها بشكل ملموس عبر تعريف المعاصرة محاولة القول بأنه لا توجد روح واحدة للعصر بل هناك "أرواح" مرتبطة بقضايا الناس في أمكنة معينة.

عبر هذه الرؤية، صغنا مشروع الإعلان من مقدمة وعشرة بنود تتناول انعقاد المؤتمر وبعض التعاريف وصولاً إلى التعليم ودوره في الثقافة المعمارية.

كان مشروع الإعلان القضية التي نوقشت أكثر من أية قضية أخرى، ومن ثم جمعنا ما لا يحصى من المداخلات الخطية. وسوف تعاد صياغة الإعلان في ضوء التعديلات التي اقترحت عليه وستصدر وقائع المؤتمر بالإضافة إلى الإعلان في كتاب.

حلب 16 تشرين الثاني 2006
من كتاب "حلب بين التراث والمعاصرة"

9

إعلان حلب

حول التراث المعماري العربي، والمعاصرة

أولاً - المقدّمة

عقدت هيئة المعماريين العرب مؤتمرها الرابع في حلب، المعلنة عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 1427هـ - 2006م، أيام 14 و 15 و 16 تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة نفسها، تحت عنوان "حلب بين التراث والمعاصرة" وذلك في جامعة المدينة، وبرعاية وحضور السيد رئيس الوزراء المعمار محمد ناجي عطري. وتتابع الهيئة، بهذا الحدث، بحثها المثابر عن الإجابات المقنعة والمفيدة فيما يخص إشكاليات المعاصرة والتراث، وعن جدليات التقدم وروح العصر والتنمية المستدامة، وفي ماهية العناصر المؤثرة في العمران المتوازن والعمارة الملائمة.

ويتأكد مجدداً أن حلب العريقة تتابع، باحتضانها هذا

الحدث الهام، دورها الريادي في طرح الحلول المناسبة لمشاكل الحضارة العربية والإسلامية على مرّ تاريخها. ولا عجب في ذلك، فاسترجاع بلادنا من الاحتلال الغربي، الفرنجي أواسط القرن الثاني عشر الميلادي، بدأ من حلب أيام الزنكيين بعد وحدتها مع الموصل، وتتابع بمعونتها مع الأيوبيين، بعد تنسيقها مع مصر، ولردح غير قليل من الزمن.

وما الزمن الحالي إلا ترداد لما حدث تلك الأيام بوسائل أخرى ولأهداف متشابهة. والتصدي الفاعل، للتحدي الحضاري الذي نواجهه اليوم، يتم بأوجه متعددة وبعنوان واحد هو المقاومة.

ويشكل "إعلان حلب" حدثاً مقاوماً ناظماً للأبعاد الأخلاقية القيمية والمعيارية، التي لا نفهم العمران والتطور إلا من خلالها.

ثانياً - الإعلان

-1- يُحيِّي المؤتمرون إختيار حلب، عاصمةً للثقافة الاسلامية للعام 1427 هـ الموافق للعام 2006 م.

-2- ويعتبرون أن اختيار حلب مكاناً وموضوعاً للمؤتمر الرابع لهيئة المعماريين العرب، يعود إلى مكانة حلب الفريدة في تاريخ المنطقة منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كما يعود إلى الأهمية البالغة للمدينة التاريخية فيها. اهمية مساحتها

400 هكتار محافظٌ عليها، واهمية الإرث المبني فيها.

-3- ويشيدون بمدينة حلب نموذجاً حياً للمدن العربية الإسلامية. فالمدينة التاريخية، فيها هي أكبر مدينة عربية إسلامية متواصلة الوجود حتى يومنا هذا. إنها مدينة حية، ديناميكية، فاعلة في محيطها المباشر وفي سورية، وفي المنطقة بكاملها.

-4- ويؤكّدون، أن العمران التاريخي في حلب، والعمارة العربية الاسلامية فيها، يعكسان بأمانة وصدق، التحولات التاريخية التي مرت بها المدينة في العصور الاسلامية المتلاحقة والمتواصلة.

-5- ويرون أن الإرث الثقافي في حلب، عمراناً متضامّاً كثيفاً وعمارة أصيلة غنية بمفرداتها وبثروتها الرمزية والجمالية، إنما يعكسان بصدق وأمانة مرة أخرى، بنية المجتمع الاسلامي في تحولاته الكبرى. وقد أراد هذا المجتمع، أن يعبّرعن ذاته دائماً ورغم كل المتغيرات، بكونه مجتمعاً متراصاً، متعاضداً، فيه وحدة وتكامل بين كل مكوناته.

-6- ويؤكدون أن هذا الإرث في العمران وفي العمارة، هو ثروة حضارية نادرة، ومرجعية ثقافية لا غنى عنها، تستدعي كل الاهتمام وكل الدراسة. وهي تستدعي بالتأكيد التعريف بها، بكونها جزءاً هامّاً وفاعلاً في الحضارة الانسانية في العالم بأسره.

-7- ويعتبرون، إلى أن الكثير من التيارات المعمارية المعاصرة، والتي تزدهر اليوم مع تراجع فكر الحداثة في العمارة الذي يدَّعي كونيَّتها وشموليتها،

تلك التيارات التي تعنى بالبحث المتعدد المنابع عن العمارة لصيقة المكان، والعمارة الاقليمية المناطقية، والعمارة المناخية، والعمارة الإيكولوجية، والعمارة البيئية، والعمارة المستدامة... وغيرها،

إن كل هذا الحراك في ميدان التفتيش عن الابداع والخصوصية في العمارة، إنما يمكن أن نجد له ما يفيده ويغنيه في العمارة العربية الاسلامية الموروثة، لأن في هذه العمارة عناصر حية، يمكن توظيفها بفاعلية في عمارتنا المعاصرة.

-8- ويؤكدون أنه وربما وجدنا في هذا الشكل من التواصل الحي، ما يساعد على سد الفجوة السحيقة بين الإرث المبني، والمعاصرة. إذ غالباً ما تكون العمارة المعاصرة بليدةً، قبيحةً، ومدِّمرةً.

-9- ويؤكدون أن روح العصر، لا تحدِّدها السطوة الفجّة للرأسمال المتوحش على قطاع البنيان، والذي يُحّول العمران والعمارة إلى استثمارات عقارية صافية لا علاقة لها بالمكان وبناسه، ولا مكان فيها لأي إبداع إنساني حقيقي.

بل أن روح العصر تتأكد، من خلال الفهم العميق

للمكان حيث تقوم العمارة، هذا الفهم الانساني للمكان، بناسه، وبمقوّماته، وبإمكاناته المتاحة، في كل الميادين.

-10- ويشدِّد المؤتمرون على ضرورة الحفاظ على هذا الإرث الثقافي المبني عمراناً وعمارة، وحمايته وتوظيفه في الحياة المعاصرة، بما يساعد في إيجاد تنمية إنسانية حقيقية وشاملة.

-11- ويثمِّنون عالياً تجربة حلب الفريدة في هذا المجال.

-12- وإذ يحيِّي المؤتمرون اختيار كلية العمارة في جامعة حلب مكاناً لانعقاد المؤتمر، فإنهم يجدون في ذلك إشارة قوية إلى أهمية تعليم العمارة، وأهمية جودته، وأهمية البحث العلمي في الموضوع الحيوي الذي يشغلنا.

-13- ويتمنَّون على كل الجامعات والمعاهد المعنية في كل البلدان العربية، إيلاء هذا الموضوع الاهتمام والمجهود اللازمين.

حلب 16 تشرين الثاني 2006

من كتاب "حلب بين التراث والمعاصرة"

10

ما هو التاريخي التراثي في مدننا؟ ولماذا نحافظ عليه؟

I ـ المدن التاريخية في التعريف.

ما هي المدن التاريخية في التعريف؟ وما هو التراث؟ وغالباً ما نجد المفردتين، في عناوين ندواتٍ متخصصة، تسلّط الضوء على التحديات التي تواجه المدن التاريخية والتراثية، وأخرى، تطرح إشكاليات الحفاظ على التاريخي التراثي المتبقي في هذه المدن. وما يهمنا نحن المعماريون العرب من البحث في هذا التعريف، وبعيداً عن أي ادعاءٍ معرفي معمَّقٍ في علم التاريخ، هو وعينا، بأن كل المكتشفات الأركيولوجية منذ نشأة هذا العلم حتى يومنا هذا، تؤكد أن منطقة الشرق الأوسط العربي، هي المهد الأكيد الذي شهد ولادة المدن الأولى في التاريخ.

فمنذ الألفية الرابعة قبل الميلاد، في الجنوب عند ملتقى

نهري دجلة والفرات، وإلى الشمال في منطقة الوسط بين النهرين، أي في ما عرف بمنطقة الميزوبوتاميا، تكونت مجموعاتٌ مبنيَّةٌ، تميَّزت بأنماطٍ من "التنظيم المديني" يحدِّد وسَطَ هذه المجموعات، بصفته مركزاً يشكِّل قلبها، فيه مبانٍ دينية وأخرى مدنيَّة مختلفة، من بينها مباني الحكم.

وفي الألفين التاليين، وربما قبل ذلك، انتشر هذا "التنظيم المديني" في معظم أرجاء المنطقة، فنشأت مدنٌ كانت عواصــمَ لتنظيمات اقليمية مثل سومر، وبابل، وإبلا، وأخرى تجارية على الشاطىء الكنعاني - الفينيقي في جبيل (بيبلوس)، وأوغاريت، وصور، وغيرها، ليصل بعد ذلك إلى المدن المعابد في وادي النيل، مثل ممفيس والكرنك.

وإذا كان بعض هذه المدن قد تحوَّل إلى أطلالٍ، فإن حالاتٍ من الإستمرار العنيد ما تزال تُشاهد اليوم في دمشق، وجبيل (بيبلوس)، وصور، وغيرها. ومن عناصر الاستمرار المميزة، هو البيت المكعَّب المنَّظم حول فناء داخلي مفتوح تدخله السماء، وهو نموذج من السكن انتشر خلال العصور القديمة في كافة أرجاء الشرق الأوسط العربي، ولا يزال يوجد بكثافة حتى يومنا هذا.

وفي زمن قصير نسبياً، لم يتعدَّ القرن الواحد إلا بقليل، انتشر الإسلام حتى وصل إلى اسبانيا والهند. ورافق هذا الانتشار، إزدهارٌ مديني قلَّ نظيره. ومهما كانت النِظرة إلى هذا الإزدهار المديني، في أصوله وميزاته، فالمؤكد أنه قرابة نهاية الألفية الميلادية الأولى، كان في الوطن العربي،

المجموعة المدينيَّة الأكثرُ عدداً في العالم. إذ كان فيه آنذاك، ما يقارب العشرة مدن التي يتعدَّى عدد سكَّانها ماية الف نسمة.

● ففي مشرق الوطن العربي، شُيِّدت على التوالي، البصرة في العام 635 م، والكوفة في العام 638 م، والفسطاط التي بناها عمرو بن العاص في العام 641 م، وكانت النواة الأولى لبناء القاهرة.

● أما في المغرب العربي، فبنيت القيروان في العام 670 م وقد بناها عُقْبة بن نافع، وبعدها المونستير وسوسه والمهديَّة. واستمر الحراك باتجاه الغرب، فبُنيت فاس في العام 810 م، ومرَّاكش في العام 1070 م. هذا في مجال المدن الجديدة. مع التأكيد بالطبع، على التطور المديني الإستثنائي الذي شهدته مدن المشرق العربي العريقة، مثل حلب، ودمشق، والقدس، وانطاكية، (التي كانت لنا)، وغيرها.

لقد شكَّلت التعاليمُ، والقواعدُ العامة للسلوك، التي أرساها الإسلام في حياة الناس، الأُسسَ التي قامت عليها حياةٌ مدينيةٌ جديدة. وأنحازُ دون تردُّد، إلى الموقف الذي يرى أن هذه المدن العربية الإسلامية، تجسِّد بحقٍّ، طابعاً خاصاً مميزاً، ونموذجاً أصيلاً، لما ستكون عليه، المدن العربية الإسلامية، التي تألقت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.



بيروت - المرفأ و خان أنطون بيك
أوائل القرن العشرين - فؤاد دباس

خان أنطون بك

لقد ارتكز هذا النموذج المديني العربي الإسلامي، على قراءة ترى، أن تنظيم المجال مدينياً، يقوم على مركزٍ لا تشيَّد فيه إلا المباني العامة بشقيها الديني والمدني، بالاضافة إلى مباني الحكم. أما المناطق السكنية فتتوزَّع في الأطراف، محدَّدة بطرقٍ تربطها بالمركز. إن في هذه القراءة رؤيةً لاستمرار موروثٍ مدينيٍّ عربي في المدن الاسلامية الجديدة، آت من اليمن ومن الحجاز. والصفةُ التاريخية لهذه المدن، تقوم على ركائز ثلاث:

● **الأولى**: أنها نماذج لمدن تاريخية قطعت مع النماذج المدينية القائمة في زمنها، وأسَّست لنماذج مدينية جديدة واضحة الأصالة.

● **والثانية**: أن أجزاء هامة منها، استمرت عبر التاريخ، ووصلتنا بخاصيَّاتها على الرغم من كل التحدّيات.

● **والثالثة**: أن الناس يعيشون اليوم في هذا الإطار التاريخي الموروث. إنها أمكنةٌ مميَّزة للسكن، وللنشاط الاجتماعي المتعدد الأوجه.

فالأهرام آثارٌ، والبتراء أثرٌ، وقلعة حلب أثرٌ.

أما القاهرة القديمة حيث يعيش ويعمل ما يزيد عن مليون نسمة، وحلب القديمة حيث يعيش ويعمل كُثرٌ أيضاً، وصيدا وطرابلس القديمتان (في لبنان)، إن هذه الأجزاء من المدن، هي أجزاء مدينية تاريخية بامتياز.

II ـ التراث، والتراثي.

أما التراث في اللغة العربية، فهو ما يخلّفه الإنسان لورثته. وأصل الكلمة وُرثٌ أو وُراثٌ (بضم الواو)، فأُبدلت الواو بالتاء وصارت تُراثاً. والتراثُ في لغة العرب مرة أخرى، يُطلق على ما نرثه من الأجيال السابقة .والتراث الحضاري، هو مجموع ما ورثناه من منجزاتٍ مبنيَّةٍ، ومن أفكارٍ ومفاهيمَ وقيمٍ وتقاليد، تشهد كلُّها على نِظْرةٍ من سبقونا إلى الحياة، وموقفهم منها. تراثٌ ماديٌّ، من مبانٍ وأدوات ومنقولات وغير ذلك...، من جهة، وتراث معنويٌّ روحيٌّ انطبع في وجدان الناس، من جهة أخرى.

والتراثُ المديني والمعماري، هو الإرث الحضاري لمجتمع ما. فالمدينة، والعِمارة، هما مرآة هذا المجتمع، وتجسيدٌ له. والإرث هذا، هو وثيقةٌ تاريخية، وحقيقة ثقافية.

وانطلاقاً من هذه القيم، تُحدَّدُ مكانةُ أجزاءِ المدن التاريخية والتراثية في حياة الناس، وتَتحدَّد أساليبُ التعامل مع هذه الأجزاء، وسياساتُه. وكلُّ ما نقوم به، يهدف إلى إطالة حياة هذا الإرث الثقافي الهام، لنُبرزه، ونؤكّد قيمته الحضارية لنا، وللإنسانية جمعاء. فنحافظُ عليه، أي نمنعُ تدهوره نتيجة الظروف المناخية، أو نتيجةً لتصرفات الناس، ونهتمُّ بإبراز تميُّزه، وفرادة حضوره في الثقافة الإنسانية،

ونجعله موضع عناية وقائية مستمرة تطالُ النسيجَ المبنيَّ وكلَّ ما يحوطه في المكان. إن هذه المقاربة تفترضُ منهجاً يقوم على مناسيبَ ثلاثة:

● **الأول:** **المحافظةُ على هذا الإرث الثمين،** نحميه من أي تغيير قد يهدِّده، ونُبعد عنه التعديات والأخطار.

● **والثاني:** **ترميمُه،** مدركين بدقَّة، التراكم الظاهر فيه، عبر اجتيازه مراحل تاريخيةٍ متعاقبة، حملت كلُّ مرحلة منها طابَعَها الخاص، وعِمارَتَها لغةً ومفردات.

● **والثالث:** **تأهيله وإعادة استعماله،** مع تحديدٍ دقيق للإستعمالات الجديدة الممكنة له، وللتغييرات المقبولة فيه، والتي قد تتطلَّبها الإستعمالاتُ الجديدة.

III ـ بأية حال وصلتنا الأجزاء التاريخية في بعض مدننا؟

معظم المدن الهامة إذاً في الوطن العربي مشرقاً ومغرباً، هي مدنٌ تاريخيَّة، انتقلت إلينا أجزاؤها كما كانت عليه عند تشييدها، حاملةً معها تحولاتٍ مدينيةً متواصلة لا قطع فيها. وظلَّ مركزُها قلبُها يقوم بوظائفه الثلاث التي أنشىء من أجلها، وهي الوظائف الدينية، والمدينية التجارية، ووظيفة الحكم. إذ نجد في مراكز معظم هذه المدن، الجامع الكبير ومساجد أخرى أصغر منه، ومباني الحكم، والأسواق. ومن

هذا المركز تنطلق الطرقات المستقيمة أحياناً، والمتعرِّجة كالمتاهات أحياناً أخرى، إلى الأحياء السكنية في الأطراف. وتميَّزت الأجزاء التاريخية هذه، بخاصياتٍ عديدةٍ هي ثمرةُ تكاملها مع بيئتها الطبيعية والثقافية. إنها خاصياتُ الأصالةِ والإنتماء، التي لا تزال واضحةً إلى الآن، أذكر بعضَها مكرِّراً:

• تمركزُ النشاطات التجارية في الأسواق التقليدية وحولها.

• تواصلُ النسيج المبني كثيفاً ومتلاصقاً، مما جعل الأجزاء التاريخية من المدينة، مجالات للمشاة.

• ديمومةُ الدلالات على الطابع الإسلامي للمدينة، يعبِّر عنه تعدُّد المساجد، والمدارس، وبعض مكمِّلات العبادة، مثل أقنيةِ المياه والنوافير.

• وتعدُّدُ الإجاباتِ المبدعةِ في التنظيم المديني وفي العِمارة، والتي تُعالج مسألة الحرارة الحارقة في الأمكنة.

ـ ومن هذه الإجابات، ضيقُ الدروب وتعرُّجُها، بما يؤمِّن تعدُّد الفُسحات المظلَّلة، وحمايةَ الواجهات من أشعة الشمس من جهة، ويسمح للهواءِ وقد انخفضَت حرارتُه ليلاً، بالإحتفاظ بهذه الحرارة المنخفضة خلال الساعات الأولى من الصباح، من جهة أخرى.

ـ ومن هذه الإجابات أيضاً، الأفنيةُ الداخليةُ المفتوحة، التي تشكِّل رُبع المساحاتِ المبنيَّة، وإبتكارُ وسائلَ إضافية

للتهوئة، مثل ملاقف الهواء تعلو فوق السطوح، كما في بعض مدن الخليج العربي العتيقة.

● والاستعمال المنهجي للسطوح المسوَّرة، كملاحق للسكن خلال فصل الصيف.

إلا أن الإحتلال الكولونيالي حَّل عندنا باكراً. في الجزائر في العام 1832، وفي عدن في العام 1837، وفي أوائل العشرينات من القرن الماضي أي مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، (في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، والعراق) وغيرها في المشرق والمغرب العربيين. قطع الإحتلالُ الكولونياليُّ بشكلٍ فجٍّ التطور الطبيعي لمدننا الذي استمر متكاملاً مع بيئتها الطبيعية والثقافية قروناً، وأسقط فوق النسيج المبني التقليدي لهذه المدن، تنظيماً مدينياً مستورداً صمَّمه منظِّموا المدن الذين جاؤوا معه.

ـ فحاصر مدينة عدن التاريخية (كريتر كما سمِّيت)، في موقعها الطبيعي لصيقة الصهاريج حيث تُجمع مياهُ الاستعمال من السيول الموسمية، وبنى مدينته ممتدة على طول الواجهة البحرية.

ـ وهدم أجزاءً كبيرة من النسيج التقليدي المبني في بيروت، وبنى فوق الركام مدينةً كولونياليةً مستوحاةً من النمط الهوسماني الباريسي في شبكة الطرقات، وفي العِمارة.

ـ وكان القطعُ الفجُّ في تواصل النسيج المبني المديني

من نصيب تونس (العاصمة)، والجزائر (العاصمة)، والدار البيضاء، ودمشق، وحلب، وغيرها من مدننا التاريخية.

ـ وفي لهاثها وراء الحداثة بعد الاستقلال، لجأت السلطاتُ المحليَّة، إلى منظِّمي مدنٍ من البلدان التي كانت تستعمُرنا. جاء أيكوشار، وإيغلي، وبانشويا، ودوكسيادس، وغوتون، وغيرهم كثرٌ. جاؤوا حاملين ميثاق أثينا الذي صاغه المعمار الفرنسي لوكوربوزييه، ومخطَّطات التنظيم المديني المعروف "بالحديث" ومعهم الجَّرافات، ليحوّلوا مدننا إلى أرض محروقة، يقيمون فوقها مدناً تنقلنا إلى "جنَّة الحداثة"، والتي ما زلنا إلى اليوم، نلهث للحاق بها، وإن بعد سقوطها.

إلا أن مقاومة محليَّة عنيدة انتصبت هنا وهناك، واستطاعت أن تحدَّ من النتائج الكارثية لهذه المخططات، وتَّمت المحافظة على أجزاء هامة من مدننا التاريخية. وكل الأرقام التي ستلي، هي ارقامٌ تقريبية أذكرها للدلالة فقط،

● ففي تونس مثلاً، تغطِّي المدينة القديمة (القصبة) وبعض ضواحيها، مساحة تقدَّر بمايتين وسبعين هكتاراً، ويسكنها ويعمل فيها ما يقارب مايتا ألف نسمة. وقد تمكنت "جمعية الحفاظ على المدينة القديمة" التي أنشئت في العام 1967، بالتعاون مع اليونسكو، من التصدِّي لمخططات التهديم الكارثية، فحمت المدينة القديمة وسَّجلتها في لائحة التراث المبني العالمي.

● ثمة حالة مشابهة في مدينة حلب، حيث تُغطي المدينة

القديمة مساحة تصل إلى حدود الأربعماية هكتاراً، تتجاور فيها بحضورٍ مدهشٍ، المعالم المعمارية الزِنكيَّة، والأيوبيَّة، والمملوكية، والعثمانية. لقد سُجِّلت المدينة القديمة في لائحة التراث المبني العالمي، ولم ينفَّذ من المخطَّطات الكارثية، سوى مشروع باب الفرج، وهو موضع نقد شديد في حلب اليوم.

● وفي فاس في المغرب، سُجِّلت المدينة القديمة منذ العام 1976 على لائحة التراث المبني العالمي. وتبلغ مساحتها ست ماية هكتاراً، ويعيش فيها مايتان وخمسون ألف نسمة تقريباً، من أصل مليون ونصف يسكنون فاس بكاملها.

● وقد سُجِّلت القاهرة التاريخية على لائحة التراث المبني العالمي في العام 1979. وهي نموذج حي عن تراكم تاريخي، لحقبات مختلفة في الحضارة الاسلامية، إذ نجد فيها المعالم المعمارية الفاطمية، والإيوبية، والمملوكية، والعثمانية. ويبلغ عدد هذه المعالم ست ماية معلماً، وعدد السكان التقريبي في القاهرة التاريخية يبلغ مليون نسمة.

● وفي الجزائر العاصمة، تشكِّل المدينة القديمة أي (القصبة) نواة المدينة بكاملها. وقد شُيِّدت على تلة منحدرة تُشرف على البحر فيها ألف وسبع ماية مسكنٍ، منها ألف وماية مسكناً، تعود إلى الحقبة العثمانية، يسكنها حوالى سبعون ألف نسمة.

● أما في بيروت، فتقدَّر مساحة بيروت التاريخية بماية وعشرين هكتاراً، وقد هدَّم الكولونياليون أجزاء كبيرة منها، وعبَّدوا شوارع جديدة حملت أسماء كبار الضباط، غورو، وفوش، وكليمانصو، واللنبي، وويغان، وسبيرز وغيرهم. وبنوا بمحاذاة هذه الشوارع، مدينة كولونيالية جديدة على الطرز الهوسماني، الذي ساد في باريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وانتشر في أوروبا كلها. وجاءت سوليدير وهدمت خمسة وثمانين بالماية من قلب بيروت التاريخي، أي كل ما تبقى من الإرث المملوكي والعثماني، وهجَّرت ماية وخمسة وثلاثين ألف نسمة كانت تعيش أو تعمل فيه.

IV ـ لماذا نحافظ اليوم على الأجزاء التاريخية المتبقية في مدننا؟

لماذا نحافظ اليوم على الأجزاء التاريخية المتبقية في نسيج مدننا؟ والتي تكاد تضيع وسط النسيج المعاصر المتمدِّد بلا حدود، وغالباً بلا طابع، وبلا هوية.

نحافظ على هذه الأجزاء التاريخية، لأنها جزءٌ هام من تراثنا، من الإرث الثقافي المادي والمعنوي الذي وصلنا، بعد أن اجتاز قروناً من التحولات العميقة. نحافظ عليه بعد التغيير في المفاهيم المتعلقة بتعريف التراث، منذ ميثاق

البندقية (فينيزيا) الذي صدر في العام 1964، وتأسيس الإيكوموس (المجلس الدولي للمعالم والمواقع)، الذي أنشىء في العام 1965، والمواثيق الدولية الأخرى التي تلت ميثاق البندقية، مروراً بميثاق واشنطن الذي صدر في العام 1987، ووصولاً إلى ميثاق السياحة الثقافية الدولية، الذي أُقِرَّ في المكسيك في العام 1999.

● لم يعد التراثُ، بعد تطور المفاهيم حِكْراً على المنشآت الإستثنائية، التي تحتل موقع "النخبة" في فعل البنيان. فهو أيضاً مبانٍ أكثر تواضعاً، أمضت فيها أجيالٌ سبقتنا كلَّ حياتها أو جزءاً منها، وتركت شواهدَ على مرورها فيها.

● لم يعد التراث معالم فردية فقط، وصروحاً مميَّزة، بل اصبح أيضاً مجموعاتٍ من المباني تمَّ الحفاظُ عليها بقرارٍ أو بالصدفة. وهي جزءٌ من نسيجٍ كوَّن شبكةً متينةً، ومجموعةً فريدةً، تشكِّل بذاتها، شهادةً بليغةً على طرق البناء وأنماط العيش، في مدنٍ وريفِ الأزمنة السابقة.

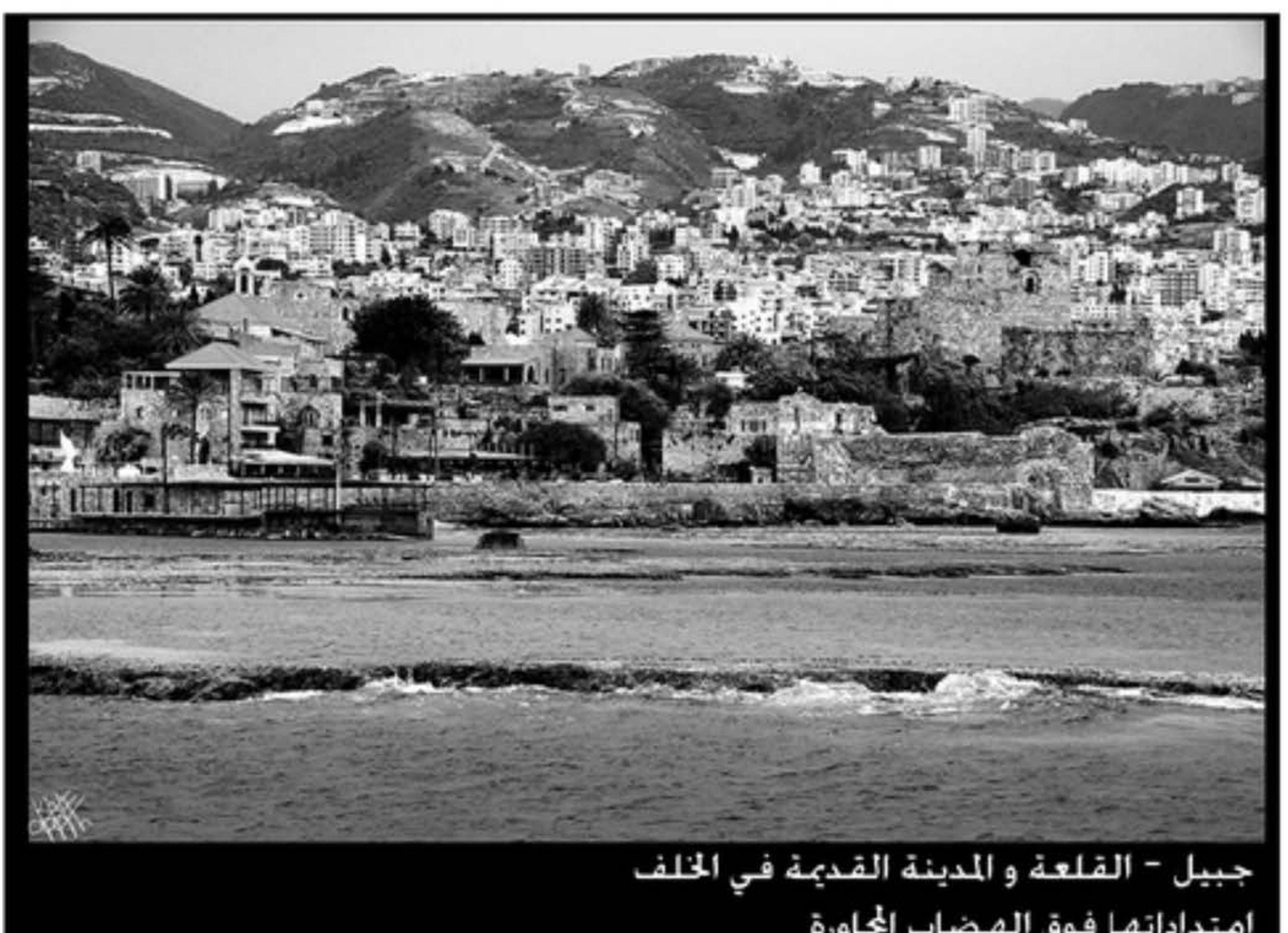
الأجزاء التاريخية في مدننا هي تراثية بامتياز، إنها جزء هام من الإرث الأصيل، ولهذا الإرث قيمٌ متعددة. لذلك ندافع عنه ونجهد للمحافظة عليه بكل الواسائل، دفاعاً عن القيم التي تتجسَّد فيه.

● وأولى هذه القيم هي القيمة الجمالية: فمن السهل التأكيد أن القصورَ والدورَ في فاس ومرَّاكش هي مبانٍ جميلة.

وأن الجامع الأموي في دمشق، وجامع عُقبة بن نافع في القيروان، هي مبانٍ جميلة أيضاً. ومن البديهي القول إن الدور السكنية في حلب، والمساكن العتيقة في دمشق، في بيروت وفي القاهرة، هي مبانٍ جميلة. ومن البديهي الجزم، أن النسيج المبني في مدننا سوف يكون رتيباً مملاً مضجراً، إذا أزيلت منه كلُّ الأعمال المعمارية الرائعة، والتي أُنفق فيها المزيد من الوقت، والمزيد من الخبرة والمهنية، بحيث أُضيف إلى القيمة الإستعمالية لهذه المباني، هذا الجزء من الروح الخاصة، وهي القيمةُ الإستاتيكية أو الجمالية.

المسألةُ الأولى في الحفاظ على التراث، هي الحفاظ على الجمال الذي يختزنه.

● **القيمة الثانية، هي القيمة التاريخية:** التراث الصرحي أو العادي، هو شهادةٌ من الماضي. إنه استمرار الماضي في الحاضر، ومصدر معرفته، وهو بالتالي قيمةٌ تاريخية. ومعرفةُ الماضي هي ضرورةٌ لتوازن المجتمع. لن نكون عرباً إذا لم نفهم تاريخنا العربي الإسلامي، بكل ما أُنتج فيه، وبكل الأفعال الإبداعية التي تراكمت في هذا التاريخ الطويل، وتركت أثراً أكيداً في الإنسانية جمعاء. لنتصور ولو للحظة، أن جامع أحمد ابن طولون في القاهرة قد زال من الوجود، أو أن قصور مرَّاكش وفاس ابتلعها زلزالٌ عنيف. إن صفحاتٍ كاملة من تاريخ منطقتنا لا بل من تاريخ البشرية، ستزول لو زالت هذه المعالم.



جبيل - القلعة و المدينة القديمة في الخلف
امتداداتها فوق الهضاب المجاورة

جبيل ـ القلعة ـ المرفأ

التراثُ التاريخي، هو مصدرُ رئيسٌ لمعرفة تاريخنا، أي لتاريخ البشرية جمعـاء.

أن نُزيل هذا التراث - التاريخ، هو أن نَمحي من ذاكرتِنا، ومن ذاكرةِ الإنسانية جمعاء، صفحاتٍ ضروريةً لفهم هذه الذاكرة، ولتقديرها بشكل صحيح، لأن كل تصرفاتنا وقراراتنا ترتكز على ثراء ذاكرتنا.

● القيمة الثالثة هي القيمة المدينية والمعمارية: أخشى التكرار إذا قلت، أن في التنظيم المديني في حلب التاريخية، وفـي دمشق، وفي تونس العاصمة، وفي غيرها مـن الأجزاء التاريخيـة فـي مدننـا، في التنظيم المديني هذا، تلتقي عبقرية التأليف مع عبقرية المكان، فتُنتِجُ هذا الكلَّ المتكاملَ، واسمُه التنظيم المديني التقليدي التراثي، والعمارة التقليدية التراثية.

لن أكرر ما قلتُه حول الدروب المتعرِّجة وما تُنتجه في تنظيم المجالات.

ـ سأكتفي بالإشارة، إلى المفاجآت الحلوة، التي تصادفها وأنت تسير في الدروب، وفي المتفرِّعات تُخرجك من الدرب الرئيس إلى مساراتٍ مقفلة توصلُك أحياناً إلى أبواب البيوت، أو تُعيدُك إذا سلكتها، الى الدرب الرئيس الذي انطلقت منه.

ـ سأكتفي بالإشارة إلى الجدران الصماء تنبت من البلاط الذي تسير عليه. الدربُ مليء بالمارة، تحوطك الجدران

وكأنها لوحة تجريدية تنظِّمها برؤيةٍ راهنة الأبوابُ المتباعدة، والنوافذ الصغيرة، والمشربيات الخشبية الناعمة.

ـ سأكتفي بالإشارة، إلى إيقاع أبواب المساجد في امتدادٍ لا يزيد عن بضعة مئات من الأمتار. بابُ المسجد من الحقبة الزنكية هنا، وبعده بامتارٍ معدودة، بابٌ لمسجدٍ آخر من الحقبة الأيوبية، يليه بعد أمتار قليلة، بابٌ لمسجد من الحقبة المملوكية. الدلالاتُ كلها واحدة، وارتفاع الأبواب يكاد يكون واحداً. إلا أن الزخرف المحفور في خشب الأبواب مذهلٌ في اختلافاته، وتنوُّعاته. ويختلف الأمر عند وصولك إلى درب فرعــي ضيق. تدخُله، تصعدُ درجاً في فُتحةٍ يتدفَّق منها ضوء النهار شلَّالاً، فيوصِلُك الدرجُ إلى فناء فسيح مشجَّرٍ في أطرافِه، وفي الواجهة أمامك مسجدٌ جميلٌ من الحقبة العثمانية. إجتزتَ في التاريخ قروناً، في مسيرةٍ هادئةٍ قصيرة، في دربٍ تنظِّم بياضَ جدرانه على الجانبين، الأبوابُ، والنوافذ المزيَّنة، والفتحات الصغيرة.

ـ سأكتفي بالإشارة إلى الفناء الداخلي في بيت دخلتُه. الفناء مبلَّط، أطراف الفناء يرسُمها بلاط مزيَّن. في وسطه نافورة ماء، وفي أحد أطرافه شجرةٌ باسقةٌ وحوضُ زهور. وكأن في هذا التأليف روحاً تزرع الحميمية والدفء، في العلاقات بين أفراد الأسرة التي تسكن البيت.

● القيمة الرابعة، هي القيمة الإجتماعية: تناولتُ في فقرات سابقة، الأجزاء التاريخية التراثية في مدننا، ورأيت

فيها نسيجاً مبنياً فريداً في أصالته، كما رأيت في عمارته، عمارة مميزة أيضاً. وأسهبتُ بعد ذلك في الكلام عن قيمته الإستاتيكية، عن جماله. وتوقفتُ عند واقعٍ هامٍ يُفيد، بأن هذا النسيج الجميل ليس أطلالاً مهجورة، أو خَراباً تسكنه الغربان، أو مجموعةً من المباني، موجودةٌ لأهدافٍ مشهدية نزورُها كما نزورُ المتاحف. إنه نسيج حيٌّ، الناسُ يسكنون فيه ويعملون، ويختلف عددُهم من مدينة إلى أخرى. إلا أن اللافت دائماً، هو أن الكثافة السكانية فيه مرتفعة جداً، مقارنةً مع الكثافة السكانية في أجزاء المدينة الأخرى. هذه هي الحال في صنعاء التاريخية وفي حلب، في دمشق وفي القاهرة، في فاس وفي تونس (العاصمة) وفي الجزائر (العاصمة)، وفي كافة الأجزاء التاريخية من مدننا.

يتملَّك الناس الأمكنة التي يعيشون فيها لمدة طويلة، فتنشأ بينهم علاقات إنسانية لصيقة إنسانيتهم، علاقاتُ الصداقةِ والنفور، المَودَّة والعَداء، الحبّ والكراهية، القسوةِ والتسامح. تنشأ بينهم خلال الإقامة الطويلة في الأمكنة هذه، علاقاتٌ عاطفية متنوعة تنمو مع الزمن، تتحوَّل معه، وتتغيَّر. كما تنشأ أيضاً خلال الإقامة الطويلة، علاقاتٌ موازيةٌ ينسجها الناس مع الأمكنةِ حيثُ يُقيمون. يألفون المباني، يندمجون في المجالات، يتلاقون في المقاهي في الدكاكين وفي الساحات، وينتظرون الربيع، ليروا الأشجار وقد اكتست بثيابٍ طرَّزتها الزهورُ المتعددة الألوان. إن استمرار هذه

العلاقات، هو ضروريٌّ لتوازنهم، وانطلاقتهم في الحياة. وكلُّ تدميرٍ لهذه الأجزاء التاريخية، التراثية، الحيَّة، المأهولة، كلُّ تدمير لهذا النسيج المديني والمعماري المميَّز، سوف يدمِّر معه النسيج الاجتماعي المميَّز هو الآخر، بالعلاقات التي نسجها الناسُ بينهم، ومع المجالات التي يعيشون فيها ويعملون. وسيفقدون توازنهم إذا ما أُجبروا على مغادرة الأمكنة، والسكن في مطارح جديدة.

فالحفاظ على النسيج المبني التاريخي التراثي، يعني قبل كل شيء، الحفاظ على النسيج الاجتماعي الذي يسكنه.

ويشكِّل الحفاظُ على هذا النسيج الإجتماعي، قيمةً إجتماعيةً كبيرة، يختزنها النسيج المبني التاريخي التراثي. وكلُّ تأهيلٍ لهذه الأمكنة، أو ترميمها، أو تجهيزها، إنما يعني بالدرجة الأولى الحفاظ عليها مكاناً لائقاً لسكن ناسها، وملائماً لنمط عيشهم فيها. ليس في الأمر حنينٌ بكائيٌّ كما يزعم البعض، يشدُّ الناس إلى العيش في أمكنة تتدهور، أو إنه رفضٌ مرضيٌّ للتجديد والتغيير، كما يزعم البعض الآخر.

قد يريد البعض من السكان الإنتقال إلى مساكن عصرية، بنيت في مواقع طبيعية مميَّزة، إلى مساكن جديدة مجهَّزة بابتكارات العصر، مُشمِسة، مهوَّاة، مطلَّة. ولكن...؟ ماذا نصنع باللذين يريدون الإستمرار في سكن التراثي الذي ألفوه، وربَّما الذي يشعرون فيه بالإنتماء وبالهوية؟ وهم يرون فيه

ملجأً حقيقياً، ورمزاً للأمان والطمأنينة والإستقرار؟ ماذا نصنع بالذين لا يريدون العيش في أقفاص زجاجية، يشعرون فيها وكأنهم عراةٌ أمام عيون الناس؟ ماذا نصنع بالذين يرون وفق معاييرنا، أن الجار قبل الدار؟ هل نبني لهم نسيجاً تراثياً مزيَّفاً، مصنوعاً بمواد العصر وبتقنياته؟

للتراث التاريخي المبني قيمةٌ اجتماعيةٌ مزدوجة، فهو ضرورة للحفاظ على النسيج الإجتماعي الذي سكن فيه عقوداً طويلة، وهو ضروري أيضاً، لكل من يرغب في السكن في مجالات تاريخية يشعر فيها بالإنتماء وبالإطمئنان. وفي الحالتين، أن نؤمّن للناس إطاراً للحياة ملائماً لتطلعاتهم، إنما هو ضروري لتوازنهم.

● القيمة الخامسة، هي القيمة الرمزية، قيمة الذاكرة الجماعية للناس، قيمة الهوية والإنتماء:

كل الزملاء وكل الحاضرين، يعرفون حلب بالتأكيد، فهل يقبل أحدٌ في حلب أن تُهدم قلعتها؟ أو أن تُهدم أسواقُها؟ وفيها كل حِرَف حلب، وكل إنتاجها، والكثير من حمَّاماتها وخاناتها؟ وفيها قبل كل شيء فرادتُها، وازدحامُ الناس فيها...؟ سلعٌ، وباعةٌ، ومتسوِّقون، وسائحُون، وزوَّارٌ، وفُضوليون؟ وكل الزملاء وكل الحاضرين، يعرفون دمشق بالتأكيد، فهل يقبل أحدٌ في دمشق أن يُهدم فيها الجامع الأموي؟ أو أن تُهدم سوق الحميدية بكل متفرعاتها المتاهات؟ ربما لا يعرف الحاضرون دير القمر، وبيت

الدين، وجبيل (بيبلوس) وصيدا، في لبنان، ولكن...! هل يمكـن لواحدنا أن يتصـوَّر دير القمر وقد هدم فيها قصر فخر الدين؟ أو أن يزور بيت الدين، وقد زال منها قصر الأمير بشير الشهابي؟ هل يمكن لأي مواطن لبناني أو سائح زائر، أن يقبل العيش في جبيل (بيبلوس) بدون قلعتها، بدون المرفأ الفينيقي عند أقدام القلعة؟ وبدون سوقها التقليدية؟ هل يمكن لأي صيداوي يعشق مدينته، وقد التهم البنيان كل بساتينها، وتمددت المدينة العصرية على أكتاف التلال المطلة على البحر، هل يمكن لأي صيداوي أن يتصوَّر ولو للحظة واحدة، أنه سيستيقظ يوماً وينظر إلى البحر والافق قبالته كما يفعل كل يوم، فلا يرى قلعة البحر؟ ولا يرى الجسر التاريخي الذي يربطها بالطريق الضيق المسقوف المؤدي إلى قلعة البر؟ سيركض الصيداويون عرأة ربما، ليتفقَّدوا خان الإفرنج، وخان الصابون، وساحة باب السراي، ومقهى الزجاج. سيفتشون عن البيوت الحجرية المتلاصقة، عن نوافير المياه، عن الأدراج المعلَّقة على الجدران، عن المسارات التي تشدُّك رغماً عنك لتسلكها، لتعود بك، رغماً عنك مرة أخرى، إلى الزاوية التي انطلقت منها.

والطرابلسيون في لبنان، لن يكونوا أبداً في حالة أفضل من حالة مواطنيهم في دير القمر، وبيت الدين، وجبيل (بيبلوس)، وصيدا، إذا ابتلع زلزالٌ سوقَ الخيَّاطين، وسوقَ النجَّارين، وسوقَ الصاغة وجامع طينال.

كلُّ المعالم، والمباني، والمجموعات المبنية التي ذكرت، هي رموزٌ للأمكنة حيث تقوم. إنها رموزٌ للمدن، صغيرة كانت أو كبيرة. وانتماءُ الناس إلى مدنهم، هو عبرَ ديمومةِ الرموز فيها. وللرمز هنا، قيمةٌ اجتماعية عُظمى، فهو دلالةُ الانتماء إلى الأمكنة، وحاملُ الهُوية. وهو قبل ذلك، مكانُ الذاكرة الجماعية بامتياز. والذاكرة الجماعية هي أحد روابط الناس الأساسية.

● أما القيمة السادسة فهي القيمة التعليمية: أنتقل في هذه الفقرة وبانحياز ظاهرٍ، إلى مسألة دور المحافظة على الأجزاء التاريخية والتراثية من مدننا، في تعليم التنظيم المديني، وتعليم العمارة.

لقد سادت في أوائل الستينات، نظرياتٌ تقول، إنه لننتج عمارةً جيِّدة علينا أن نمحي كل شيء من ذاكرتنا. كان يقالُ للطلّاب أن مخيلَّتكم هي التي ستخلق كل جديد.

نعلمُ اليوم، أن هذه التأكيدات كانت غير صحيحة. إذ ثبت للمختصين، أن الوليد الجديد هو غير قادر على التخيُّل لأن ذاكرته فارغة، وأن كلَّ ما نتخيَّله يُبنى على ما تختزنُه ذاكرتُنا. فنحنُ نرفضُ هذا المخزون، نقبله جزئياً، أو نلقّحه، أو نُعيد تركيبه إنطلاقاً من عملية التفكير، لنخلُق شيئاً جديداً، لنُبدع، لنبتكر. وفي كـل عملية ابتكارٍ يعود الإنسان إلى ذاكرته. أرى في هذه التصحيحات العلمية، أن الحفاظَ على الأجزاءِ التاريخيَّةِ والتراثية في مدننا، هو الضمانةُ لنتقدَّم في

عمليةِ انتاجِ مدينةِ الغد، مدينة المستقبل، وعِمارتها. ذلك أننا نعلم اليوم أيضاً، أن التنظيم المديني الحديث، من إيدالفونسو سردا في برشلونة، إلى ميثاق أثينا الذي صاغه لوكوربوزييه في العام 1942، هو تنظيمٌ مديني كارثيٌ على الصعيد الاجتماعي. ونُدرك في ضوء ذلك، ومع انتشار النظريات في التنظيم المديني المسمى ثقافوي (culturaliste)، ندركُ، أنه للتوصُّل إلى ما هو جديدٌ وجيِّدٌ لمجتمعاتنا العربية في هذا الحقل، علينا أن نبحث في ما هو موجود في ما هو قائم، في التنظيم المديني الموروث، وفي العمارة التراثية. لا لننقلها، بل لنتعلَّم منها، ولنوسِّع قدراتنا على الإختيار وعلى الإبداع في آن.

إذ إن لما هو موروثٌ في هذا الحقل، قيمةٌ تعليميةٌ هامة. وكلُّ تدميرٍ لهذا الإرث الفريد، يعني بالضرورة إفقارَ مصادرَ التكوين عند الأجيال القادمة.

● أما القيمة السابعة، فهي القيمة الاقتصادية: يعتقد البعض أن الحفاظ على التراث، بالترميم والتأهيل والصيانة، هو مصدر إنفاق فقط. نُنفقُ كي نرمِّم ونؤهِّل، نُنفِق كي نصون، هذا صحيحٌ بالتأكيد. ولكن إذا نظرنا في جدوى هذا الإنفاق، نجدُ أنَّ هذه الأعمال هي مصدرُ دخل. فالآثار والتراث في الكثير من البلدان العربية، مثل اليمن، ومصر، وسوريا، ولبنان، وتونس، وغيرها، هي الركيزة الأساس التي تقوم عليها السياحة في هذه البلدان .والآثار والتراث،

يشكلان في هذه الحال ثروةً سياحيةً حقيقيــة، وهي مصــدرٌ لا ينضب لدخــل مباشر، ودخل آخر غير مباشر، هذا من جهة.

أما من جهة أخرى، فكلُّ الأعمال التي ذكرت. في الصيانة، والترميم، والتأهيل، هي أعمال يدوية، تحافظُ على المهارات الموجودة وتجدِّدها، تخلُق فرص عملٍ جديدة، تحافظ على الحرف التقليدية وعلى منتجاتها، وتجعلُ منها منتجاً اقتصادياً مربحاً، بما يرقى بالحرفيين، ويجعلهم يدركون قيمة عملهم الوطنية، لا بل قيمته الإنسانية.

٧ ـ ماذا في الخلاصة

سأقتبس خلاصتي، من محاضرة سمعتها في بيروت، منذ بضعة سنوات.

(يرى المحاضر، أن الحضور المادي للبعد الزمني، والذي يجسِّده المَعْلَمُ القديم في مجتمعٍ ما، هو استجابةٌ اساسية لحاجة إنسانية. فالإنسان في الأساس هو كائنُ ذاكرة، وبالاستعانة بذاكرتنا، نُفبرك المستقبل، يقول المتحدِّث، ومجاورتنا الدائمة للذاكرة، هي أساسية في حياتنا. وإذا نظرنا إلى دماغنا حيث توجد ذاكرتنا، سيفاجئنا كون هذا الدماغ، الشيءَ الاركيولوجي الأكثر إدهاشاً بين الموجودات على سطح الأرض. وتُؤكد هذه البنية الأركيولوجية لدِماغنا، أنَّنا نحملُ

في بنيتنا حضوراً للزمن، ونعمل دائماً لإيجاد بيئة متوازنة، نستطيع فيها أن نحافظ على هذا الحضور، أي أن نحافظ على الذاكرة. فالذاكرة يمكنها أن تكون العنصر الرئيس، في مسعانا لخلق بيئة تسمح بانطلاقةٍ متناغمةٍ للإنسان وللمجتمع.

● وتُصبح الذاكرةُ من هذا المنظور حاجةً إنسانية أكيدة، مثل التعليم، والصحة. وفي مجال اتخاذ القرارات الكبرى في السياسة مثلاً، تعملُ الذاكرةُ على منسوبٍ آخرَ أهم بكثير، من منسوب المحافظة على بعض الحجارة القديمة.

ماذا في الخلاصة إذاً...؟

● **في الخلاصةُ، أن الحفاظ على التراث ليس موضة أو لعباً. إنَّه الاستجابةُ لحاجة إنسانية أساسية. وإذا أصبح الإنسانُ عبر الزمن، إنساناً عاقلاً، فذلك حدث بالتحديد، لأنه يملك ذاكرةً واعيةً، ذاكرةً يستعينُ بها، وهي عنده مصدرُ المخيِّلة، والخلق، والإبداع. يَنتُج كلُّ ذلك، من التفاعل الدائم بين الذاكرة والذكاء.**

(وإذا أردنا أن يستمر الإنسانُ في مسيرته على دربِ العقل، فمن واجبنا الحفاظُ على شواهد الماضي.

السفير في 30 كانون الثاني 2009

المراجع:

1 - رفعة الجادرجي: في سببية وبنيوية العمارة.
2 - رفعة الجادرجي: حوار في بنيوية الفن والعمارة.
3 - أماني السيد عبد الرحمن: المواثيق والتوصيات الدولية للتعامل مع التراث المعماري والعمراني.
4 - د. أحمد صلاح الدين عوف: مفاهيم الحفاظ العمراني لألفية جديدة، في دولة الإمارات العربية المتحدة.
5 - رهيف فياض: العمارة و وعي المكان.
6 - رهيف فياض: العمران والذاكرة، العمران والوهم.

7 - Claude Chaline : Les villes du monde arabe.
8 - Raymond Lemaire : Patrimoine et lendemain.
9 - La Charte De Venise.

IV

حرب تموز،
وإعمار الضاحية الجنوبية لبيروت

●

11- نعمِّر الضاحية؟ أم نعمِّر ما دمَّرته الحرب فيها!؟

12- مشروع وعد لإعادة إعمار الضاحية الجنوبية لبيروت.
● المنطلقات الرئيسة لإعداد مخطَّط التنظيم المديني لأجزاء الضاحية التي دمرتها الحرب.
● التوجيهات الأساسية المدينية والمعمارية، لإعادة الإعمار.

13- إعمار الضاحية الجنوبية لبيروت ـ نموذج للإعمار.
نسيج مبنيٌّ عصري، يعيد احتضان النسيج الاجتماعي.

11

نعمرُ الضاحية؟
أم نعمرُ ما دمرته الحرب فيها؟

I

كثر هم المعماريون، وأكثر منهم الباحثون في الشأن المديني، ومخططوا المدن ومنظِّموها، الذين يعتقدون أن الدمار الذي تخلِّفه الحروب، هو أقصر الطرق التي تتيح لهم تحقيق أحلامهم في بناء مدن مثالية.

فيهدمون المباني المتصدِّعة جزئياً، وهذه التي تجاورها، وتلك التي بعدها أيضاً، حفاظاً على السلامة العامة... حسب ما يقولون.

ويزيلون الطرق الرئيسة، والطرق الفرعية، والفسحات، والساحات إن وجدت. يقطعون الشجر المتبقي ويهدمون كل المعالم. يزيلون كل أثر للماضي القريب أو البعيد، وكل معلمٍ يداعب الذاكرة.

بإختصارٍ، يوسعون المجالات المدَّمرة أضعافاً، ويزيلون

الركام بإحتراف عالٍ، فتبدو لهم "طاولة المكان" أفقية، فسيحة، فارغة، نظيفة، إلا من أوهامهم، التي سيرصفونها كالفسيفساء في مخططاتهم الجديدة، وقد استعملوا في كتابتها أكثر التقنيات الرقمية حداثة وإبهاراً. ثم يعمدون بعد ذلك إلى ضم وفرز جديدين، وإلى إعادة رسم العقارات، وتغيير أشكال الوحدات المبنية، وتوسيع الطرق الرئيسة وجعلها مستقيمة قاطعة كحد السيف، وتغيير المسارات الفرعية، وتعديل كل المخططات القديمة.

بإختصارٍ مرة أخرى، سيعمدون إلى تصحيح الأوضاع التي كانت قائمة قبل الدمار... يزعمون. ويتصورون مدناً مثالية تقوم في الأمكنة الشاسعة الفارغة.

مدن مثالية، نظيفة، كل ما فيها مستقيم منتظم، يسكنها ناس آليون، معقّمون، يعملون بالريموت كونترول أو إذا أردتم، بنظام التحكم عن بعد.

كثر من هؤلاء هم مثاليون حقيقيون، تمتزج عندهم الرغبة الصادقة بتحسين الأطر المبنية حيث يعيش الناس، بالشطط الفكري، وبالأوهام.

إلا أن خطاب الكثيرين منهم، وربما أوهامهم أيضاً، إنما تشكل القناع الذي يختبئ وراءه رأس المال المتوحش، والشركات العقارية الضخمة. ولنا في شركة " سوليدير" مثال صارخ على ذلك. إذ هدَّمت الشركة العقارية قلب بيروت عمداً، ونظَّمت تخمينات ظالمة، أدت إلى تهميش المالكين وأصحاب الحقوق، وإخراجهم. فتملكت الشركة العقارية قلب

المدينة وواجهتها البحرية، وعدلت مرات عدة وجهة استعمالات الأراضي وعوامل الاستثمار المعمول بها، وباعت معظم هذه الأراضي من شركات عقارية عملاقة لتبنى فوقها الأبراج، يملكها أغنياء زائرون. هدمت الشركة العقارية النسيج المديني المتراكم، وطردت النسيج الاجتماعي الأصيل الذي كان يسكنه أو يعمل فيه، وأقامت مكان كل ذلك، أبراجاً أو مبانٍ لسكنٍ مؤقتٍ للأغنياء. ومن البديهي أنه سيكون من الصعب أن يقوم فيها مجتمع، وأن تقوم فيها مدينة.

II

هل هذه مقدِّمة؟ للبحث في موضوع إعادة إعمار ما دمَّرته الحرب في الضاحية الجنوبية لبيروت؟

أجزم أنها في صلب هذا البحث، إذ أردت الإشارة فيها إلى موضوعتين اثنتين:

الأولى، وهي بعض المبالغات المنهجية، التي ترافق عادة كل بحثٍ في إعادة الإعمار.

والثانية، خطر الأطماع بأرباح مضاعفة، تجنيها رساميل كبيرة، تحاول التلَّطي بالطموح المشروع إلى التصحيح، والتحسين، والتحديث، والذي يرافق عادة كل عمليات إعادة الاعمار.



دمار

إن المقاربة المنهجية لاعادة الاعمار، تتطلب بداية، تحديداً دقيقاً لأجزاء الضاحية الجنوبية التي علينا إعادة إعمارها. هل نعيد إعمار الضاحية الجنوبية بكاملها؟ أم نعيد إعمار الأجزاء التي دمرتها الحرب؟

كما تتطلب أيضاً تذكير المعنيين بالاعمار والمهتمين به، أنه منذ أن أنشأت الدولة بمرسوم، في شهر آب من العام 1996، "أليسار" المؤسسة العامة المعنية بترتيب الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة بيروت، والضاحية الجنوبية مقسومة تخطيطياً وتنظيمياً إلى جزءين،

الجزء الأول: وهو الضاحية الجنوبية الغربية، الممتدة من الحدود الجنوبية لمدينة بيروت الإدارية حتى خلده، ومن طريق المطار القديم حتى البحر غرباً. إن المؤسسة العامة "أليسار" معنية بشكل خاص بترتيب الواجهة البحرية للضاحية الجنوبية الغربية هذه، في الجناح والاوزاعي والمرامل، وحرش القتيل في الداخل. وكل المناطق الأخرى فيها هي مستثناة من أعمال الترتيب، ويستمر فيها العمران والبنيان وفق التخطيطات المصدَّقة والمعمول بها.

إن هذه المنطقة لم تستهدفها الحرب، ولم يصبها الدمار، وكل الأراضي فيها إما مستثناة، وإما خاضعة لمخططات الترتيب المقرَّة.

والجزء الثاني: وهو الضاحية الجنوبية الشرقية، الممتدة من طريق المطار القديم، حتى الحدود الشرقية للضاحية

الجنوبية، وهذه الحدود معروفة. لقد استهدفت الحرب هذا الجزء أي الجزء الثاني. استهدفت الحرب حارة حريك، والغبيري، والشياح، استهدفت المشرفية، وبئر العبد، وحي السلّم... وغيرها. ملايين القذائف انهمرت على مجمعات مبنية في هذه البلدات والمناطق والأحياء، فدَّمرتها كلياً أو جزئياً.

هل نوسِّع الدمار؟ ونعيد إعمار الضاحية الجنوبية الشرقية بكاملها؟ أم نعيد إعمار الأجزاء المدَّمرة فيها؟ أطرح السؤال مجدداً؟

تُظهِرُ الصور الجوية المتوفِّرة، أن الحرب كانت بربرية وحشية قاسية، وأن التدمير في المناطق المستهدفة هو تدمير كامل أحياناً، وشبه كامل أحياناً أخرى. إلا أنه رغم قسوته فهو جزئي موضعي. وعندما نحدِّد أن ما نعيد اعماره هو أجزاء من الضاحية الجنوبية الشرقية لا الضاحية الجنوبية الشرقية كلها، فهذا يعني أن البلدات القائمة فعلاً، والأحياء التي عادت إليها الحياة بسرعة مدهشة، والأنقاض التي أزيلت في مدة زمنية قياسية، إن كل ذلك، يؤكد أن النسيج المبني القائم، والحياة التي عادت إليه، هما المنطلق الأساسي في كل بحث تخطيطي. النسيج المبني القائم والحياة فيه، يحددان المنهج الذي سيعتمد في إعادة الإعمار، والوسائل التنظيمية والعملانية الآيلة إلى تنفيذ هذا المنهج.

إن كل المعطيات القائمة على الأرض، تشير إلى

ضرورة الابتعاد عن الحلول الجراحية المضرَّة والمكلفة. إنها تشير إلى ضرورة تحديد فني دقيق للمجالات المبنية المدَّمرة، والابتعاد عن أي توسيع اعتباطي لهذه المجالات، عبر تدمير إضافي غير مبرَّر. فالتصحيح والتحسين اللذين يطمح إليهما كل إعمار جديد، يبدآن بحصر الدمار لا بتوسيعه. لذا يرتدي الترميم من هذا المنظور أهمية بالغة. إذ إن السلامة العامة لا تعني التدمير العشوائي دون تبصر. بل هي تعني بالدرجة الأولى، الترميم العلمي والفني المتين، والآمن.

إن إعادة الكتابة التخطيطية والتنظيمية، للمناطق والأحياء التي أصابها الدمار في الضاحية الجنوبية الشرقية، عليها أن تعتمد تنظيماً مدينياً يقوم على " الخياطة " إذا صح التعبير، أو ربما أبعد من ذلك، يقوم على فن " الرتي ". فالمنظِّم هنا يقوم بدور " الرتَّا "، وأدواته الفكرية والتنظيمية، هي نقيضة التنظيم المديني الجراحي المكلف والمؤذي في آن.

ـ فتتم المحافظة على الجادات، وعلى الشوارع الرئيسة، وعلى الدروب المتفرعة منها.

ـ تتم المحافظة على الساحات إذا وجدت، وعلى الإنفراجات الصغيرة والفسحات، وعلى التراجعات، وعلى المسافات بين المباني.

ـ تتم المحافظة على قياسات العقارات، وبالتالي على قياسات الكتل التي ستبنى فوقها، لتأتي متجانسة مع المباني

الموجودة، مماثلة التأثير في مجمل النسيج المبني القائم، والذي سيكتمل بها وبمثيلاتها.

ـ تتم المحافظة على تعدد الوظائف في المبنى الواحد كما كانت عليه سابقاً، التجارة في الطابق الأرضي بمحاذاة الأرصفة وربما في الطابق الأول أحياناً، وفي الطابق السفلي أحياناً أخرى، والسكن في الطوابق العلوية.

III

تهدف الجهود المبذولة للمحافظة على طابع النسيج المديني المدمَّر والذي يعاد بناؤه، وتلك المبذولة للحفاظ على النسيج الاجتماعي الذي يسكنه بكل مكوناته، تهدف كل هذه الجهود إلى أمور متعددة:

أولها: إعادة إنتاج علاقة الناس بالأمكنة، وإعادة تملُّكِهم لها. بحيث لا يشعرون بأية غربة عندما يعودون، أو بأي انقطاع. الحرب استمرت شهراً ونيف، والنزوح وقتاً مماثلاً، والإقامة المؤقتة مدة أطول بالتأكيد. إلا أن السكن في الأمكنة ذاتها مجدَّداً، عليه أن لا يدلَّ على أي انقطاع. بل عليه أكثر من ذلك، أن يكون استمراراً طبيعياً للحياة، أقوى من الحرب ومن قوتها التدميرية.

على الذاكرة الجَماعية للناس التي تنعشها الأمكنة، أن تتواصل باستمرارية، بسلاسة، وبدفء. مدخل البناء عند

الزاوية، والدكان بجانبه، والمتاجر المتجاورة بعده. الحلّاق، وبائع الفلافل، والحانوت الصغير المتخصص بالهاتف الخليوي وبملحقاته، الشرفة الناتئة، والستارة العريضة التي تحجبها عن الشرفة المقابلة عند الضرورة. مقهى الحي الدافئ وأمامه بضعة كراسي على الرصيف، وبجانبه مقهى الإنترنت العصري الصغير.

الشارع العريض المستقيم، والدروب المتعرجة المنطلقة منه، تظلّل المارة وتحمي همسات الصبايا، وتردّد ضحكات الشبان العالية.

وثانيها: إعادة النسيج الاجتماعي في الأماكن التي أعيد إعمارها، إلى ما كان عليه قبل التدمير، بما يسمح له بالتفاعل السريع مع النسيج الاجتماعي الذي يضج بالحياة، والذي بقي في المناطق المجاورة ولم يغادرها، أو عاد إليها بعد انقطاع قصير فور توقف الحرب.

وثالثها: إعطاء المقاومة والصمود بعداً إضافياً، وهي صفة المواجهة والتحدّي عبر التشبث بالأمكنة، والالتصاق بها، والإصرار على العيش فيها، رغم الحروب العدوانية المتكررة، والقصف المدمّر.

IV

إن هذه الرؤية، لإعادة بناء ما تهدّم، لا تُغفل القدرة على تصحيح بعض الأخطاء، التي كانت قد تراكمت مع

تراكم البنيان في الأجزاء المدَّمرة، كما أنها لا تُغفل القدرة على إجراء الكثير من التحسينات.

● فمن الممكن أن يلحظ المخطِّطون ضماً وفرزاً محدودين، في أماكن معينة، بهدف تصحيح الأوضاع التي رافقت نشوء التجهيزات العامة وبعض تجهيزات الأحياء، مثل المدارس، والمستشفيات، والنوادي، وحدائق الأطفال وغيرها. فيعاد الفرز، وتتغير قياسات بعض العقارات، بحيث يمكن تحسين مجالات التعليم. فيضاف إليها المجالات الناقصة تربوياً، وتُجهَّز بالملاعب خاصة، وتوسَّع المجالات غير المبنية حولها، بحيث تشعر باستقلالية ملائمة، وضرورية، لحسن إدائها التربوي والإنساني. ويصُح القول ذاته عن المستشفيات التي دمرت كلياً أو جزئياً.

● لقد قامت في هذه الأمكنة وظائف جديدة، استقرت كلها في مبان سكنية متشابهة. وتنوَّعت هذه الوظائف الجديدة بتنوع الحياة المعاصرة. فهي وظائف إدارية، ومكتبية، وثقافية، وإعلامية، ورياضية...، وغيرها. وقد أدى استقرارها في المباني السكنية. إلى تعديل مجالات هذه المباني بشكل غير ملائم، وإلى هدر كبير بالمساحات المبنية. فمن الضروري في هذه الأمكنة، تصور مخططات تنظيمية جزئية جديدة، تشجِّع ضماً وفرزاً محدودين أيضاً، تُعزِّز فيه المساكن، وتُشادُ إلى جانبها أبنية جديدة ملائمة، من حيث مساحتها،

وتنظيمها، وإدائها الوظيفي، لاحتضان الوظائف الجديدة دون هدر بالمساحات، أو تبذير.

● وفي إطار التصحيح والتحسين المطلوبين، فإن مخططات تنظيمية محدودة في الأماكن السكنية الشديدة الإقتظاظ، تبدو ضرورية هي الأخرى. ستُضَم هنا أيضاً بعض العقارات، وسيُعادُ فرزها في ضوء المخططات التنظيمية الجزئية الملحوظة. كما سيُعادُ توزيع المباني أيضاً، ضمن القراءة الكلية، التي يفرضها النسيج المبني القائم في جوار المنطقة المدَّمرة، والتي يعاد إعمارها.

سيعاد توزيع المباني السكنية، والمباني المتعددة الوظائف، كما ستضاف بعض الخدمات العامة. إلا أن الهدف الرئيس من التدخل هنا، هو دفع البلديات المعنية إلى القيام باستملاكات محدودة لا تسئ إلى استعمالات الأراضي الملحوظة، تُلحظ فيها ساحات صغيرة، وربما بعض الحدائق العامة تقام فيها بالضرورة ملاعب الأطفال أولاً، وبعض النوادي الرياضية والثقافية للشباب.

● يبقى أن نشير في إطار التصحيح والتحسين المطلوبين والممكنين في آن، أن معظم المباني المدَّمرة لا قيمة معمارية لها. وهي إذ يعاد بناؤها، فإنما يتم ذلك لقيمتها العاطفية والرمزية. ولقيمتها المضافة لصيقة مفهوم المقاومة، والصمود، والتحدي.

فعلى هذه المباني، بعد أن يعاد بناؤها بكتلها المعروفة

القياسات والتأثير لتتجانس مع الكتل المبنية الموجودة في المحيط، عليها بعد ذلك، أن تعيد إلى الأمكنة روحها. عليها أن تعيد إلى الأحياء نسيجها الحي المألوف، وإلى الشوراع عمارتها.

لا تناقض بين إعادة الروح إلى الأمكنة، وبين تعديلات جدية تطال شكل الأبنية، وواجهاتها.

ـ فالابتعاد عن إعادة الواجهات كما كانت عليه ضروري. إلا أن الابتعاد عن التكلف والافتعال، ضروري ايضاً في كتابة العمارة الجديدة. والابتعاد عن الأشكال المعقدة بحجة المعاصرة ضروري أيضاً. والإصرار على كتابة عمارة أليفة مضيافة، تندمج في محيطها، ضروري أيضاً.

هل يعني ذلك أن نبني اليوم؟ كما كنا نبني بالسبعينات؟

وهل يعني الاندماج والتجانس، كتابةً معماريةً منقولةً عن عمارةٍ عتيقة لا قيمة معمارية لها؟

ـ فلنبتعد في التصميم العام للوحدات المبنية، عن توزيع الشرفات على كل الواجهات، بحيث تصبح عناصر تزينية لا قيمة استعمالية لها، ولنجمعها في شرفتين اثنتين رئيستين، واحدة أمام قاعة الجلوس ومجالات المعيشة، والثانية بقرب المطبخ.

ـ ولنجعل من الطموح إلى كتابة معمارية معاصرة، حافزاً قوياً للتفتيش عن مفردات هجينة، تسمح للناتج المعماري

الجديد أن يندمج مع العمارة الموجودة في المحيط دون افتعال.

المواد، والنسب، وشكل الفتحات، وقياساتها، والألوان، كل ذلك من العناصر، التي تجعل الطموح المذكور ممكناً.

ـ وربما ساهم في ذلك أن تنشئ البلديات المعنية، بالتعاون مع المديرية العامة للتنظيم المديني، هيئة تخطيطية معمارية عليا، مؤلفة من معماريين مخطِّطين ومنظِّمي مدن، مشهود لهم بالثقافة وبالاطلاع الواسع، وبالإنتاج الفكري في هذا المجال، تحدثاً وكتابة. تتخذ الهيئة هذه مقراً لها بالقرب من الأجزاء المدمرة في الضاحية، في حارة حريك أو في الشياح، وتنظر في كل المعالجات التفصيلية المقترحة، التنظيمية والمعمارية، تدقيقاً، تحسيناً، وتطويراً.

V

قرأت إقتراحاً "بساحة للنصر والتحرير" في الضاحية الجنوبية. جوهر الاقتراح، "دمارٌ وسط الإعمار". يذكرنا الدمار بالحرب لضمان اللاعودة إليها.

هراءٌ كامل!

نحن لم نحارب، ليضمن، الدمار "لا عودتنا" إلى حرب.... ثامنة، وتاسعة، وعاشرة.

نحن لم نحارب. نحن قاومنا، نحن دافعنا.

شنت أميركا واسرائيل حرباً وحشية علينا. حرب أميركا مستمرة في افغانستان وفي العراق... حرب بوش مستمرة على الإرهاب، وحرب اسرائيل مستمرة في فلسطين.

"تذكارٌ "!؟

لا حاجة بنا لأن نتذكر. نحن نرى حرب أميركا في كل مكان. نحن نرى حرب اسرائيل المستمرة. وكل لجان التحقيق المطلوبة في اسرائيل بعد العاصفة، جوهرها البحث عن الأسباب التي جعلتها تخسر هذه الحرب، فتتجنبها، لتربح حربها المقبلة علينا.

نحن لا نتذكر، نحن نرى صور الشهداء كل يوم، ولا حاجة "لدمار" يذكّرنا.

فلنعمّر، ونقاوم.

جريدة الأخبار في 20 أيلول 2006

12

مشروع وعد

لإعادة إعمار الضاحية الجنوبية لبيروت

•

- المنطلقات الرئيسة، لإعداد مخطَّط التنظيم المديني لإجزاء الضاحية التي دمَّرتها الحرب.

- التوجهات الأساسية، المدينية والمعمارية، لإعادة الإعمار.



12

مشروع وعد
لإعادة إعمار الضاحية

1 -1-: المنطلقات الرئيسية لإعداد مخطَّط التنظيم المدني لأجزاء الضاحية التي دمَّتها الحرب

كانت الحرب الإسرائيلية على الضاحية، وحشية وقاسية، وكان التدمير في المناطق المستهدفة تدميراً كاملاً أحياناً، ومحدوداً غالباً. إلا أنه رغم قسوة الحرب ووحشيتها، بدا التدمير جزئياً، والإستهداف موضعياً، فطال جزءاً صغيراً من الضاحية الجنوبية الشرقية (40 هكتاراً تقريباً). وفي الجزء المستهدف هذا، هناك 50% من المباني تقريباً لا تزال صالحة للإستعمال، وإن مع القليل من الترميم.

إن ذلك يقتضي مسحاً فنياً للمناطق المدَّمرة، بحيث تُحدَّد (بضم التاء، وفتح الدال المشددة) بدقة رقعة الدمار، ويتم حصرها، ويُعمد إلى ترميم كل ما يمكن ترميمه من المباني المستهدفة، مع التحسين الضروري والمطلوب في

تأليف الكتل، وفي لغة الواجهات، ومع تأمين متطلبات السلامة العامة.

1 - 2-:

● والنسيج المبني القائم حالياً في المناطق المستهدفة، والنسيج المبني الملاصق لهذه المناطق، والذي عادت إليه الحياة الطبيعية بسرعة مذهلة فور توقف العدوان، هما المنطلق لكل فكر في التنظيم المديني يتصدًى لإعادة إعمار ما تهدًم. إنهما يحددان المنهج الذي سيعتمد في إعادة الإعمار، كما يحددان الوسائل التنظيمية والعملانية، الآيلة إلى تنفيذ المنهج.

1 - 3-:

ماذا في المنهج المقترح لإعادة الإعمار؟
ماذا نعمِّر؟ نعمِّر الضاحية الجنوبية الشرقية؟
أم نعمِّر ما دمَّرته الحرب فيها؟
● كان الإستهداف موضعياً، وكان الدمار موضعياً أيضاً، نكرِّر.

فعلى التدخُّل التنظيمي في المجالات المدمَّرة، أن يكون موضعياً بدوره.

1 - 3 - 1-:

إن حصر الدمار، والترميم العقلاني اللَّذَين أكدنا عليهما

أعلاه، يستلزمان بالضرورة، الابتعاد عن التنظيم المديني الجراحي، واعتماد تنظيم مديني قائم على الخياطة، أو حتى على الرتي.

المُنظِّم المديني هنا، هو خيَّاطٌ، أو هو رتَّى إذا دعت الحاجة.

1 - 3 - 2-: إن طبيعة التدخل كما حُدِّدت (بضم الحاء وكسر الدال المشددة)، تلزم المنظِّم المديني:

● بأن يحافظ على البولفارات المنفذة أو المخططة كما هي، وعلى الشوارع الرئيسة، وعلى الشوارع الداخلية، وعلى الشوارع الفرعية والثانوية، وعلى الدروب العتيقة المتعرِّجة، الموجودة في الأحياء وبين المباني، وذلك وفق المخططات المصدَّقة.

● وبأن يحافظ على الملكيات العقارية كما كانت، وبأن يحمي حقوق الناس كاملة.

● يتم ذلك بالحفاظ على نسيج العقارات القائم، وفق خرائط المساحة الحالية:

فلا فرز، ولا ضم، ولا إعادة فرز، ولا سماح بنشوء ملكيات عقارية كبيرة، ولا سماح بما يسمَّى مشاريع كبرى، مقنَّعة بادعاءات التحسين وتأمين جودة الحياة، تدمّر النسيج القائم، وتنزع الملكية من الملّاكين الصغار.

● وبأن يحافظ على المساحات المبنية في كل مبنى دمّر وسيعاد بناؤه، في الطابق الأرضي وفي الطوابق العلوية.

● وبأن يحافظ على عدد الطوابق، وعلى الوظائف في كل طابق، وعلى طرق الاستعمال بتنوعها (سكن، تجارة، صناعات صغيرة غير ملوّثة، مؤسسات مكتبية وإعلامية... إلخ).

● وبأن تتم إعادة البناء وفق القوانين المرعية الإجراء، ووفق نظام المنطقة، مع التمسُّك بالمساحات الأفقية المبنية، وبعدد الطوابق كما سبق وذكرنا. بما فيها التأكيد على الحق المكتسب الناتج عن التسويات القانونية الموثقة .

● وعلى إعادة البناء هذه، أن تنتج كتلاً بسيطة، متجانسة بعضها مع البعض الآخر، تتجاور باندماج أو بتكامل، مع المباني المتبقية في أمكنة الدمار، ومع امتداداتها في المناطق المجاورة.

● وعلى المباني التي سيعاد بناؤها، أن تأتي متماثلة التأثير في مجمل النسيج المبني القائم في المنطقة المستهدفة، وفي المناطق المجاورة، والذي سيكتمل بها، وبمثيلاتها.

● وكل بناء مدمَّرٍ ومتعدٍّ على الأملاك العامة، ويتعذُّر بناؤه، وفق القوانين ووفق نظام المنطقة، لن يعاد بناؤه. وسيضاف العقار الذي كان قد بني عليه، الى الحيز العام لتحسينه. كما أن فضلات العقارات، ستضاف أيضاً إلى الحيز العام في المنطقة كجزء لا يتجزأ منه.

● وسيعاد تنظيم هذه العقارات والفضلات، لتشكل ساحات أو فسحات أو حدائق عامة صغيرة، بمقياس الشوارع والأحياء.

● وسيُخصص في هذا النص، فصلٌ يعني بالتوجهات المدينية والمعمارية المطلوبة في النسيج الذي سيعاد بناؤه، وفي الحيز العام.

● إلّا أننا نشير منذ البداية،، إلى أن كل بحثٍ جدّي في تحسين الحيز العام في النسيج المبني الجديد في المنطقة، عليه أن يعالج ضمن الإمكانات المتاحة:

● مسألة السير والإزدحام.

● ومسالة مواقف السيارات الدائمة والمؤقتة، ومسألة مواقف السيارات أمام المحال والمؤسسات التجارية.

● ومسالةً بالغة التعقيد، وهي الدخول إلى المرائب التي ستلحظ في الطوابق السفلية في المباني الجديدة، ومسألة الخروج منها، وتاثير ذلك على الإزدحام في الشوارع وعلى حركة السيارات وحركة الناس فيها.

● كل ذلك ضمن القيام بدراسة تفصيلية معمّقة، لمسألة السير بمجملها.

على أن تخصص الطوابق السفلية، لمواقف قانونية للسيارات في العقارات التي تسمح قياساتها بذلك.

أما في العقارات الصغيرة المتلاصقة، فيُلحَظ موقفٌ قانونيٌ للسيارات، في طابق سفلي واحد يغطي مساحة العقارات المتلاصقة.

1 -4-: المطلوب إذاً، هو:

إعداد مخطـط التصميـم المديني Urbain Design Plan
لجزء الضاحيـة، الذي دمَّرته الحرب الإسرائيلية.

1 -5-: أهداف المخطط المطلوب إعداده.

● إعـادة الـنـاس، وبـدون اسـتـثـنـاء، إلـى مـنـازلـهـم، وأعمالهم، بالسرعة القصوى الممكنة.

لـم يـتـعـدَّ إنـقـطـاع الـنـاس عـن الأمـكـنـة بـفـعـل الأعـمـال الحربية، الثلاثة والثلاثين يوماً. فعلى إقامتهم المؤقتة أن لا تطول، بحيث تشكّل عودتهم إلى منازلهم استمراراً طبيعياً لحياتهم، وتواصلاً ديناميكياً حيَّاً بينهم من جهة، وبينهم وبين جيرانهم في الأحياء المجاورة من جهة أخرى، تواصلاً حيَّاً أقوى من الحرب، ومن طاقتها التدميرية.

● إعـادة بـنـاء الأمـكـنـة، جـديـدة، بـسـيـطـة، مـعـاصـرة، محسَّنة، مع الحفاظ على ما يميزها في ذاكرة الناس، ومع إعادة الروح اليها. أي عودة الناس إلى ضاحية هي ضاحيتهم دون أي التباس، يتعرَّفون عليها بسهولة رغم التجديد، والبساطة، والعصرنة، والتحسين:

● فيعيدون إنتاج علاقتهم بالأمكنة بكل تفاصيلها الحميمة، فيتملكونها كما اعتادوا على ذلك:

مدخل البناء الجانبي، ودكان الزاوية، ومقهى الأنترنيت، وبائع العصير المتجول، ومقهى الرصيف عند تقاطع شارعين،

ومؤسسة التجميل العصرية في الميزانين مع مدخلها الخفر، والشجرة المزهرة عند التفاف الرصيف.

● ويرتاحون لألفة مع الأمكنة تبدو، سلسة، ولينة، وطبيعية، ودافئة. فالكتل والواجهات، والمواد، والشرفات العريضة المتقابلة، والألوان الهادئة المضيئة، كل ذلك عليه أن يبدو في حلَّته الجديدة، أليفاً وقريباً من مشاعر الناس، ومن عواطفهم.

● فتغذِّي الأمكنة المعاد إعمارها ذاكرتهم الجماعية وتنشِّطها، فيتعرفون بسهولة على الشوارع الرئيسة المتحولة، وعلى الشوارع الداخلية بأرصفتها المغطَّاة، وعلى بَّوابات الشوارع الفرعية ترسمها المباني الجديدة أو المرمَّمة، وعلى مداخل الأحياء المختبئة الخفرة، وعلى الساحات، وعلى الفسحات الصغيرة المزهرة.

● إعادة النسيج الإجتماعي، في الأماكن التي أعيد إعمارها، إلى ما كان عليه قبل الحرب التدميرية، بما يسمح له بالتفاعل السريع، مع النسيج الإجتماعي الذي يضج بالحياة، والذي بقي في المناطق الملاصقة ولم يغادرها، أو عاد إليها بعد انقطاع قصير فور توقف الأعمال الحربية.

● إعطاء المقاومة، بعداً رمزياً وعاطفياً مضافاً، هو الإصرار على المواجهة والتصدي، والتشبث بالأمكنة، والإلتصاق بها، والإصرار على العيش فيها، رغم الحروب العدوانية المتكررة.

■ - 2- التوجهات الأساسية، المدينية والمعمارية، لإعادة الإعمار.

■ - 2- 1 - منطقة الدرس، موقعها، حدودها، ومساحتها.

● تقع المنطقة التي استهدفتها الحرب، في قلب الضاحية الجنوبية الشرقية. حدودها مرئية واضحة:

● إلى الشمال بولفار: مستديرة المطار، ساحة الغبيري، ساحة المشرفية، ساحة الشيَّاح مار مخايل، الحازمية.

● وإلى الغرب بولفار المطار القديم.

● وإلى الجنوب بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد.

● وإلى الشرق بولفار السيد هادي نصر الله.

أربعة بولفارات هامة تحدِّد المنطقة المستهدفة وتزنِّرها. منها القديم (بولفار: مستديرة المطار - الحازمية، وبولفار المطار القديم). ومنها المستحدث (بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، وبولفار السيد هادي نصر الله).

أما المنطقة المدَّمرة جزئياً، أو منطقة الدرس، فهي **مركز الضاحية الجنوبية الشرقية وقلب المنطقة المستهدفة.**

● إنها شبه مستطيلة الشكل، عرضها بحدود الـ 540 م، وطولها بحدود الـ 720 م، ومساحتها لا تتجاوز 388800 م2، أي ما يقارب 39 هكتاراً.

● أما حدود هذه المنطقة أي منطقة الدرس فهي:

● إلى الشمال محطة علامة - ليسيه أميكال - مجمَّع الإنماء (من الضروري تحديد نقاط الحدود بوضوح).

• وإلى الغرب، شارع حارة حريك الرئيس، الممتد من ساحة الغبيري شمالاً، متقاطعاً مع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، إلى عمق الضاحية جنوباً.

• وإلى الجنوب بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، الممتد من بولفار المطار القديم غرباً، متقاطعاً مع بولفار السيد هادي نصّر الله، وبولفار كميل شمعون شرقاً.

• وإلى الشرق: شارع بئر العبد الرئيس الممتد من ساحة المشرفية شمالاً، متقاطعاً مع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، إلى عمق الضاحية جنوباً.

• ومن الواضح أن الاستهداف قد طال مناطق خارج منطقة الدرس، وحتى خارج المنطقة التي عرفناها بأنها المنطقة المستهدفة. إن هذا الاستهداف قد طال مبانٍ معزولة أو مجموعات صغيرة من المباني، لم يترك تدميرها تأثيراً واضحاً إلا في محيطها المباشر.

لذا، سنخصص لهذه المباني، أو المجموعات الصغيرة منها، فقرة خاصة مستقلة، تعالج موضوعة إعادة إعمارها.

■ - 2- 2 - المعايير المعتمدة في تصنيف الشوارع، وفي تحديد تراتبيتها واهميتها .

■ - 2- 2 - 1 - معايير تصنيف الشوارع.

• الشارع الرئيس، (أو الشارع الهام) في التعريف، هو

الشارع الذي يقوم بدور أساسي فعال داخل منطقة الدرس، ويربطها في الوقت ذاته بسائر مناطق الضاحية وبالمدينة، مما يساعد في ضخ الحياة فيها. فاهميته مزدوجة إذاً. فهو يساهم بشكل فعال في الحياة الاقتصادية والإجتماعية للمنطقة من جهة، ويربطها بجوارها وبالمدينة من جهة أخرى. ودوره الإنمائي إذاً، يتخطى المنطقة إلى جوارها المباشر وإلى المدينة.

● **والشارع الداخلي**، (أو الأقل اهمية) فهو الشارع الذي ينحصر دوره الاقتصادي والاجتماعي، داخل المنطقة، وتكون مساهمته في ربطها بجوارها أو بالمدينة، محدودة وضعيفة. فهو يكتفي بالتلقي وبالتوزيع داخل المنطقة.

● **والشارع الفرعي**، هو الشارع الداخلي ذو الدور الاقتصادي والاجتماعي المحدود داخل جزء صغير في المنطقة أو داخل حي فيها، دائرة التلقي والتوزيع محصورة وضيقة.

● **والشوارع الثانوية**، فهي الطرقات القليلة العرض والتي توصل إلى بعض المباني، أو تربط الشوارع الفرعية بعضها بالبعض الآخر. إنها تكتسب دورها من صلتها بالشوارع الفرعية القريبة منها، ولا دور مستقل لها.

■ - 2- 2 - 2 - الدروب والمعابر، خارج معايير التصنيف.

● **اما الدروب والمعابر**، فهي تظهر إلى الآن في خرائط

المساحة، وفي مسطحات المجمعات المبنية. إنها بقايا الطرق الزراعية العتيقة، التي لا تزال مصنَّفة كأملاك عامة، يُمنع استملاكها، أو إلغاؤها، أو البناء عليها. إنها بقايا شبكات النقل والتواصل في المجتمعات الزراعية، التي كانت قائمة في الأمكنة منذ ثلاثة عقود، حيث تقوم الضاحية اليوم، وفيها منطقة الدرس موضوعنا.

تتسَّلل هذه الدروب والمعابر، بين المباني الشاهقة الإرتفاع، وداخل التجمعات، وفي الفسحات الخلفية، عابرة البولفارات، والشوارع على إختلاف تصنيفاتها، مشكِّلة شبكة من الشرايين أشبه بشرايين الحياة البسيطة، التي كانت تنساب فوقها.

سيُحافِظ مخَّطط التنظيم المديني لإعادة إعمار الضاحية على هذه الدروب الشرايين، وسيُبرزها، وسيَحميها في كامل امتداداتها، وفي كل تعرجاتها، لتكون أمكنة التنزه العفوي للناس، خارج الشوارع العريضة المستقيمة، ونقيضاً إنسانياً شاعرياً، لقسوة التنظيم المديني القائم، والذي نحاول أنسنته عبر تعديل التصميم، وعبر التحسين، وعبر الترميم، وعبر إعادة الإعمار.

2- 3 - تصنيف الشوارع.

2- 3 - 1 - الشوارع الرئيسة والهامة.

- **من الشمال إلى الجنوب.**

● **بولفار السيد هادي نصر الله (إلى الشرق).**

يقع بولفار السيد هادي نصر الله خارج منطقة الدرس، إلا أنَّه يشكِّل الحدود الشرقية للمنطقة المستهدفة بالحرب. في حين يشكِّل بولفار: جسر المطار - ساحة الغبيري - ساحة المشرفية - الحازمية حدودها الشمالية كما سبق وذكرنا. وبولفار المطار القديم حدودها الغربية، وبولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد حدودها الجنوبية.

● **شارع بئر العبد الرئيس (إلى الشرق).**

شارع بئر العبد الرئيس، هو شارع تاريخي قديم، يعود بعيداً في الزمن، إلى ما قبل طفرة البنيان التي شهدتها المنطقة في السبعينات، وخاصة أبَّان الحرب الأهلية.

يشكِّل الشارع المتوجه من الشمال إلى الجنوب الحدود الشرقية لمنطقة الدرس. إنه شارع رئيس، بالغ الاهمية، يخدم المنطقة بأكملها، ويتقاطع مع شوارع عديدة على امتداد مساره، الذي يبتدىء عند مستديرة المشرفية، ويتوغل بعيداً إلى الجنوب في عمق الضاحية.

المباني المدَّمرة على جانبي الشارع قليلة العدد، إلا أن للشارع اهمية خاصة في صياغة منطلقات التصميم المديني في منطقة الدرس، وفي صياغة أسس التصميم المعماري فيها.

□ فهو يتقاطع أولاً، عند طرفه الشمالي مع شارعٍ يشكِّل امتداداً لحي معوَّض، حيث يوجد على زاوية التقاطع مجمع

كبير (مجمع عاطف داغر)، كتلته ضخمة، مساحته الأفقية تناهز ألف مترٍ مربع، دُمّر بالكامل وسيعاد بناؤه، إلى جانب مبان لا تزال قائمة لا تتعدى مساحة الطابق فيها مئتي متر مربع. ثمة إشكالية خاصة في إعادة بناء هذه الكتلة العملاقة، بجوار المباني الموجودة بكتلها الصغيرة القياسات. إن هذه الاشكالية، تضيف اهمية خاصة إلى إعادة دراسة البوابة الشمالية لشارع بئر العبد الرئيس.

□ وهو يتقاطع ثانياً مع الشارع الأبرز والأكثر اهمية وحضوراً في منطقة الدرس، أي شارع الشورى أو شارع الدكاش، ويشكّل هذا التقاطع البوّابة الشرقية لشارع الدكاش. حيث يوجد مجمع كبير مدمَّر، مؤلف من سبعة مبان سيعاد بناؤها، على أرض تناهز مساحتها الثلاثة الآف ومئتي متر مربع. سترسم المباني التي سيعاد بناؤها في واجهتها الجنوبية، غلافاً منحنياً بإنحناءة الشارع عند ساحة الشهيد صلاح غندور.

□ ثم يلتقي الشارع ثالثاً، مع شارع بالغ الاهمية تجارياً وسكنياً داخل منطقة الدرس، هو شارع السيد عباس الموسوي. ويشكل هذا التلاقي، البوّابة الشرقية للشارع.

□ ثم يتقاطع الشارع رابعاً مع شارع فرعي هو شارع السيد عبد الحسين شرف الدين، الذي يوصل شارع بئر العبد الرئيس بشارع الشيخ راغب حرب، داخل منطقة الدرس.



□ ثم يرسم بتقاطعه مع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، وبلقائه مع شارع الشهيد أحمد قصير، ساحة مميزة، هي حدود منطقة الدرس الجنوبية الشرقية، وتشكل معلماً بارزاً فيها.

● شارع حارة حريك الرئيس (إلى الغرب).

شارع حارة حريك الرئيس، هو بدوره شارع تاريخي قديم، يعود في حضوره الفاعل إلى الزمن الذي كانت فيه حارة حريك بلدة زراعية صغيرة، محدودة عدد السكان، قبل أن تشهد طفرة البنيان التي تصاعدت في أوائل السبعينات.

يشكل الشارع المتجه من الشمال إلى الجنوب الحدود الغربية لمنطقة الدرس.

إنه شارع بالغ الاهمية، يخدم الضاحية الجنوبية الشرقية بكاملها، من أقصى شمالها عند مستديرة الطيونة، حتى أقصى جنوبها. وتقاطعاته مع الشوارع الرئيسة والثانوية على امتداد مساره، تكاد لا تحصى.

لا مبانٍ مدمّرة على جانبه الغربي. والمباني المدمرة على جانبه الشرقي، لا يتعدّى عددها عدد أصابع اليد الواحدة.

التقاطعات الحسّاسة والمحددة، على امتداد مسار شارع حارة حريك داخل منطقة الدرس عددها ثلاثة:

□ التقاطع الأول، هو مع الشارع الأهم في منطقة الدرس، أي شارع الشورى، أو شارع الدكّاش.

تقترب المباني الموجودة عند التقاطع من حدود الشارع، وتتجاوز حدود التراجع الإلزامي عن محور الشارع، وترسم بذلك لشارع الدكّاش بوابته الغربية المميزة. إن ذلك مشروطٌ بمجملهِ بتنفيذ التخطيط المصدق في هذه المنطقة.

□ **والتقاطع الثاني (والأصح اللقاء الثاني)**، هو اللقاء مع شارع السيد عبّاس الموسوي. وعلى التصميمين، المديني والمعماري، أن يرسما هناك بوضوح البوّابة الغربية لشارع السيد عبّاس الموسوي.

□ **أما التقاطع الثالث، أو المنطقة الحساسة الثالثة**، فهي المثلّث الذي يرسمه تقاطع الشارع، (أي شارع حارة حريك)، مع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، ومع شارع عبد النور الآتي من بعيد، من أقصى الشرق، أي من أبعد من بولفار السيد هادي نصر الله.

إن هذه الزاوية " المثلث"، هي الحدود الجنوبية الغربية لمنطقة الدرس. فيها مبنيان قائمان، وثلاثة مبانٍ مهدَّمة. كانت المباني بمجملها قائمةً حول فناء داخلي فسيح يُستعمل كموقف للسيارات. سيعاد بناء المباني المهدمة ملاصقة للمباني القائمة. إلا أن شكل المكان وموقعه بمحاذاة بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد في زاوية منطقة الدرس، يستلزمان جهداً خاصاً في التصميم المديني، وفي التصميم المعماري.

2- 3 - 2 - الشوارع الرئيسة والهامة،

● من الشرق إلى الغرب.

● شارع الشورى أو شارع الدكاش.

إنه الشارع الأكثر اهمية في منطقة الدرس.

□ فهو الشارع الذي يأتي من خارج المنطقة، من بولفار المطار القديم تحديداً إلى الغرب، ويخترقها ليصل عبر النسيج المبني المتواصل، إلى بولفار كميل شمعون إلى الشرق. شارع الشورى أو شارع الدُّكاش هو شريان رئيس للصلة بين منطقة الدرس والمناطق التي تجاورها.

□ وهو الشارع الأكثر عرضاً، والمرشح لأن يصبح المركز التجاري والاقتصادي لمنطقة الدرس بكاملها، وربما لكل المناطق المجاورة أيضاً.

□ وهو الوحيد الذي يمتد بين الشارعين الحدود (شارع بئر العبد شرقاً، وشارع حارة حريك غرباً) ويتجاوزهما بالأتجاهين. وعلى بوابتيه الشرقية والغربية، عندما نصلهما من خارج منطقة الدرس، أن تدلا عليه، وأن تكونا في مكانهما علامتين فارقتين، وحدثين مدينيين ومعماريين مميَّزين. وقد أشرنا إلى ذلك، عندما استعرضنا إهمية كلٌ من شارعي بئر العبد وحارة حريك، في تقاطعهما مع شارع الدُّكاش أو شارع الشورى.

□ وهو الشارع الديناميكي في حدوده غير المتماثلة حول محوره. فحدوده الجنوبية مستقيمة، متواصلة مع تقاطعات قليلة

العرض. أما حدوده الشمالية فهي متقطعة، وغير متواصلة. فهي تبدأ بخطٍّ منحنٍ عند بوابة الشارع الشرقية عند تقاطعه مع شارع بئر العبد. وفي هذه الحدود ساحتان، ساحة الشهيد صلاح غندور إلى الشرق، وساحة الشورى إلى الغرب. فيبدو الشارع، بعرضه وبساحتيه، مرحباً، فسيحاً، مميزاً، واضح الطابع.

□ وهو الشارع الذي تكثر فيه المباني المهدَّمة على جانبه الجنوبي (أكثر من أحد عشر مبنى مهدماً). أما على جانبه الشمالي، فالمباني المهدَّمة قليلة العدد.

□ لذا يبدو من الضروري أن يكون التنظيم المديني مختلفاً على جانبي الشارع، ومتناغماً في الوقت ذاته، رغم تناقضاته الكثيرة. أما عمارة الشارع فتستوجب عناية خاصة، لتؤكد فرادته وتميزه.

شارع الشهيد أحمد قصير.

شارع الشهيد أحمد قصير هو شارع موازٍ لكل من شارع الدُّكاش وشارع السيد عبَّاس الموسوي.

□ الشارع متوسط العرض، وربما وازى في اهميته الشوارع الهامة الأخرى. إلا أن ميزته الأساسية، هي أنه يخترق منطقة الدرس ويساهم بربطها بجوارها.

□ فهو يخترق منطقة الدرس، من حدودها عند تقاطع شارع بئر العبد الرئيس مع بولفار الحازمية - بولفار المطار

الجديد، ويجتاز شارع حارة حريك الرئيس الحدود الغربية لمنطقة الدرس، ليلتقي مجدداً، عبر مسار ليِّنٍ وشبه دائري، مع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، بمحاذاة مخيم برج البراجنة.

□ من الواضح أن هذا الشارع هو الشارع الرئيس الثاني، المتجه من الشرق إلى الغرب. وأهم ما يميزه، هو شكله، ومساره، والعدد الكبير من المباني المهدَّمة التي تقع بينه وبين بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد. إن التنظيم المديني في هذه المنطقة، والعمارة فيها، يطرحان بقوة، ضرورة التصدي المبدع لإشكالية العلاقة المزدوجة مع شارع الشهيد أحمد قصير من جهة، ومع بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد، من جهة ثانية.

● بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد.

يشكِّل بولفار الحازمية، بولفار المطار الجديد الحدود الجنوبية لمنطقة الدرس.

□ إنها حدود فعلية، إذ شقَّ البولفار هناك بشكل قاس، النسيج المبني الواحد القائم على جانبيه، وأحدث فيه جرحاً بليغاً من الصعب معالجته.

□ ويدل عدد كبير من المباني، قائمة حالياً على الجهة الجنوبية للبولفار، على الجهود المبذولة في التصاميم ورغم أشكال العقارات، لجعل هذه المباني مؤَّحدة التراجع عن البولفار ومصطفة بانتظام في موازاته.

وقد ساهم ذلك في تنظيم، وإن جزئي، للنسيج المبني، كما حاول المساهمة في اعطائه طابعاً وهوية.

□ وتنحصر المباني المهدّمة، الكائنة على الجانب الشمالي للبولفار بينه وبين شارع الشهيد أحمد قصير، تنحصر هذه المباني في وسط المنطقة من جهة، وفي الزاوية الجنوبية الغربية لمنطقة الدرس، من جهة أخرى. والزاوية المشار إليها هي مثلثة الشكل، دائرية الحدود عند التقاطع.

□ لقد أشرنا سابقاً، إلى أهمية إعادة بناء ما تهدم في هذه الزاوية المثلثة، لجهة اندماج ما سيبنى فيها مع شكلها المثلث ومع استدارة حدودها عند تقاطع شارع حارة حريك مع البولفار.

□ ونؤكد أيضاً على ضرورة أن تكون المباني التي سيعاد بناؤها بجانب البولفار داخل منطقة الدرس، موازية له.

2- 3 - 3 - الشوارع الداخلية الهامة

- **شارع السيد عباس الموسوي.**

أهم الشوارع الداخلية في منطقة الدرس، هو شارع السيد عباس الموسوي.

□ يمتد الشارع من الشرق إلى الغرب، عريضاً، مستقيماً، موازياً لشارع الدكاش الرئيس، وموازيا للشارع الرئيس الثاني، شارع الشهيد أحمد قصير.

□ الشارع داخلي في التعريف وفي الواقع، فهو ينحصر داخل منطقة الدرس، وحدوده واضحة وهي بوّابتاه:

- بوابته الشرقية عند التقائه مع شارع بئر العبد الرئيس.
- وبوابته الغربية عند التقائه مع شارع حارة حريك الرئيس.

□ إنه شارع سكني وتجاري بامتياز. إذ كانت المباني تصطف على جانبيه، سكنية في الطوابق العليا، وتجارية في الطابق الأرضي وفي الميزانين.

□ كانت معظم المباني قبل تدميرها خلال الحرب، متجانسة بقياسات كتلها، متلاصقة، مصطفة بموازاة الشارع متساوية التأثير في عمارته، تصنع ما يعرف بواجهة الشارع، أو بجدار الشارع.

□ لقد دمَّرت الحرب الكثير من المباني التي كانت قائمة على جانبي الشارع. وسوف يعاد بناء المباني التي دمَّرتها الحرب، بكتلها، وبمساحاتها الطابقية، وبعدد طوابقها، وبتلاصقها، وبموازاتها للشارع.

□ أن الاهتمام الخاص بدراسة بوابتي الشارع الشرقية والغربية، والعمل على تبسيط الكتل، والإصرار على تلاصقها الإلزامي في الطابق الأرضي، ومحاولة تحريكها في الطوابق العلوية، وإعادة دراسة الواجهات، وتحديث المواد المستعملة فيها، وتهذيب الألوان، وتغطية الأرصفة على ارتفاع خمسة امتار ونصف،

□ إن كل ذلك سوف يساعد في تميُّز الشارع وفي اعطائه طابعاً، وهوية، ولغة معمارية معاصرة.

شارع الشيخ راغب حرب.

؟ هو شارع داخلي هام، يمتد من الشمال إلى الجنوب ويربط شارع السيد عباس الموسوي بالشارع الرئيس الثاني، شارع الشهيد أحمد قصير.

□ توجد على جانب الشارع الغربي الكثير من المباني المدَّمرة. فتوحَّد المباني المدَّمرة الشارعين (شارع السيد عباس الموسوي، وشارع الشيخ راغب حرب)، كما ستوحدهما المنطلقات والأسس المعتمدة في إعادة الإعمار. ويمكن اعتبارهما شارعاً واحداً على شكل .(T) فيلحظ التصميم المديني، التفاف االمعالجات المعمارية الملحوظة على الجانب الجنوبي من شارع السيد عباس الموسوي، على الجانب الشرقي من شارع الشيخ راغب حرب، مع اعتماد تنظيم مديني أكثر حرية في علاقة المباني بالشارع وبالتراجعات عنه، مما يعطي الشارع خصوصيته وطابعه، وربما يعطيه أيضاً لمسات من العفوية في التنظيم.

2- 3 - 4 - الشوارع الفرعية.

تكثر الشوارع الفرعية في منطقة الدرس.

□ فمنها ما هو ناتج عن استحداث طرقات في

التراجعات الخلفية الملحوظة بين المباني، وتحويلها إلى شوارع سكنية وتجارية حقيقية، خارج التخطيطات الملحوظة أو المعمول بها.

□ ومنها ما تشير، بطابعها، وبمسارها، وبعدم انتظامها، إلى أنها كانت في الأساس طرقات زراعية تمَّ تحويلها إلى شوارع، فحافظت على تناقض جميل، بينها وبين الشوارع المنظّمَة، المستقيمة والمتعامدة.

□ إننا نثمِّن هذا التناقض الحي، ونعتبره مظهر غنىً، ندعو إلى المحافظة عليه وإلى إبرازه، لكونه الشاهد على اسقاط المدينة الحديثة فوق النسيج التقليدي للقرية الزراعية، التي كانت توجد في المكان.

2- 3 - 5 - الطرقات الثانوية والدروب والممرات.

□ ان مجموع الطرقات الثانوية والدروب، التي تربط بين الشوارع الرئيسة، والشوارع الداخلية، والشوارع الفرعية، وذلك في كل الاتجاهات خاصة من الشمال إلى الجنوب، هي طرقات فاعلة في النسيج العام، وهي حاملة امينة للذاكرة الجماعية للناس.

□ انها مرايا، تعكس بشفافية وبصدق، روح المكان.

2- 4 - توجهات معمارية عامة (ملخَّص).

* أ - تحدَّد (بفتح الدال المشددة)، الجزر المهدَّمة

جزئياً أو كلياً والمطلوب إعادة إعمارها، بتقاطع الشوارع الرئيسة مع الشوارع الداخلية أو مع الشوارع الثانوية ومع الدروب. أو أنها تحدّد بتقاطع شوارع داخلية، وثانوية، ودرب ضيق خلفي، بعضها مع البعض الآخر.

والتقاطعات الظاهرة في مخطط التنظيم المديني الأخير، تظهر تنوعاً في تكوين هذه الجزر، وتظهرها متراتبة الاهمية داخل المخطط، كما تظهر صعوبات متصاعدة في التأليف المديني وفي الكتابة المعمارية، تعكس خاصيات كل جزيرة، كما تعكس دورها في الكتابة المدينية والمعمارية العامة.

* ب - كل الدروب والممرات، الظاهرة في الخرائط، بما فيها في خرائط المساحة الحالية، والموروثة عن شبكات الطرقات الزراعية التي سبقت فورة الاعمار، سيحافظ عليها في التصميم المديني الجديد، كطرق للمشاة تتسلّل بين المباني، وعبر المجمعات.

* ج - إن علاقة المباني الموجودة والتي سترمم، أو المباني التي سيعاد بناؤها بالشارع، هي علاقة حاسمة، تساهم في صياغة التصميم المديني العام لمنطقة الدرس، كما أنها تساهم في إعطاء كل شارع نكهته، وطابعه، ودوره في التأليف العام.

* د - سيُلحظ في كل المباني التي سيعاد بناؤها على العقارات ذات القياسات الملائمة، طابق أو طوابق سفلية، تخصَّص لتكون مرآباً، يتسع لعدد السيارات كما تلحظها

القوانين المرعية الاجراء. أما في المباني التي سيعاد بناؤها فوق عقارات صغيرة متلاصقة، فسوف يُلحظ طابق أو طوابق سفلية تخصص لتكون مرآباً واحداً يتسع لعدد السيارات كما تلحظها القوانين المرعية الاجراء والعائدة لمجموعة المباني الصغيرة المراد إعادة إعمارها.

* هـ - سيحاول مخطِّط التنظيم المديني لمنطقة الدرس، الاعتناء الخاص بأجزاء العقارات الخلفية غير المبنية (كل العقارات) وسيحاول الاستفادة منها، بالتفاهم والتنسيق بين المالكين، بما يساهم في تحسين الحيز العام والضرورات البيئية.

* و - إن المفاصل والتقاطعات، وإن ارتدت اهمية متفاوتة في التصميم المديني لمنطقة الدرس، فهي بالتأكيد، ورغم التفاوت في اهميتها، بوابات للشوارع، أو علامات فارقة في الأمكنة، أو معالم دالة، أو أحداث معمارية مميزة، ذات قيمة رمزية.

إن لكل من هذه المفاصل أو التقاطعات قيمتها الخاصة في النسيج العام، ومن الضروري إيجاد اللغة المعمارية الملائمة لكل منها، وإبرازها، وإظهار دورها في التصميم المديني لمنطقة الدرس، وفي الكتابة الاجمالية لعمارة المكان.

* ز - إن كل العقارات التي سيتعذر البناء عليها، وكل الفضلات الناجمة عن التخطيطات المعمول بها، ستضاف إلى

الحيز العام، وستساهم عبر تنظيمها في استحداث الفسحات، والساحات، والحدائق العامة.

* ح - تختلف اهمية الشوارع في المخطط المديني بمنطقة الدرس انطلاقاً من تصنيفها: رئيسة، داخلية، فرعية، ثانوية، درب، ممر... إلخ. كما تختلف في مساهمتها الفعلية في حياة الناس اليومية. لذا يعمل التصميم المديني، كما يعمل التصميم المعماري، على إبراز هذه التراتبية في الاهمية وفي الدور.كما يعملان على إبراز طابع كل شارع، وخاصياته، وميزاته، إنطلاقاً من اهميته ومن دوره.

* ط - معظم الشوارع الرئيسة، أو الداخلية، أو الفرعية، في منطقة الدرس هي غير منبسطة. وسيجدُ مخّطط التنظيم المديني والمخطط المعماري لكل شارع أو منطقة، الحلول المناسبة لانعكاسات اختلاف المناسيب على المسطحات، وفي الواجهات، وفي عمارة الشارع.

* ي - من الضروري بذل الجهود لتبسيط الكتل، خاصة في الشوارع الرئيسة وفي الشوارع الفرعية، التي تختزن زخم الحياة المدينية، حرصاً على كتابة عمارة اليفة، قريبة من مشاعر الناس، غير مسقطة بالمظلّات، تساهم باصالة في صنع روح المكان.

* ك - ومن المفضَّل في هذا السياق في تصميم الكتل، وفي الكتابة التفصيلية لعمارة الواجهات، تجميع الشرفات وحصرها في شرفتين أثنتين (جلوس، وخدمة) إذا أمكن. إلا

أنه رغم اهمية هذا التفضيل، يترك لكل معمارٍ مصمم في نطاق عمله، الحرية في الكتابة المعمارية التفصيلية، لجهة تحديد تيبولوجية الواجهات، ودور الشرفات فيها. (شرفات طويلة، شرفات عميقة، شرفات متكررة، لوجيا... إلخ).

2 - 5 - توجهات معمارية تتعلق بالشوارع باختلاف اهميتها، داخل منطقة الدرس وخارجها.

2 - 5 - 1 - الشوارع الرئيسة، هي الشوارع التي تربط منطقة الدرس بجوارها، وبالمدينة.

إن هذه الشوارع كما سبق واستعرضنا تصنيفها هي:

- شارع بئر العبد الرئيس.
- شارع الدكاش أو شارع الشورى.
- شارع حارة حريك الرئيس.
- شارع الشهيد أحمد قصير (بدرجة أقل).
- بولفار الحازمية - بولفار المطار الجديد.

أ - التوجه الأساسي في عمارة هذه الشوارع هو:

● تلاصق المباني.

● إصطفافها بموازاة الشارع عند حدود التراجع الالزامي.

● عمارة الشارع في قراءة شاملة هي جزء مميز في عمارة المدينة.

● الشارع مستمر بأستمرار المباني على جانبيه.

● المنظور متكامل من أول الشارع إلى آخره. لا قطع أفقي فيه.

● تقرأ تيبولوجية الواجهة على الشكل التالي:

- الطابق الأرضي بارتفاع 5,5 م.

- الطوابق العلوية متكررة بحرية. فيها زخرف، وتجاويف، ونتوءات، وفق القوانين المرعية الاجراء.

- يعَالج الطابق الأخير مع السطح، باعتماد مفردات معمارية مختلفة، تدل على نهاية البناء.

ب - الساحات والفسحات.

- المباني التي تحيط بالساحة تحدِّدها، وتصنع مجالها.

- تُدرس الساحة بعناية، من منطلق اهميتها في الحياة العامة.

- عمارة المباني التي تحيط بالساحة، تَصنَعُ هويَّتها وتدلُّ على اهميتها.

- لذا وجب الاهتمام بهذه العمارة بكل مفرداتها.

ج - استمرارية المباني المتلاصقة، وواجهة الشارع.

- تقوم العمارة في الشوارع الرئيسة على مبدأ التلاصق والإصطفاف، ليصنع هذا المبدأ عمارة الشارع أو جدار الشارع.

- إلا أن الاستمرارية هذه، لا تمنع بعض المعالجات في الطوابق العلوية حصراً، تلحظ بعض التجاويف، أو بعض

النتوءات، لأغراض تعنى بتنظيم الكتلة بهدف إغنائها، بالتناغم أحياناً، وبالتناقض أحياناً أخرى. على أن يبقى الغلاف العام موازياً للشارع، ومساهماً فاعلاً في كتابة عمارته.

د - الرصيف أمام الأبنية.

- استمرارية الرصيف أمام المباني ضرورية. رصيف عريض مشجَّر بانتظام، وبالأشجار الملائمة.

هـ - الألوان المقترحة.

- غالباً ما تحدِّد المواد المستعملة ألوان الواجهات. والألوان المفضلة أو المقترحة هي الألوان السائدة ومصدرها طبيعة المنطقة (الرمل، الحجر، التراب) أي أن تكون الألوان فاتحة، مضيئة، بصورة عامة.

- ربما تسمح الهيئة الاستشارية العليا، في مشروع وعد لإعادة اعمار الضاحية، باستعمال جزئي محدود لألوانٍ أخرى في بعض النتوءات أو في بعض التجاويف. إلا أن استعمال مثل هذه الألوان وفي أماكن محددة جزئية من تجاويف البناء أو من نتوءاته، يخضع لموافقة الهيئة الاستشارية العليا. (على الألوان المضافة، أن تكون فاتحة وملائمة).

2-5-2- الشوارع الداخلية.

أهم هذه الشوارع كما سبق وصنَّفناها، هي:

- شارع السيد عباس الموسوي.

- وشارع الشيخ راغب حرب.
- بالإضافة إلى شوارع أخرى أقل أهمية.

لهذه الشوارع، ولشارع السيد عباس الموسوي وشارع الشيخ راغب حرب خاصة، اهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة. بالإضافة إلى ذلك، فإن عدد المباني المدًمرة على جانبيهما كبير.

أ - التوجه الأساسي في عمارة شارعي السيد عباس الموسوي والشيخ راغب حرب.

- تلاصق المباني على جانبي الشارعين.
- اصطفافها على الجانبين بموازاة الشارع، على حدود التراجع القانوي، أو المقترح، وذلك على ارتفاع الطابق الأرضي مع الميزانين (5,5م).
- الرصيف مغطى جزئياً فوق التراجع بغطاء هيكله مثبت إلى جسم المبنى بارتفاع 3,5 م، وذلك على الجانبين وفق ما ورد في الخرائط المرفقة.
- يحدِّدُ منظور الشارع تلاصقُ المباني، والتزامها التراجع، وذلك بارتفاع الطابق الأرضي والميزانين (5,5م).
- يُترك للإستشاري حرية تحديد شكل الكتل في الطوابق العلوية على جانبي الشارع، فوق الطابق الأرضي والميزانين (5,5م).
- إن هذا التناقض بين الاصطفاف والتلاصق في الطابق الأرضي والميزانين، وبين الحرية في صياغة الكتل وفي اللغة

المعمارية في الطوابق العليا، يُنتِج (بضم الياء) طابع الشارعين وهويتهما.

● الإلتزام بالألوان المعتمدة في الطوابق العلوية ضروري.

● للشارعين ثلاث بوابات، وعدة تقاطعات، والعديد من الزوايا الثانوية. على المصمم الإهتمام معمارياً بالبوابة، والتقاطع، والزاوية، كلٌ منها انطلاقاً من موقعه، ومن اهميته في التأليف العام.

2 - 5 - 3 - الشوارع الفرعية والثانوية.

الشوارع الفرعية والثانوية كثيرة. سنورد في هذه الفقرة بعض التوجهات الأساسية في عمارتها.

التوجه الأساسي في عمارة الشوارع الفرعية والثانوية.

● جزء من تصميم الكتل ومن اللغة المعمارية في هذه الشوارع، مستلهم من تصميم الكتل ومن اللغة المعمارية في الشوراع الداخلية المتصلة بها. نذْكر هنا باعتمادنا صيغة الوحدة بين شارع السيد عباس الموسوي وشارع الشيخ راغب حرب، اللذين رأينا فيهما شارعاً واحداً على شكل T.

● التقيد بمبدأ الموازاة مع الشارع ضروري، إلَّا أن تراجع الكتل عن محور الشارع يمكنه أن يكون مختلفاً، ليكون غلاف الشارع أقل قسوة وأكثر ديناميكية، مع لحظ فسحات صغيرة أمام المباني المتراجعة. يبتعد التصميم هنا عن

العقلانية القاسية، ويُفسح (بضم الياء)، في المجال أمام المصمِّم لاعتماد مشاعره وأحاسيسه في التصميم.

● يمكن أن تتعدد الألوان في المباني ضمن مجموعة الألوان المقبولة (ألوان فاتحة متجانسة مع المحيط العام) على أن يخضع اختيارها لموافقة الهيئة الاستشارية العليا.

بيروت في 24/ 1/ 2007

ملحق:
خطوات قانونية واجرائية

يفترض تنفيذ مخطط التنظيم المديني لإعادة إعمار أجزاء الضاحية التي دمَّرتها الحرب
(المخطط العام، والخرائط التفصيلية المرفقة)
اتخاذ خطوات قانونية وإجرائية،
منها:

1 - تنفيذ التخطيطات المصدقة في منطقة الدرس كما هي مثبتة في الخرائط الرسمية المصدقة، وفي الخرائط المرفقة. إن ذلك يتطلب بالضرورة:

1-1- استملاك العقارات الواقعة في مسارات الشوارع الرئيسة.

1-2- هدم المباني أو أجزاء المباني الواقعة على هذه العقارات، لا سيما عند المداخل الغربية والشرقية لشارع الشورى.

2 - العمل على استملاك العقارات الموصى بها لتكون مرائب داخلية للسيارات (عددها ثلاثة مرائب).

3 - إلزام المؤسسات غير النظامية الموجودة في الطوابق السفلية للمباني، وتشكل خطراً على السلامة العامة والبيئة، بالانتقال من الأحياء السكنية إلى مناطق أخرى ملائمة وذلك افساحاً في المجال:

3-1- لاستعمال الأمكنة المخصصة لها كمواقف للسيارات.

3-2- لتخفيف الضوضاء والخطورة التي يشكلها تواجدها في المحيط السكاني.

4 - إقرار البلدية لمخطط التنظيم المديني لإعادة إعمار أجزاء الضاحية التي دمَّرتها الحرب بصيغته المتكاملة، نصاً وخرائط، والعودة إليه مستقبلاً، ليشكل مرجعاً استشارياً لأي مشروع بناء قد يقوم ضمن منطقة الدرس التي عالجها.

5 - التأكيد على إعداد خطة سير مفصلة تحدد اتجاهاته في الشوارع الرئيسة والفرعية وتحديد مواقف السيارات المسموح بها على جوانب الشوارع.

6 - اعطاء الأولوية والاهمية من قبل البلدية لتنفيذ الأعمال الخاصة بالحدائق والمساحات العامة وممرات المشاة التي ستنتج عن تنفيذ التخطيطات، وخاصة فضلات العقارات، لأنها تشكل جزءاً هاماً من التكوين العمراني المتآلف مع المباني السكنية ويخدمها.

توصية

إعداد مخطط توجيهي لبلدة حارة حريك للسنوات المقبلة (2007 - 2030)

13

إعمار الضاحية الجنوبية لبيروت - نموذج للإعمار(*)

نسيج مبنيٌ عصري، يعيد احتضان النسيج الإجتماعي.

I ـ مقدّمة

نقترب من حلول الذكرى الثالثة لحرب أمريكا وإسرائيل على المقاومة، وعلى لبنان.

● ففي الثاني عشر من تموز من العام 2006، بدأت إسرائيل قصفها الوحشي للمناطق السكنية في الضاحية الجنوبية لبيروت، وللبلدات والقرى في الجنوب والبقاع، وللجسور والطرقات والمصانع والمدارس في كل الأماكن.

(*) ألقيت في الندوة التحضيرية لمؤتمر يعنى بإعادة إعمار غزّة. عمّان في 23/ 6/ 2009.

كانت مهمَّة القصف أن يقتل الناس، ويُهجِّر الناجين منهم، ويمنعهم من الوصول إلى أماكنَ يلجأون إليها، بتقطيعه أوصال الوطن. كانت مهمَّة القصف، أن يدمِّر العمران، ويُهجِّر الناس، ويُفرغ الأرض من أبنائها، ويجعل من إيوائهم عملية صعبة، لا بل مستحيلة.

● وفي الثالث عشر من آب من العام 2006، توقفت الأعمال الحربية، التي دمَّر العدوان الصهيوني خلالها، في الضاحية الجنوبية وحدها، (1) 228 مبنى، منها (2) 189 مبنى في قلب حارة حريك. وفيها (3) 3637 وحدة سكنية، (4) و1187 محلاً تجارياً، (5) والعديد من المستودعات والمكاتب.

وبلغ عدد النازحين 21000 نازحاً.

● كان النزوح كثيفاً إذاً، فامتلأت المدارس في كل مكان، كما امتلأت كلُّ الشقق الفارغة، وشاركَ بعضُ النازحين الناس في بيوتهم، بروحٍ من التعاضد قلَّ نظيرها. وسمعتُ حكايا جميلةً عن نازحين احتضنهم الناس في حمص وحلب ودمشق.

● وفي الرابع عشر من شهر آب من العام 2006، أي في اليوم الثاني لوقف الأعمال الحربية، زرت بعض مراكز النازحين، فلم أجد أحداً فيها، كانت فارغة.

المدارسُ فارغة، والشققُ التي استؤجرت على عجل فارغة، والطرقاتُ فارغة. لا زحمة سيارات، ولا أفواج من

الصبايا والشبان على الأرصفة، ولا أطفال يقفزون من رصيف إلى آخر. لقد عاد النازحون... جميعُهم. عادوا إلى قراهم المهدَّمة، يستظلُّون خيمةً أو شجرةً أو بقية من سقف. لم تُفرَغ الأمكنة كما أرادوا. عاد الناس إلى الأرض التي عشقوها، وإلى التراب الذي سقوه بدمائهم.

عادوا إلى أماكن سكنهم وأماكن عملهم، في المناطق المجاورة لقلب بلدة حارة حريك المدَّمر، قبل أن يتأكَّدوا من ثبات وقف العدوان، ومن ثبات وقف الأعمال الحربية. وظهرت في هذه العودة المدهشة، قدرةٌ فائقةٌ على ضبط الإيقاع العام للناس، كما ظهر فيها تعلُّق النازحين الشديد بأرضهم وبممتلكاتهم، وبأماكن عملهم وأماكن سكنهم، وبكلِّ المجالاتِ المتاحة للقائهم وتواصلهم. ظهرت في هذه العودة، الرغبة العارمةُ بالتحدِّي، وبالتصدِّي للحرب، وبالتغلُّب على نتائجها، وبالعودة إلى تملّك الأمكنة مجدداً، وبسرعة.

● وبعد بضعة أيام، زرتُ المناطق المجاورة لقلب حارة حريك المدَّمر، فدُهشت بدفق الناس المنتشرين في كل الأمكنة: في الدكاكين، وفي المتاجر، وفي المقاهي الصغيرة، وعلى الأرصفة، وفوق الشرفات. غابت المدينةُ، وعمَّت الحياةُ الأمكنة. حياةٌ صلبةٌ، مقاومةٌ، متفائلة.

II ـ إعادة الإعمار، نظريات وأوهام... وأطماع.

كثرٌ هم المعماريون، وأكثر منهم الباحثون في الشأن المديني، ومخطّطوا المدن ومنظّموها، الذين يعتقدون أن الدّمار الذي تخلّفه الحروب، هو أقصر الطرق التي تتيح لهم تحقيق أحلامهم في بناء مدنٍ مثالية.

فيهدمون المبانــي المتصدِّعة جزئياً، وهذه التي تجاورها، وتلك التي بعدها أيضاً، حفاظاً على السلامة العامة... هكذا يقولون. ويُزيلون الطرق الرئيسة، والطرق الفرعية، والفسحات، والساحات إن وجدت. يقطعون الشجر المتبقّي ويهدمون كل المعالم. يُزيلون كل أثر للماضي القريب أو البعيد، وكل معلمٍ يداعبُ الذاكرة.

بإختصارٍ، يوسّعون المجالات المدّمرة أضعافاً، ويُزيلون الرُكام بإحتراف عالٍ، فتبدو لهم "طاولةُ المكان" أفقيةً، فسيحةً، فارغةً، نظيفةً، إلا من أوهامهم، التي سيرصفونها كالفسيفساء في مخطّطاتهم الجديدة، وقد استعملوا في كتابتها أكثر التقنيات الرقمية حداثة وإبهاراً. ثم يعمدون بعد ذلك إلى ضمٍّ وفرز جديدين، وإلى إعادة رسم العقارات، وتغيير أشكال الوحدات المبنية، وتوسيع الطرق الرئيسة وجعلها مستقيمة قاطعة كحد السيف، وتغيير المسارات الفرعية، وتعديل كل المخطّطات القديمة.



بإختصارٍ مرة أخرى، سيَعمدون إلى تصحيح الأوضاع التي كانت قائمة قبل الدمارِ...، يزعمون. ويتصوَّرون مدناً مثاليَّةً تقوُم في الأمكنة الشاسعة الفارغة. مدنٌ مثاليةٌ، نظيفةٌ، كل ما فيها مستقيم منتظم، يسكنها ناس آليون، معقّمون، يعملون بالريموت كونترول أو إذا أردتم، بنظام التحكُّم عن بعد.

كثرٌ من هؤلاء هم مثاليون حقيقيون، تمتزج عندهم الرغبة الصادقة بتحسين الأطر المبنية حيث يعيش الناس، بالشطط الفكري، وبالأوهام.

إلا أن خطاب الكثيرين منهم، وربما أوهامهم أيضاً، إنما تشكُل القناع الذي يختبئ وراءه رأس المال المتوحّش، والشركات العقارية الضخمة. ولنا في شركة "سوليدير" مثالٌ صارخٌ على ذلك. إذ هدَّمت الشركة العقارية قلب بيروت عمداً، ونظَّمت تخمينات ظالمة، أدت إلى تهميش المالكين وأصحاب الحقوق، وإخراجهم، وقد بلغ عددهم 130000. فتملَّكت الشركة العقارية قلب المدينة وواجِهَتها البحرية، وعدَّلت مرَّاتٍ عدة وجهة استعمالات الأراضي وعواملَ الاستثمار المعمول بها، وباعت معظم هذه الأراضي من شركات عقارية عملاقة لتبنى فوقها الأبراج، يملكها أغنياء زائرون.

هدمت الشركة العقارية النسيج المدينى المتراكم، وطردت النسيج الاجتماعي الذي كان يسكُنه أو يعملُ فيه،

وأقامت مكان كلِّ ذلك، أبراجاً أو مبانٍ لسكنٍ مؤقتٍ للأغنياء. ومن البديهي أنه سيكون من الصعب أن يقوم فيها مجتمع، وأن تقوم فيها مدينة.

III ـ إعادة الإعمار، الأهداف الرئيسة.

هل هذه مقدِّمة؟ للبحث في موضوع إعادة إعمار ما دمَّرته الحرب في الضاحية الجنوبية لبيروت؟

أجزم أنها في صلب هذا البحث، إذ أردت الإشارة فيها إلى موضوعات ثلاث:

الأولى، وهي بعض المبالغات المنهجية، التي ترافق عادة كل بحثٍ في إعادة الإعمار.

والثانية، خطر الأطماع بأرباح مضاعفة، تجنيها رساميل كبيرة، تحاول التلَّطي بالطموح المشروع إلى التنمية، والتصحيح، والتحسين، والتحديث، والتي ترافق عادةً كلَّ عمليات إعادة الاعمار.

والثالثة، حجم الدمار، وكثافة النزوح، ودلالات عودة الناس الفورية إلى أماكن سكنهم، وأماكن عملهم المدَّمرة.

ففي ضوء هذه الدلالات الهامة، يصبح الهدف الأول لإعادة الإعمار،

أ ـ تأمينُ عودةٍ سريعةٍ للنازحين، إلى أماكن سكنهم وأماكن عملهم،

ب ـ كي لا يطولَ انقطاعهم وتطول غربتهم، فتحدثُ فجواتٌ عميقةٌ في ذاكرتهم الجماعية يصعُب ردمها.

ج ـ وكي يُحافَظَ (بضم الياء) على تعلُّقهم العاطفي بالأمكنة التي تملَّكوها عقوداً .فيعودون إلى حقوقهم كاملة، في كافة أشكال استخدام المجالات المبنية، (1) مستودعات ومطابع ومواقف للسيارات، (2) ومتاجر ومقاه ومشاغل صغيرة، (3) وبعض المكاتب، (4) والآلاف من الوحدات السكنية المختلفة المساحات والتصاميم.

د ـ ويعودون إلى 'ضاحيتهم' كما ألفوها، وعاشوا فيها، وتملَّكوها، لا إلى ضاحية إفتراضية، متخيَّلة، غريبة، مغرِّبة، تزعُم التحديث، والتطويرَ، والمعاصرة.

هـ ـ وكل قراءةٍ في حجم الدمار، وفي تأثيره في مجمل النسيج المبني في المنطقة رغم قساوته ووحشيته، عليها أن تتم من منظار العودة السريعة المذكورة. والقراءة الموضوعية لنسبة المساحات المدَّمرة، تدفع بقوة في هذا الاتجاه. كانت الحرب عدوانية وحشية وقاسية، إلا أن الدمارَ الكاملَ كان موضعياً، ولم يتعدَّ الأربعين هكتاراً، أي ما يعادل أربع ماية ألف متراً مربعاً أو أقل من نصف كليومترٍ مربَّعٍ. وللمقارنة، فإن مساحة وسط بيروت هي ثلاثة أضعاف المساحة المستهدفة في حارة حريك، ومع ردم البحر قبالتها، تصبح بحدود الخمسة أضعاف، أي مليونا وثمانماية ألف متراً مربعاً.

VI ـ إعادة الإعمار، أرقام الكلفة، وآليات التنفيذ.

● لقد قُدِّرت كلفة إعادة الاعمار في الضاحية الجنوبية بما فيها قلب حارة حريك المدَمَّر بست ماية مليون دولاراً اميركياً. (1) أربع ماية مليون دولاراً أميركياً لإعادة تشييد المباني المدمَّرة ولأعمال الترميم الجزئية، (2) ومائة مليون دولاراً لتأهيل البنية التحتية، (3) ومائة مليون دولاراً للإستملاكات الضرورية لاستحداث الحدائق ومواقف السيارات ولتوسيع الأرصفة وتشجيرها... إلخ.

أما حجم التعويضات الإجمالية، والتي من المفترض أن تدفعها الدولة للمتضررين، فيبلغ 45 % من كلفة إعادة تشييد المباني.

● لقد قامت مؤسسة "جهاد البناء"، باعتماد «مشروع وعد لإعادة إعمار الضاحية الجنوبية لبيروت». وفوَّض 96% من المالكين مشروع وعد بأن يعيد الإعمار باسمهم.

● وقام مشروع وعد على هيئات من عدة مناسيب، (1) منسوب إداري تقني، يتولى الإدارة والتنفيذ، (2) ومنسوب اجتماعي إنساني، يتولى التنسيق اليومي مع الناس، في كل ما يتعلق باعادة البناء.

● وبشكل موازٍ لهذين الجسمين، الإداري التقني

والإنساني الإجتماعي، تمَّت تسمية هيئة استشارية تألفت من معماريين ممارسين وأكاديميين، ثلاثة منهم من الجامعة اللبنانية رهيف فياض وجاك خوَّام ومحمود شرف الدين، وواحد من الجامعة اللبنانية الأميركية مارون الدكَّاش، ورئيس رابطة المعماريين (السابق) محمد دندشلي، ورئيس فرع المعماريين (السابق) في نقابة المهندسين في بيروت سني الجمل. انضم إليهم المعمار مدير عام مشروع وعد حَسَن الجشي. وشارك في اجتماعات الهيئة الإستشارية كل من نائب رئيس اتحاد بلديات الضاحية الجنوبية، ورئيس بلدية حارة حريك، وهي البلدة التي تشكل رئة الضاحية الجنوبية، وقد دمَّرت الحرب قلبها، أكرر.

(1) لقد دعت الهيئة الإستشارية المعماريّة ومخططة المدن، والأستاذة في الجامعة الأميركية فـي بيروت هنا علم الدين، إلى المشاركة في اجتماعاتها. وكلَّفتها بإعداد المخطط التنظيمي لإعادة إعمار قلب حارة حريك، معتمدة الخلاصات التي توصلت إليها الهيئة الإستشارية. وتم إعداد المخطط التنظيمي بإشراف الهيئة بشكل كامل. (2) وبعد الإنتهاء من إعداد المخطَّط التنظيمي لإعادة إعمار قلب حارة حريك، قسِّمت المباني التي سيعاد بناؤها وعددها 189 مبنى، إلى 30 مجموعة. (3) وتأمينا للتنوع في الكتابة المدينية التفصيلية وفي الكتابة المعمارية، اختارت الهيئة الإستشارية 30 مكتباً

استشارياً، وكلَّفتها بإعداد الدراسات التمهيدية للمجموعات الـ 30. (4) فأعدَّت المكاتب الدراسات التمهيدية المطلوبة وعرضتها على الهيئة الإستشارية التي ناقشتها، ووافقت عليها بعد إجراء تعديلات جذرية في الغالب. (5) ثم عمدت بعدها هذه المكاتب، إلى إعداد الملفات التنفيذية الكاملة، بالتنسيق مع الجهاز التقني في مشروع وعد، انطلاقاً من المواصفات الموحَّدة، ومن دفاتر الشروط الموحَّدة. (6) تلى ذلك، تلزيم إعادة الإعمار إلى شركات كبرى للمقاولات، بناء على المواصفات الموحَّدة ودفاتر الشروط الموحَّدة التي أعدت مسبقاً، والتي أشرت إليها، (7) وتلزيم الإشراف على أعمال التنفيذ، إلى مكاتب استشارية متخصصة بأعمال الإشراف.

٧ ـ التنظيم المديني الذي اعتمدته الهيئة الإستشارية، الأسس والمعايير.

● التدمير رغم قساوته، ووحشيته، هو تدمير موضعي محدود. والتنظيم المديني الذي اعتمدته الهيئة، هو تنظيم مديني موضعي بدوره. فهو أقرب إلى الخياطة. منظِّم المدن هنا، هو خيَّاط، يكاد.

● إنه تنظيم مديني شديد البعد عن المفاهيم الجراحية في التنظيم، وعن مفاهيم الأرض المحروقة، والطاولة المسطحة

الفارغة. يرسُم عليها منظِّم المدن ما يشاء، متلطياً بمفرداتٍ مثل التحديث، وجودة الحياة، والحفاظ على البيئة، والتهوئة، والتشميس وغيرها، ويرى في الحرب رافعةً حاسمةً لكل تحديث وتطوير. فلنستفد من الحرب يقول بعض المنظِّرين. وعليه بالتالي، أن يُنتج (بضم الياء) مبانٍ قياساتها في الطول والعرض والإرتفاع وعدد الطوابق، مماثلة للمباني التي هدِّمت، لتتناغم مع المباني التي تجاورها مباشرة، أو تلك الموجودة في الإمتدادات المتاخمة، وليكون تأثيرها في النسيج العام المبني مماثلاً لتأثيرها.

• إنه تنظيم مديني يحصُر الدمار، ويرمِّم كل ما يمكن ترميمه، خلافاً لما حصل في أماكن أخرى من بيروت. ويحرُص على الذاكرة الجماعية للناس، يحميها، ويحصِّنها، لتساهم في وحدة النسيج الاجتماعي وفي تماسكه. والذاكرة الجماعية للناس يحتضنها الحيز العام في المدينة أو في جزءٍ منها، أي الطرقات، والشوارع الرئيسة والفرعية، والدروب والساحات والفسحات والحدائق، والأرصفة خاصة.

• والمدينة، أو أي جزء منها، في وسطها أو في أطرافها، إنما تصنعها أو تصنع هذا الجزء أو ذاك منها، عناصر ثلاثة،

(1) الموقع الطبيعي الذي تقوم عليه المدينة، أو أي جزء منها، بكل ميزاته .

(2) وشبكة الطرقات والساحات والفسحات التي

تقسِّمها، أو تقسِّم أيَّ جزءٍ منها، إلى شوارعَ، وأحياءَ، وجزر مبنية في هذه الأحياء.

(3) وشبكة العقارات الموجودة، وتعدُّد الملكيات العقارية فيها، وتقارب مساحاتها أو تفاوتها.

● والتنظيم المديني الموضعي الذي اعتمدته الهيئة الإستشارية، يقوم على أفكار بسيطة، أساسها دائماً عودة النازحين السريعة إلى أماكن سكنهم وأماكن عملهم، وتصليب ارتباطهم بالأمكنة، وتعزيز تعلقهم العاطفي بها، وتمتين الذاكرة الجماعية لديهم. وأهم هذه الأفكار:

(1) المحافظةُ على الشوارع الموجودة، الرئيسة والداخلية والفرعية، وعلى الممرات الضيقة، والدروب الملتوية والمتعرجة الموروثة من زمن الزراعة والبساتين. يُحافظ عليها ممراتٌ مشجرةٌ للمشاة وللعابرين بين الأحياء.

(2) المحافظةُ على العقارات كما كانت عليه، بقياساتها بحدودها وبمساحاتها، وعلى الملكيات العقارية، وعلى الحقوق المثبتة للسكّان، والموثَّقة في خرائط الإفراز الصادرة وفق الأصول، وفي تقارير اللجان المختصة بالتواصل مع المالكين والشاغلين. لا شركات عقارية هنا، تنزع ملكيات الناس، وتسرق حقوقهم كما حصل في مناطق أخرى من بيروت. لا ضمٌّ، ولا إفراز جديدين يغيِّران النسيج المديني، متلطِّيان بصعوبات التعامل مع الحقوق المتعددة، ومؤديان بالضرورة إلى تغيير الملكية، وتغيير النسيج الاجتماعي.

● والهدف الأول للتنظيم المديني الموضعي الذي اعتمدته الهيئة الإستشارية، هو إنتاج نسيج مديني عصريٍّ، مرحِّبٍ، ملائم، أليفٍ، يُعيد احتضانهُ للنسيج الاجتماعي، الذي سكنه خلّال العقود الماضية.

والنسيج الاجتماعي هذا، إنما عرفناه نسيجاً متعاضداً، متماسكاً، متآلفاً، متعلّقاً بالأمكنة التي سكنها، عاشقاً لأرضه. وسوف يعود هذا النسيج بعد إعادة الإعمار، إلى تعاضُدِه، وتماسُكِه، وتآلُفِه في ضاحيته وقد أعيد بناء ما دمَّرته الحرب فيها، في ضاحيته الجنوبية كما يرى البعض، وفي جنوب بيروت كما أرى أنا، رافضاً مقولة الضاحية، لأن المدينة قد امتدت إليها منذ زمن بعيد.

VI ـ إعادة الإعمار، والتحسين الممكن.

أين التحسين؟ الموعود؟ سيسأل الجميع بالتأكيد.

التحسين، في ما اعتمدته الهيئة الإستشارية، ظاهرٌ في ما تم بناؤه إلى الآن. وسيستمر في الظهور تباعاً، في كل ما سيبنى في عملية التشييد المستمرة منذ ما يقارب السنتين. يقوم هذا التحسين على مناسيب متعدِّدة:

● فهو مديني أولاً،

إذ يتم العمل على تنفيذ التخطيطات الملحوظة والمصدقة،



(1) بما يسمح بالمحافظة على المسارات، أمكنة الذاكرة الجماعية للناس، كما سبق وذكرت.

(2) ويسمح في الوقت ذاته، بتصنيف الشوارع إلى رئيسة، وداخلية، وفرعية، وإلى دروب وممرات مشجرة للمشاة، مكرراً مرة أخرى،

(3) كما يسمح بتصنيف الشوارع وتميُّزها، وإعطاء كل منها طابعاً خاصاً به .

(4) كما يسمح بتشميسٍ أفضل وبتهوئة أفضل أيضاً، وبتنظيم السير وتسهيل المرور، ولحظ مواقف مؤقتة للسيارات بمحاذاة الأرصفة أمام المتاجر والمحلّات والدكاكين، ومواقف دائمة لسيارات الساكنين، في الفسحات الداخلية أحياناً، وفي الطوابق السفلية غالباً.

(5) ويعزِّز الحيز العام، مكان الذاكرة الجماعية الأكثر صلابةً، ومكان تنفُّس هذا الجزء من المدينة، ومكان لقاء الناس وتواصلهم. كل ذلك بتحسين المسارات، وتعريض الأرصفة وتشجيرها، وتنظيم الساحات والفسحات والفضلات، وإستملاك بعض العقارات الملائمة، وإقامة الحدائق فيها، تبنى تحتها مواقف عامة للسيارات.

- وهو مديني معماري ثانياً،

(1) إذ إن التنظيم المديني الذي اعتمدته الهيئة الإستشارية، قد أعاد إنتاج كتلٍ مبنّيةٍ متناغمةٍ مع جاراتها ومع

محيطها، منتظمةٍ، بسيطة الأشكال، أليفة، هادئة بألوانها ألوان أرضنا، ألوان التراب والصخر والرمل. (2) كما نظَّم علاقة هذه الكتل بالشوارع، وبالشارع الرئيس خاصة. فهي موازية له، متلاصقة غالباً، تنتصب عند حدود التراجع الإلزامي، حيث نقرأ في واجهة الشارع أو في جدار الشارع، مداخل واضحة إلى الفسحات الداخلية، كما نقرأ بسهولة بَّوابات الشوارع الرئيسة والداخلية.

(3) وفي الزوايا الهامة، وعند التقاطعات لُحظت (بضم اللام) مبانٍ مدروسة بعناية، مبانٍ دالة لها صفةُ المعالم، فتبدو في موقعها، كأحداث معمارية بارزة.

(4) فيحسِّن التنظيم المديني الذي اعتمدته الهيئة الإستشارية، علاقة المباني بالناس، الساكنين والمارة على السواء، مشدداً على علاقة المباني بالأرصفة، وعلى إبراز مداخلها، وإبراز موقع الشرفات فيها، وعلى مساحة هذه الشرفات وتجميعها، وحسن استعمالها في وظيفتها، كمجالٍ انتقالي بين الداخل والخارج، للتواصل مع المجالات الخارجية ومع الناس.

- وهو إجتماعي إنساني ثالثاً،

(1) إذ إن تصميم المباني وإعادة بنائها بمساحاتها الطابقية، وبالوظائف التي توزعت على مختلف الطوابق، إنما تمَّ بمشاركة مباشرة من الناس، أصحاب الحقوق. عندما

سكن الناس المباني التي هدّمت، أو استثمروا دكاناً أو مستودعاً، إنما اشتروا الشقة أو الدكان أو المستودع من تاجر البناء. وجدوا المبنى ملائماً، فعالجوه بتعديلات طفيفة ربما، وسكنوا الشقة، واستثمروا الدكان أو المستودع سنوات، أو ربما عقوداً.

(2) أما في عملية إعادة الإعمار المستمرة بسرعة فائقة، فإن الدراسات التمهيدية، أُعدَّت انطلاقاً من خرائط الإفراز الموثَّقة، ومن تقارير لجان الإتصال مع الأهالي.

(3) ثم عُرضت التصاميم على الأهالي الساكنين أو المستثمرين، فأبدوا ملاحظاتهم عليها وهي كثيرة وتطال: المساحات الملحوظة، وطريقة توزيع الوظائف داخل المسكن وطريقة الانتفاع بها، والمسارات الداخلية التي تربط الوظائف بعضها بالبعض الآخر. وغالباً ما تطال الملاحظات أدق التفاصيل، مثل الدخول إلى المسكن، ومساحة المدخل، ومرحاض الزوار وبابه الخفر بالضرورة، وموقع المطبخ، وسهولة الوصول إليه من القسم المخصص للأسرة، وغرفة النوم التي عليها أن تصلح لتكون غرفة للقاء الأسرة اليومي، وغرفة الطعام المستقلة والمفصولة عن المجلس، ليسهل الإنتفاع بها بطريقة أخرى، .... وغير ذلك من الملاحظات التفصيلية.

(4) لقد تعدَّت الملاحظات بالطبع، ما هو ظاهر في خرائط الإفراز، وفيها الكثير من التعديلات والإضافات، وفق

ما ارتآه الساكنون اليوم. بعد سكنهم الطويل في شقتهم التي هدَّمتها الحرب.

أرى في ذلك شكلاً من أرقى أشكال الديمقراطية المباشرة، ورؤيةً متقدمةً لإعداد التصميم المعماري بمشاركة المنتفعين به مباشرة.

(5) في عملية إعادة الإعمار، يشارك الساكنون في تصميم مسكنهم، وهو شقة في بناء يضم عشرين إلى ثلاثين شقة، جاعلين منه إطاراً حقيقياً لحياتهم، يحتضن طريقة عيشهم كما يرونها اليوم، لا كما كانت عليه عندما اشتروا المسكن من التاجر منذ سنوات، أو منذ عقود.

إننا نعيد بذلك انتاج طريقة عيش الناس بمشاركتهم المباشرة.

● **وهو فني، تقني، مهني، رابعاً،**

(1) إذ أننا نعيد الإعمار اليوم، ونحن في قلب المعاصرة. من انتظام الكتل، إلى بساطتها وتلاصقها، وإلى كتابتها لواجهة الشارع أكرر. نعيد إعمار جزء من مدينة، وفق معايير في التنظيم المديني واضحة، ولا نعيد إعمار مجموعة من المباني متنافرة، لا رابط تنظيمي بينها. إنها مبانٍ نكتبها من تيبولوجيات متناغمة متجانسة في واجهاتها.

(2) الفتحات وقياساتها ونسبها، مقارنةً بالمساحات الصمَّاء في الجدران، تتكرر أحياناً وتختلف أحياناً أخرى،

ضمن قراءةٍ لوحدةٍ في المعالجات عبر تنوعها، إلى الأبجدية المستعملة في صياغة لغة العمارات،

(3) إلى المورفولوجية المدينية في الشوارع والفسحات الداخلية. فالشرفات غائرة أحياناً (لوجيا)، والظلال في قلب المباني تحكي عمقها ودفئها. وهي بارزة أحياناً أخرى، والظلال أنغامٌ في الواجهات.

والنتوءات عامودية بحضورها وظلالها، يراد لها غالباً أن تدل على مداخل المباني، أو أن تزنّر أحياناً الشرفات البارزة وتنظّمها.

وتكثر قراءة واجهات المباني كقراءة الأعمدة الكلاسيكية الإغريقية والرومانية، أي أن نرى فيها قاعدة وجسماً وتاجاً.

(4) إلى الألوان الهادئة، والابتعاد عن كل ما هو مفتعل، غريب وصارخ. مع استعمال ملائم لتقنيات اليوم، ومع الاستفادة من التجديد الهائل في مواد البناء، ومع التركيز على مبادىء السلامة العامة، وثبات البناء، ومقاومته للزلازل، وتجهيزه بالشبكات العصرية الآمنة، وسهولة الوصول إليه في الحالات الإستثنائية.

VII ـ الوضع الحالي، والتوقعات.

في شهر تموز من العام 2007، أي في الذكرى الأولى للحرب على لبنان، إنطلقت ورشة؟مشروع وعد؟

لإعادة تشييد المباني المدمَّرة في الضاحية الجنوبية، وعددها كما ذكرت في بداية هذا النص: 228 مبنى. منها 189 مبنى في قلب حارة حريك الذي دُمِّر.

(1) في محطات متلاحقة من العام 2009 تم انجاز 37 مبنى، سلمت إلى اصحابها .

(2) وفي آب المقبل أي، في الذكرى الثالثة لانتهاء الأعمال الحربية، سيتم إنجاز 50% من المباني المدمَّرة (وهي شبه منجزة الآن) وستُسلَّم إلى أصحابها.

(3) أما النصف المتبقي من المباني، فهي في مراحل متفاوتة من تقدم البنيان. ومن المتوقع أن يتم إنجازها وتسليمها إلى أصحابها تباعاً، خلال سنة وبضعة أشهر، أي في خريف العام 2010، في أبعد تقدير.

(4) لقد أُعِدَّت دراسة كاملة لترميم واجهات المباني المسكونة الآن، والتي لم تتأثر بالقصف وعددها 81 مبنى، وسوف تتم أعمال الترميم تباعاً، بالتزامن مع انتهاء إعادة الإعمار. ستتم أعمال الترميم هذه من الخارج، دون إقحام "الورشة" في حياة الساكنين.

VIII

خلال النقاش الذي دار حول «مسألة إعادة الإعمار في الضاحية الجنوبية»، قرأت في الصحف اقتراحاً يقضي بتصميم «ساحة للنصر والتحرير» في قلب المنطقـة المدمَّرة.

جوهر الإقتراح هو الإبقاء على «دمارِ وسط الإعمار» يذكِّرنا بالحرب لضمان اللاعودة إليها.

هراء كاملٌ.

اللبنانيون لم يحاربوا، ليضمن الدمار عدم عودتهم إلى حربِ أخرى... ثامنة، وتاسعة وعاشرة.

اللبنانيون قاوموا، ودافعوا عن أرضهم، وأفشلوا الصهيوني المعتدي.

شنَّت أميركا وإسرائيل حرباً علينا. وحرب أميركا مستمرَّة في أفغانستان وفي العراق.

وبالأمس دمَّرت إسرائيل غزة وقتلت الآلاف، ونحن في صدد التحضير لمؤتمر حول إعادة إعمارها.

وهل أن حكومة الكيان الصهيوني الأخيرة، وبرنامجها، وخطاب رئيسها، شيء آخر غير الإعلان الفاشي العنصري عن حرب دائمة!؟

لا حاجة بنا لأن نتذكر. فالحرب مستمرَّة، ونحن نرى الدمار والشهداء على شاشات التلفزة كل يوم.

ولا حاجةِ لدمارِ يدوم ليذكِّرنا.

نحن أعدنا البنيان، وسنستمر في إعادة البنيان.

وسنعمِّر غزَّة بعد أن نكون قد عمَّرنا الضاحية الجنوبية لبيروت.

فلنعمِّر...، ولنستعد دائماً...، لنقاوم.

السفير في 26 حزيران 2009

V

في تعليم العمارة في الوطن العربي وفي الثقافة الوطنية، ومواجهة الأمركة

•

14- كتاب: "تعليم العمارة في الوطن العربي".

وقائع ورشة العمل التي عقدت في بيروت في آذار/ مارس 2006.

15- «تعليم العمارة في الوطن العربي".
ورشة عمل عقدت في بيروت في آذار/مارس 2006.

16- مؤتمر مسؤولي التعليم الهندسي في الوطن العربي.

17- شخصيتنا، في الثقافة، وفي العمران وفي العمارة... بمواجهة العولمة.

14

كتاب: "تعليم العمارة في الوطن العربي"

وقائع ورشة العمل التي عقدت في بيروت، في شهر آذار/مارس 2006

I ـ المقدمة

يتضمن هذا الكتاب وثائق ورشة العمل التي نظمتها هيئة المعماريين العرب، بالتعاون مع نقابتي المهندسين في بيروت وطرابلس، وعُقدت في بيروت في 23 و 24 و 25 آذار/ مارس 2006.

إنها ورشة العمل الأولى، التي ناقشت برؤية شاملة، مسألة "تعليم العمارة في الوطن العربي". وكل ما استطعنا الإطلاع عليه في هذا المجال قبل الورشة،هو، بعض الأبحاث التي نشرت في مجلة "التعليم الهندسي"، الصادرة في الكويت عن "اللجنة الدائمة للتعليم الهندسي"، التابعة

لاتحاد المهندسين العرب، أو في مجلـة "عالم البناء"، أو في مجلات تُصدرها بعضُ الجامعات العربية، التي تعلّم العمارة.

وربما كانت المساهمة العربية الوحيدة في مسألة تعليم العمارة والتي سبقت ورشتنا، هي المشاركة المحدودة في المؤتمر العلمي، الذي نظمته في مطلع الألفية الثالثة مكتبة الإسكندرية مع الاتحاد الدولي للمعماريينUIA تحت عنوان: " التعليم المعماري في الالفية الجديدة"، الذي شاركت فيه مصر والسعودية والإمارات فقط. وقد صاغ المؤتمر مجموعة من القرارات العامة، يطوّعها كل بلد وفقاً لظروفه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما رأى المؤتمرون.

فتحدثت القرارات عن ضرورة أن تتناول المشروعات والأبحاث في الجامعات، صياغات جديدة لمشكلات الحاضر والمستقبل، كما تحدثت عن وجوب ارتباط المنتَج (بفتح التاء) المعماري بالبيئة الطبيعية، وبالمجتمعات وبتراثها الثقافي، وعن وجوب تملُك المعمار للقدرة على إدراك المفاهيم السائدة في مجتمعه، وعلى صياغة تعبيرات عملية تتعلق باحتياجات هذا المجتمع وأفراده، في كل ما يتعلق بتنظيم المجالات وبتقنيات الإنشاء والبنيان. وعلى المعمار أيضاً أن يتملَّك القدرة على استخدام كل السبل، للحفاظ على التراث المبني وعلى الاتزان البيئي، وعلى الاستخدام العقلاني للموارد المتاحة.

وتحدثت القرارات أيضاً عن الدرجات العلمية، وعن البرامج التعليمية، ورأت أنه من الضروري أن تعتمد بالدرجة الأولى على معايير موضوعية، تضمن الحصول على مستوى تعليمي متميِّز.

II

كانت الرؤية واضحة بالنسبة لنا في هيئة المعماريين العرب، والإجماع كان واضحاً أيضاً، وذلك في ضوء ناتج النشاطات التي سبقت ورشتنا في مجال تعليم العمارة.فالمدن العربية تتمدد بشكل عشوائي. فتتضخم، وتبدو مكتظة بناسها مختنقة بهم. وكثيراً ما تسود في التنظيم المديني، بفعل الزحف إلى المدينة وبضغط أصحاب الرساميل الجشعة، نظريات الأرض المحروقة أو "الطاولة الفارغة"، التي تلتهم المتبقي من طابع معظم المدن العربية، وتفقدها ما تبقَّى من هويتها. فتغزو النسيج المديني في معظم المدن العربية، عمارة ملوَّثة وملوِّثة فقدت كل قيمها المفترضة. فلا قيمة اجتماعية فيها، ولا قيمة انتفاعية تقوم على تلبية الحاجات الحقيقية للناس، ولا قيمة جمالية، ولا قيمة إبداعية ابتكارية، ولا وجود فيها لأية قيمة رمزية.إلا إذا دلَّت المشاريع الكبرى وأبراجها التي تشيَّد في هذه المدينة العربية أو تلك، على إهمال كامل للموارد المحلية المتاحة، وعلى هيمنة مطلقة

للتقنيات المنقولة بشكل آلي فاقع مسيطر، أو إذا دلّت فعلى جبروت رأس المال وعلى جشعه.

إنه مرض "خبيث"، ينتشر في جسد المدن العربية بدون استثناء. وتسمية الداء، وتسمية مسبباته الموضوعية بأسمائها الحقيقية دون أية مواربة، لا يعفينا من التساؤل، ما هو دور المعماريين العرب في كل ذلك؟ وما هي مسؤوليتهم!؟

III

يطرح هذا التساؤل مسألتين رئيستين:

المسألة الأولى، وهي المسؤولية الاجتماعية للمعمار العربي، ودور المعماريين العرب في كتابة عمارة مدنهم.

والمسألة الثانية، وهي دور التكوين الاكاديمي والمعرفي للمعماريين العرب، في ممارستهم المهنية؟ أي ما هو دور تعليم العمارة في الوطن العربي؟ في انتشار الأمراض الخبيثة التي أشرنا إليها؟

كان لا بد في ضوء هذا التساؤل المزدوج، من العودة إلى بدايات تعليم الهندسة وتعليم العمارة في الوطن العربي. بدءً بمجيء الإرساليات الغربيَّة المبكر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، إلى كل من فلسطين ولبنان وسورية، ناشرة تعاليمها وثقافتها، وصولاً إلى إصلاحات السلطان عبد الحميد في الإمبراطورية العثمانية، وإنشاء معهد للفنون

الجميلة في اسطنبول على غرار المدرسة العليا للفنون الجميلة في باريس، واستقطابه للعديد من طلاب العمارة في البلدان العربية، مروراً بالعديد من الطلاب العرب الذين ذهبوا للدراسة في فرنسا وفي امريكا وفي بريطانيا في السنوات الأولى من القرن العشرين، من لبنان وسورية وفلسطين خاصة، وصولاً إلى زمن الانتداب، ومدارس الهندسة التي أسسها المنتدَبون (بفتح الدال) الكولونياليون، في بداية القرن العشرين، في البلدان الواقعة تحت سلطة انتدابهم.

فكان النص المميز للمحامي عبد الحميد فاخوري من لبنان، بعنوان: " لمحات عن تعليم الهندسة وتعليم العمارة في بلدان المشرق العربي في أواخر العهد العثماني"، وفيه فقرات جميلة عن "الهندسة"، "والهندزة"، وعن المعلمين المهرة، من بنائين ورخَّامين... تتلمذوا على مهندسين من إيطاليا غالباً، وورث أولادهم المهنة عنهم، وعن هؤلاء المعماريين الإيطاليين الذين صمَّموا الدور والقصور في لبنان.

تبع ذلك نصوص لكل من د. هشام جريشة من مصر، ود. جورج عربيد من لبنان. وأشير بشكل خاص في هذه الفقرة إلى النص الممتع للدكتور شادي غضبان من فلسطين.

IV

تبع ذلك البحث في البرامج الحالية لتعليم العمارة في

الوطن العربي، في مرجعياتها وتفرعاتها، وفي مدى ملاءمتها للخصائص الوطنية والقومية للبلدان العربية. فكانت نصوص ثلاثة، فيها عرض ومقارنات لهذه البرامج. نص د. سوسن الطوخي ود. محمد الهمشري من مصر، ونص د. مارون الدكاش من لبنان، ونص د. ليلى البسطامي من الأردن. وقد اختيرت البلدان الثلاثة لتنوع برامج تعليم العمارة فيها، ولتوزعها بين القطاعين الرسمي والخاص.

وبعد البرامج ومقارنتها، انتقلت الورشة إلى مضمون هذه البرامج، إي مضمون تعليم العمارة في الوطن العربي، طارحة اشكالية مزدوجة. أي معمارٍ نريد؟ لأية ممارسة مهنية؟

والمتحدث الرئيس في موضوع مضمون التعليم، كان د. ممدوح عبد الكريم نائب رئيس هيئة المعماريين العرب من مصر، وقد تناول في نصه المشروع المعماري، كهدف للتعليم، وكوسيلته الرئيسة. تبعه نصان جميلان لكل من م. طوني شكر من لبنان ود. فريد يونس من لبنان أيضاً، ونص ثالث للدكتور أحمد راشد من مصر.

وفي ضوء مقارنة البرامج وتحليل مضمونها، استجابة للإشكالية المزدوجة أي معمارٍ عربي نريد؟ لإية ممارسة مهنية؟،عالجت الورشة موضوعة تعليم العمارة وفرص العمل، متناولة مسألة إعداد الخريجين ومتطلبات السوق، في نص ممتع للدكتور مصطفى المزوغي - ليبيا، ونص ثانٍ شامل، فيه الكثير من التفاصيل والمعلومات عن ممارسة المعماريين

الأردنيين لمهنتهم. والنص الثاني، كان للمعمار كريم الخماش من الأردن.

وزبدة موضوعة المضمون في تعليم العمارة في الوطن العربي، كان في معالجة الورشة، لمسألة تعليم العمارة في الوطن العربي وعلاقته بالعمارة وبالفنون اليوم، متوقفة عند القوى المعمارية العالمية والمعماريين النجوم، وعند قوة تكنولوجيا المعلومات وسطوة الإعلام المرئي، وعند قوة الصورة والفنون اليوم، كالفن المفهومي، والتجهيز، والصورة الرقمية، والفيديو آرت والفن المرئي... وخلافه.

نصّان جميلان ممتعان للأستاذ المعمار الكسي مكرزل من لبنان، وللدكتور ياسر صقر من الأردن.

V

انتقلت الورشة بعد مضمون البرامج، وعلاقة إعداد المعماريين بسوق العمل، إلى موضوعة ضمان الجودة في تعليم العمارة، من خلال مسألتين:

المسألة الأولى، كانت مسألة الشهادة العالمية. فتساءلت الورشة، هل أن توحيد الشهادة بين أميركا الشمالية وأوروبا، هو توحيد فعلي؟ أم أنه مجرد تقاطع وأداة تبادل؟ وقد عالج هذا الموضع الأستاذ رمزي سلامه مدير مكتب اليونسكو الإقليمي بالوكالة في بيروت.

والمسألة الثانية، كانت موضوعة اندراج تعليم العمارة في الوطن العربي، في منظومة الشهادة العالمية، متسائلة مرة أخرى إذا كان هذا الاندراج تبعية وإملاءات؟ أم هو حاجة حقيقية؟ وتطوير فعلي؟ في نص للدكتور هشام عارف من مصر.

وتابعت الورشة موضوعة الجودة في تعليم العمارة، بمعالجتها قضية التبادل والتنسيق بين البلدان العربية في مجال تعليم العمارة، وفي مجال ضمان جودة هذا التعليم، في نص للدكتور محمود شرف الدين من لبنان.

ثم اختتمت مسالة الجودة بطاولة مستديرة حول آليات التعاون والتنسيق بين البلدان العربية في مجال ضمان جودة تعليم العمارة، أدارها الأستاذ رمزي سلامه مدير مكتب اليونسكو الإقليمي بالوكالة في بيروت، شارك فيها المعمار رهيف فياض رئيس هيئة المعماريين العرب، وعدد من المتحدثين.

VI

لقد تميزت الورشة خلال الأيام الثلاثة لانعقادها، بمشاركة المعماريين اللبنانيين الكثيفة، وبحضور عربي لافت. إذ حضر الزملاء المعماريون العرب، باحثون ومشاركون من مصر، وليبيا، وسورية، والأردن، وفلسطين، ولبنان،

وتونس، والجزائر، والمغرب، والمملكة العربية السعودية، والعراق، والكويت.

وانعكس الاهتمام الكبير بموضوع الورشة، بالأبحاث التي ألقيت فيها، وفي المناقشة المعمَّقة والطويلة، لمشروع التوصيات الذي تلي في الجلسة الختامية، وساهم فيها كل المشاركين.

والتوصيات في صيغتها المعدَّلة، والمنشورة في خاتمة هذا الكتاب، هي المحصلة الأمينة لكل المقترحات، من إضافات، وحذفٍ، وتعديلات.

فهي تتضمن الإشارة الواضحة إلى الوضع العربي المتردي في ميدان العمران والعمارة، وتؤكد مسؤولية المعمار العربي في هذا التردّي، وترى في التصدي المسؤول لمسألة تكوين المعمار وتربيته مدخلاً رئيساً إلى المعالجة. فالبحث في تعليم العمارة، ربما يشكل المدخل الأوّل إلى التغيير والإصلاح والتطوير .

لذا جاء في الخاتمة، أن تعليم العمارة يعني إعداد المعمار، بثقافة معمارية، وثقافة مدينية، وثقافة بيئية.

إنها ثقافة موسوعية، تدرك ضرورة التكامل بين العمارة، والبيئة، والمكان، والناس بثقافتهم وتقاليدهم، وتحرص على حماية التراث الوطني المبني والطبيعي.

إنها ثقافة، نقدية، نقيضة ثقافة الصورة والإبهار، ثقافة منفتحة على اتجازات العصر.

ثقافة وطنية جامعة، محصنة بمعرفة واسعة في علوم المجتمع، وفي تقنيات البنيان وتكنولوجياته ومواده، المعاصرة منها على وجه الخصوص.

وركزت التوصيات على ضرورة المرونة في المسارات التعليمية، وعلى الليونة في التنقل بين الإختصاصات المتقاربة، وبين الجامعات والمعاهد التي تعلم العمران والعمارة، على أن يكون كل ذلك مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالبحث العلمي. فتُستحدثُ مختبرات البحث العلمي في الكليات والمعاهد والأقسام، وتكون أساساً رئيساً للتعليم المعماري العالي.

كما ركزت على التدريب المهني الإلزامي خلال مرحلة الدراسة وبعدها، وعلى ضرورة حصول المعمار الخريج على "إجازة للممارسة المهنية".

وشددت على ضرورة إقامة نظام للتعليم المستمر، للأساتذة وللمعماريين الممارسين على السواء.

وطالبت بإدخال مبادئ البيئة، والتنظيم المديني، والعمارة، في التعليم العام في الوطن العربي.

وشددت التوصيات على ضرورة استقلالية تعليم العمارة عن كليات الهندسة وعن معاهد الفنون، حرصاً على خصوصيات هذا التعليم وعلى تميّزه.

وأوصت بمتابعة هذا التوجه العام وبلورته، وفتح الحوار حوله بين جامعات الوطن العربي، مؤكدة أنَّهُ من الضروري

أن يكون لهيئة المعماريين العرب، دور رئيس في هذا المجال.

لذا اقترحتُ أن تتشكل داخل الهيئة خلية مهمتها:

* البحث المستمر في مسألة تعليم العمارة، وفي سبل تأمين جودة هذا التعليم.

* عقد حلقات نقاش، أو ورشات عمل دورية، لمتابعة تنفيذ توصيات الورشة، ومراجعتها، وتطويرها، على أن تعقد هذه الحلقات أو ورشات العمل، مرة كل سنتين.

* السعي لتكوين هيئة عربية للإعتماد، ولمتابعة مسألة جودة تعليم العمارة، ولتحديد معاييرها والعمل على تطوير هذه المعايير في ضوء المتغيرات العالمية، والحاجات العربية، والقدرات والخاصيات الوطنية في كل بلد عربي.

* تعميم وثائق الورشة على النقابات الهندسية العربية، وعلى الهيئات المعمارية، وعلى الجامعات والكليات والمعاهد التي تعلم العمارة، وعلى مراكز الأبحاث التربوية.

VII

أشكر في نهاية هذه المقدمة، بإسمي وبأسم هيئة المعماريين العرب، اللجنة التحضيرية للورشة، واللجنة التنظيمية، وجيمع المساهمين، من رؤساء جلسات، ومتحدثين، ومناقشين، ومشاركين.

كما أشكر جميع الجهات الداعمة. وأخص بالشكر نقابة المهندسين في بيروت التي احتضنت الورشة طيلة ثلاثة أيام كاملة، فأقيم معرض تعليم العمارة في لبنان، في البهو النقابي الكبير، أمام قاعة المحاضرات حيث تتابعت أعمال الورشة.

وأخص بالشكر أيضاً المعماريين الزملاء، إميل العكرا، ومحمد دندشلي، ومحمود شاهين، الذين شاركوا في إعداد هذا الكتاب.

بيروت في 8/ 10/ 2007

15

"تعليم العمارة في الوطن العربي"

ورشة عمل عقدت في بيروت
في شهر آذار/مارس 2006

التوصيات

● أ - يعاني الوطن العربي من ضعفٍ وتردٍ في ميادين متعدّدة، ليس العمران عامةً أقلها خطراً، و ليست العمارة خاصة أقلها تأثيراً، على توازنه و صحّته.

وإذا كان الوضع المجتمعي العام، يتحمّل مسؤولية كبيرة في هذين الضعف والتردي، فالجسم المهني، المعماري والهندسي، يتحمّل هو أيضاً قسطاً كبيراً من هذه المسؤولية.

● ب - وإذا لم يكن بيده، أي بيد هذا الجسم المهني المعماري والهندسي، اتخاذ القرارات الحاسمة، والحل والربط في هذه الشؤون الحيوية، فمن واجبه في أبسط الأحوال، إجهار وجهة نظره، مشيراً ومنبهاً إلى المشاكل

والمعضلات المزمنة والطارئة، المسؤولة عن تدهور الأوضاع، كما أنه من واجبه، إستنباط الحلول الملائمة والوسائل الناجعة للنهوض بها.

● ج - وتندرج في هذا الإطار، ورشة العمل هذه، آخذة على عاتقها، البحث المعمَّق في: "**تعليم العمارة في الوطن العربي**"، انطلاقاً من أن أية نهضة تسعى الورشة إلى تحقيقها في مجال العمران والعمارة، إنما تبدأ بمواجهة المشاكل المتحكمة في إحدى ركائز البنية الأساسية لهذين المجالين، أي، تعليم المعمار وتربيته وتكوينه،

وهو العنصر الفاعل في أي تغيير وإصلاح وتطوير.

● د- لذلك يرى المشاركون في الورشة، إن تعليم العمارة يعني إعداد المعمار بالكفاءات والمعارف التالية:

1 - ثقافة معمارية متينة، وثقافة مدينية واسعة وملائمة، و ثقافة بيئيَّة عميقة وشاملة، ثقافة موسوعية:

* تدرك ضرورة التكامل، بين العمارة والمدينة والبيئة المبنية،

* كما تدرك أيضاً، ضرورة التكامل بين العمارة، والمكان، والتاريخ والناس والثقافة والمشهد الطبيعي، فيه.

* كما تحرص على حماية التراث الوطني المبنيّ والطبيعي،

* وعلى حماية الموارد الطبيعية، بما يساعد في تأمين نموٍّ مستدامٍ، وعمارةٍ تدوم.

2 - ثقافة حرّة، عقلانية، نقدية، نقيضة ثقافة الصورة

والمشهدية والإبهار. ثقافة عميقة محصَّنة، تتعامل بثقة وبموضوعية مع إنجازات العصر في مجالي العمران والعمارة، ومع مختلف التيّارات والأشكال المعمارية الوافدة إلينا بغزارةٍ لافتة.

3 - ثقافة وطنية جامعة، وثقافة اجتماعية محصنة بمعرفة واسعة في مختلف علوم المجتمع:

* من السوسيولوجيا المدينية، إلى انتربولوجيا المجال، إلى التاريخ المعماري للمجتمع،

* إلى الفلسفة وتاريخ الأفكار، إلى مفهوم الجمال، وجماليات العمارة وسيميائيّتها،

* إلى العلوم الاقتصادية والإدارية،

* إلى السلوك والأخلاق، في ممارسة مهنة المعمار.

ثقافة وطنية واجتماعية، تساهم في تعزيز دور المعمار الرائد في المجتمع.

4 - معرفة تقنية كافية، في كل ما يعود إلى:

* البنيان وتكنولوجياته، ومواده وخاصيات هذه المواد (مع التأكيد على أولوية استعمال المواد المحلية المتوفرة)، وإلى عناصر المباني والمنشآت،

* الهيكل الإنشائي بمختلف أنواعه ومواده، وفي كافة مراحل تطوره،

* التقنيات المعاصرة العائدة إلى عناصر المباني، وإلى

التجهيزات والشبكات التي تخدمها، وتساهم في تحسين مستوى حياة الناس، ساكنين ومنتفعين.

5 - ثقافة علمية منفتحة على معارف العصر، يختار المعمار منها الملائم لبيئته ولمجتمعه، ولقدرات هذا المجتمع التقنية والاقتصادية، إذ إن الجمال كما يقول إبن خلدون هو إدراك الملائم.

6 - مرونة أكاديمية في المسارات التعليمية، وليونة في التنقل بين الإختصاصات المتقاربة، وبين الجامعات والمعاهد التي تعلم العمران والعمارة في الوطن العربي، على أن يكون كل ذلك، مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بالبحث العلمي.

7 - إستحداث مختبرات للبحث العلمي بتوجهات متنوعة، في الكليات والمعاهد والأقسام التي تعلّم العمران والعمارة، واعتبار وجود مثل هذه المختبرات، مع تأمين الملاك الأكاديمي اللازم، شرطان أساسيان لدخول تعليم العمران والعمارة في الوطن العربي، مسار التكوين الأكاديمي العالي، من الباب الملائم.

8 - إن التدريب المهني الإلزامي، هو جزء لا يتجزأ من عملية التعليم الممتدة غالباً طوال خمس سنوات على الأقل، أو عشرة فصول تعليمية. وتكون مدة التدريب سنتان، واحدة منهما خلال الدراسة، والثانية بعدها. على أن لا تقل مدة التدريب، عن سنة واحدة أو فصلين تعليميين، فصل خلال

الدراسة، وفصل بعدها، يمنح أثرها الطالب "إجازة ممارسة"، أو شهادة "ملاءمة للممارسة المهنية".

9 - إقامة نظام للتعليم المستمر للأساتذة وللمعماريين الممارسين على السواء، إذ إن عملية التكوين لا تنتهي، إنها مستمرة مدى الحياة.

10 - إدخال القضايا المتعلقّة بالبيئة وبالتنظيم المديني وبالعمارة، في التعليم العام في الوطن العربي، (الإبتدائي، والتكميلي، والثانوي).

11 - إن استقلالية تعليم العمارة عن كليات الهندسة، وعن معاهد الفنون، وإيجاد وحدات تربوية مستقلة وملائمة لتعليم العمارة، إن كل ذلك، هو حاجة ملحّة، حرصاً على خصوصيات هذا التعليم، وحرصاً على تميُّز عملية تكوين المعمار خلال فترة التعليم بكاملها.

● هـ - ويشدِّد المشاركون في هذه الورشة، على أن البنود الإحدى عشرة الواردة في هذه التوصيات، تشكل توجهاً صائباً في تكوين المعمار العربي المعاصر،

● و- وهم يؤكدون، أنه من الممكن أن يكون لهذا التوجه فائدته وجدواه، إذا تمت متابعته، وبلورته، وفتح الحوار حوله بين جامعات الوطن العربي، توصُّلاً إلى إيجاد الصيغة الكفيلة بإعادة الدور المجتمعي والمسؤول إلى المعمار العربي، ليتمكن من المساهمة الفعَّالة في بناء المجتمعات العربية.

● ز- وهم يؤكدون في هذا السياق، أنه من الضروري أن يكون لهيئة المعماريين العرب، وهي إحدى ثلاث هيئات في إتحاد المهندسين العرب، الدور الأكبر في هذا المضمار.

● ح- وهم إذ يشجعّون هيئة المعماريين العرب، رئاسةً، ولجنة تنفيذية، وأعضاء، ويدعمونها للقيام بهذا الدور، إنما يرون أنه من الممكن بلورته عبر الخطوات التالية:

1 - تشكيل خلية في الهيئة، تكون مهمتها البحث المستمر في مسألة تعليم العمارة، وفي جودة هذا التعليم، وفي البحث عن آليات التحقق من تأمين هذه الجودة.

2 - عقد حلقات نقاش أو ورشات عمل عربيَّة شبه دورية، لمتابعة تنفيذ توصيات ورشة بيروت، ومراجعتها وتطويرها، على أن تعقد هذه الحلقات أو ورشات العمل، مرة كل سنتين.

3 - السعي لتكوين هيئة عربية للاعتماد، ولمتابعة مسألة تأمين الجودة في تعليم العمارة، ولتحديد معاييرها، ولمتابعة الإسترشاد بهذه المعايير في العملية التعليمية، ولتطويرها، في ضوء المتغيرات العالمية المتسارعة، والحاجات العربية، والقدرات والخاصيات الوطنية في كل بلد عربي.

● ط - وإذ يعلن المشاركون في الورشة، بأنهم سيبذلون كل الجهود الممكنة لمساعدة هيئة المعماريين العرب للقيام بالدور المطلوب منها كما ورد في الفقرات الثلاث السابقة، يطلبون من الهيئة، تعميم كل وثائق الورشة من أبحاث،

وتوصيات، وقرارات، على النقابات الهندسية العربية، وعلى الهيئات المعمارية فيها، وعلى الجامعات والكليات والمعاهد التي تعلم العمارة، وعلى مراكز الأبحاث التربوية، وعلى كل المعنيين بمجالي العمران والعمارة في الوطن العربي.

● ي - ويتوجه المشاركون في هذه الورشة، في جلستهم الختامية، بالشكر إلى دولة رئيس مجلس الوزراء الأستاذ فؤاد السنيورة لرعايته لهذه الورشة، ممثلاً بمعالي الوزير المهندس محمد الصفدي، كما يتوجهون بالشكر والتقدير الكبيرين إلى هيئة المعماريين العرب ممثلة برئيسها، وبلجنتها التنفيذية، وباللجنة التحضيرية، وباللجنة التنظيمية، على الجهود الكبيرة التي بذلوها، لإنجاح هذه الورشة، استقبالاً، واستضافة، وتنظيماً، ومضموناً، وذلك بالتعاون مع نقابتي المهندسين في بيروت وطرابلس،

ويتمنون للهيئة رئيساً ولجنة تنفيذية، النجاح في كل النشاطات المدرجة في برنامج الهيئة لهذه الدورة (الدورة الرابعة).

بيروت في 8/ 10/ 2007

16

مؤتمر مسؤولي التعليم الهندسي في الوطن العربي

موقع تعليم العمارة من التعليم الهندسي، والتوجُهات الحديثة(*)

I ـ من هو المهندس؟ من هو المعمار؟ وما هي العمارة؟

1 - من هو المهندس؟

● المهندس، في اللغة العربية، هو متخصِّص مؤهَّل بدروس فنية عالية، لوضع التصاميم، وللاشتراك في البحوث الفنية والتقنية وإدارتها، ولاختراع الآلات وبنائها، في المجالات الصناعية بما فيها المجالات الحربيَّة، والزراعية والفنية.

(*) ألقيت في مؤتمر مسؤولي التعليم الهندسي في الوطن العربي الذي عقد في دمشق في شهر آذار/ مارس من العام 2007.

● والمهندس في اللغة الفرنسية القديمة، هو (engenieur). والتعريف مشتق من كلمة (engin) أي آلة حربية. واختصاصه هو ابتكار آلات الحروب.

أما المهندس في اللغة الفرنسية المعاصرة أي الـ (Ingénieur) فهو، شخص تؤهله معارفه الواسعة ليحتل وظائف علمية أو تقنية نشطة، وإدارتها ومراقبتها. إنه الإنسان الموصوف والكفء، لتأمين وظائف عدة في بعض النشاطات.

2 - من هو المعمار؟

● والمعمار في اللغة العربية أيضاً، هو مُختصٌ يمارس مهنة العمارة. والدقة في ممارسة مهنة العمارة، هي معيار لقياس الدقة في مجالات مهنية أخرى.

● اما المعمار (Architecte) في اللغة الفرنسية، فأصلها لاتيني وهو (Architetus). إنه الشخص الذي يتصور المباني من كل الأنواع ويزينها، ويدير تنفيذها. وأصل الأصل في اللغة دائماً، هو كلمة يونانية قديمة مركبّة من كلمتين: "أرخى" أي أول أو رئيس، و"تكتوس" أي الحرفيين. والمعمار إذاً، هو رئيس الحرفيين البنائين، أو هو أولهم، والعمارة هي أول الحرف، أو رأسها. يعود ذلك إلى الأزمنة التاريخية الأولى، وقبل نشوء الأكاديميات المتخصصة بالعمارة وبالفنون في القرن السادس عشر، في فرنسا خاصة، وفي الغرب عامة.

هناك مسافة زمنية كبيرة إذاً، بين من يعتبره البعض، أول معمار عرف في التاريخ وهو المعمار الفرعوني "إمحوتب"، وبين المعمار خريج الاكاديميات التي أنشئت في عصر النهضة في أوروبا، مثل أكاديمية العمارة التي أنشأها كولبير في باريس في العام 1671 م. وغيرها من الأكاديميات.

● والمعمار الذي كان كاهناً أو رجل دين في بداية الأزمنة التاريخية، وصار رئيس البنائين الحرفيين في اليونان القديمة، ومهندساً في روما، أصبح في عصر النهضة أركيتتُّوره (Architettore) في ايطاليا وأرشيتكتور (Architecteur) في فرنسا، أي معماراً وفق تعريف اليوم. وهو مستشار في الفن، مهمته المساعدة في تطبيق القواعد والرموز والانماط.

وهناك مسافة زمنية أخرى، تفصل بين معمار عصر النهضة من جهة، ومعمار المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة التي انشئت في باريس في العام 1869، أو معمار مدرسة الفنون الجميلة التي انشئت في اسطمبول في العام 1888، ومهندس الثورات الصناعية المتلاحقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من جهةٍ أخرى.

3 - وما هي العمارة؟

● والعِمارة (بكسر العين) في اللغة العربية، هي التشييد بالبناء. وهي مشتقة من عَمَر (بفتح العين والميم)، أي سكن.

والمكان العامر، هو المكان الآهل بالسكان. وفنُّ العمارة، هو فنّ تشييد الأبنية وتزيينها وفق قواعد معيَّنة.

● والعمارة في الغرب، هي فنُّ بناء المباني وفق قواعد جمالية، وهندسية (geométriques) ورقمية (numériques) محددة.

إلَّا أن هذا الفن، هو فنٌ اجتماعي، إذ تنظِّم العمارةُ المجالاتِ وتنجزُها، ليلجأ اليها الناس في حياتهم وفي أعمالهم، ولتكون إطار ترفيههم. وهي لا تقف عند حدود الحدث المعماري البارز أو المَعْلَم المميِّز، بل تتناول الملجأ، والمأوى البسيط، والأثاث، وكل المقتنيات الضرورية لحياة الإنسان اليويمية.

II ـ العمارة في نشأتها، وعمارة عصر النهضة وما بعدها

● إلا أن العِمارة منذ نشأتها في فجر الأزمنة التاريخية، بقيت في الأساس دينية أو مدنية. لغتها الرئيسة كانت في الشكل، حيث تجاور النحت والرسم والتصوير، وحيث تقدَّم البحث عن الجمال، دون إهمال المواد، وطرق البنيان واقتصادياتها. إن هذا الإهتمام المزدوج، بالإستعمال من جهة، وبالفن من جهة أخرى، قدَّم قراءاتٍ مهنيةً متباعدةً، لا مقياس مشترك بينها سوى "التقنية".

وفي هذا الإطار نضع عمارة بعض تيوقراطيَّات الشرق، التي عمدت إلى التزيُّن بمناخات اسطوريَّة يحرِّكها نوعٌ من السحر، مستوحى من عالم الحيوان أو من عالم الفلك. لقد كان المعمار آنذاك كاهناً أو رجل دين. وقد ترك كلُّ ذلك أثراً في الأعمدة اليونانية، وفي القبب، وحتى في المفاهيم السماوية للكنيسة القوطية لاحقاً.

● أما عمارة عصر النهضة، فهي عمارة المعمار المحترف والمعتَرَف به، خريج الأكاديميات المنتشرة في باريس وفي روما. لقد عرَّفناه مستشاراً، مساعداً في تطبيق القواعد والرموز والأنماط، التي استعيرت من العصور القديمة، فشكَّلت العناصر الرئيسة للنهضة في العمارة وفي الفنون، في إيطاليا بدايةً في القرن الخامس عشر، وفي سائر أنحاء أوروبا في القرن السادس عشر لاحقاً. لقد حدَّد معمار عصر النهضة لنفسه، منحىً إنسانياً (Humaniste) داخل الأكاديميات وخارجها، فأهمل التقنيات، وتوسعت اهتماماته الجمالية والانسانية، فضاق مجال عمله. أما المهندس فعلى العكس من ذلك، أخذ مجال عمله يتَّسع باضطراد.

ولم يكن هذا الاختلاف بين المنحى الجمالي الانساني، وبين المنحى التقني الصافي، ظاهراً في البداية بشكل كافٍ. لكنه ما لبث أن أخذ يبرز بوضوح متزايد.

وفي عالم تفرض فيه الصناعة والتجارة إيقاعها، وتتزايد التعقيدات في البرامج، وفي طرق البنيان، وفي استعمال المواد الصناعية، بدءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في هذا العالم، برز الإختلاف بين المنحيين بشكل واضح. إذ استمر المعمار متمسكاً بديمومة فنّه وبكونيَّته، في حين رأى دعاة المنحى الآخر، أن عمل المعمار لم يعد سوى أحد العناصر داخل منهج منَّظم يضمُّ عناصر متعددة ومتنوعة، وأن التكوين الفني والليبرالي للمعمار، أصبح عاجزاً أمام متطلبات العالم المتغيّر.

III ـ موقع تعليم العمارة من التعليم الهندسي، والاتجاهات الحديثة

III-(i) واقع تعليم العمارة في الوطن العربي

1 - لم يُنظر إلى العمارة باعتبارها مجالاً مهنياً مستقلاً له ميزاته وخاصياته. ولم ينظر إليها بأن لها نهجاً تعليمياً مميزاً، له معاييره المعرفية المحددة وطرقه التربوية الملائمة. بل انسحب الخلاف بين الاتجاهين المذكورين، على المؤسسات المعنية بتعليم العمارة. فاعتبرها الاتجاه الجمالي الانساني جزءً من تعليم الفنون، واعتبرها الاتجاه التقني الصافي، جزءً من تعليم الهندسة. فنشأت في باريس في العام

1869 بديلة عن أكاديمية كولبير، المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة، وفيها قسم للعمارة يعطي دبلوم دولة في العمارة.

2 - أما عندنا فنشأت في اسطمبول إثر ذلك في العام 1888 وفي سلة تنظيمات السلطان عبد الحميد الثاني الإصلاحية، مدرسة الفنون الجميلة، وفيها قسم للعمارة أيضاً.

3 - ثم جاءت مهندسخانة محمد علي في مصر، والجامعة الأميركية في بيروت، وجامعة القديس يوسف الفرنسية في بيروت أيضاً. تبعتها بعد سنوات جامعات عديدة في مختلف البلدان العربية تضم غالباً كلياتٍ للهندسة، فيها أقسامٌ للعمارة، وأحياناً كلياتٍ للفنون فيها أقسام للعمارة هي الأخرى.

4 - وفي حين أصبح لتعليم العمارة الحديث في أوروبا وفي أميركا، مدارس، أو معاهد، أو وحدات تربوية مستقلة استقلالاً كلياً، تعلّم العمارة وذلك منذ أواخر الستينات من القرن الماضي، لا زلنا في الوطن العربي ننظر إلى تعليم العمارة غالباً، نظرة تقليدية، بكونه جزءاً من تعليم الهندسة يتم في أقسام داخل هذه الكليات، وأحياناً في كليات أو معاهد للفنون، فيها أقسام للعمارة. مع بعض الإستثناءات في المغرب العربي وربما في أماكن أخرى أيضاً، حيث تدرَّس

العمارة والتخطيط العمراني وفق المعايير الحديثة، في مدارس مستقلة متخصصة، خارج الجامعات.

أما في سورية، فتدرَّس العمارة في كلية مستقلة باعتبارها أحد أقسام تعليم الهندسة في الجامعة، ككلية الهندسة المدنية، وكلية الهندسة الميكانيكية، وكلية الهندسة المعمارية، وكلية الهندسة الكهربائية..، وغيرها. وربما وجدنا تنظيماً مشابهاً، في جامعة بيروت العربية.

III-(ii) إشكالية تعليم العمارة في الوطن العربي ومقتضيات التحديث

1 - وتحكُم تعليم العمارة في الوطن العربي اليوم إشكاليةٌ واضحة، تبرز في المشهد المبني الملوَّث، والمنتشر في المدن العربية الرئيسة، وفي معظم البلدات، وربما في الريف أيضاً. كما تبرز في البنيان العشوائي المتمدِّد بلا ضوابط، يدِّمر البيئة الطبيعية، ويبالغ في التعدي على التراث، وعلى المناطق الأثرية الواسعة الإنتشار.

2 - وإننا إذ نقرأ في مقدمة الصيغة المراجعة للعام 2005، لميثاق اليونسكو والاتحاد الدولي للمعماريين حول "تكوين المعماريين"، إننا إذ نقرأ في هذا الميثاق:

«أن ما يتصوره ويُنجزه المعماريون في البيئة المبنية اليوم، هو نسبة متدنية بشكل مستغرب، وهناك امكانيات في

تطوير مهمات جديدة، إذا وعى المعماريون الحاجات المتزايدة، في مجالاتٍ لم تكن مكان اهتمامٍ كبيرٍ من المهنة. لذلك وجب تنويع ممارسة المهنة، وتنويع التكوين النظري والعملي للمعماريين.» (انتهى)

3 - إننا ندرك إثر قراءة هذا النص الوثائقي، أن الإشكالية المطروحة هي إشكالية أزمة، لا تعود إلى النُظُم الاقتصادية والإجتماعية وحدها، السائدة هنا وهناك في البلدان العربية، ولا إلى الثغرات الموجودة في القوانين، وفي المخططات التنظيمية للمدن والبلدات أيضاً، بل إنها تعود في جزء منها إلى الممارسة المهنية لكل من المعمار، ومخطط المدن ومنظّمها.

4 - والممارسة هذه، ليست بالنسبة للمعمار في هذا البلد العربي أو ذاك، سوى ناتج مباشر لتكوينه الأكاديمي، وللعلاقة غير المتكاملة، بين الثقافة والتقنية، في هذا التكوين. وإذا حصرتُ كلامي في تكوين المعمار اللبناني، ربما استطعت أن أغامر قائلاً:

- أن المعمار اللبناني الشاب كتقني، يجد بصعوبة الموقع الذي يعود له، وسط المهندسين التقنيين المتعدّدي الإختصاصات، والذين أُعِدُّوا في ضوء معارف العصر، وعلومه، وتقنياته.
- وأن المعمار اللبناني الشاب كمثقف، يواجه الصعوبة

ذاتها، عندما يتصدى لإدارة الفريق المهني المتعدد الإختصاصات، والذي تعود إليه اليوم صناعة البنيان وانتشاره.

إنه في تكوينه نصف تقني، ونصف مثقف .وربما أصبح بمواجهة هاتين الصعوبتين، ضحية التهميش، وضحية البطالة أيضاً، في ظل الأزمات شبه الدائمة في لبنان وفي المنطقة، وفي ظل الإنحسار الظاهر لفرص العمل.

5 - لذا وجب علينا الإجابة على إشكالية ثنائية، وليدة ثنائية أخرى هي: المشهد المبني الملوَّث من جهة، وتكوين المعمار وتكوين مخطِّط المدن ومنظِّمها، من جهة أخرى.

والإشكالية الثنائية هي: أي معمار نريد؟ ولأية ممارسة مهنية؟

6 - تكوين المعمار المثقَّف.

والجواب على السؤال الأول أي معمار نريد؟ هو بتكوين المعمار المثقف، والمزود:

● بثقافة معمارية، ومدينية، وبيئية شاملة، تدرك ضرورة التكامل بين العمارة، والمدينة، والبيئة المبنية. كما تدرك أيضاًضرورة التكامل بين العمارة، والمكان، والمشهد الطبيعي فيه. كما تحرص، على حماية التراث الوطني المبني والطبيعي، وعلى الثروات الطبيعية والموارد المتوفرة، بما يساعد في تأمين نموٍّ مستدام، وعمارة تدوم.

● بثقافة نقدية حرَّة، عقلانية، نقيضة ثقافة الصورة،

والمشهدية، والإبهار. بثقافة عميقة محصَّنة، تتعامل بثقة وبموضوعية، مع مختلف التيارات والأشكال المعمارية الوافدة إلينا بغزارة لافتة.

● بمعرفة تقنية كافية، وبثقافة علمية غنية ومنفتحة على معارف العصر، يختار منها الملائم، والجمال كما يرى ابن خلدون، هو إدراك الملائم.

● بثقافة وطنية واجتماعية، تعزز دور المعمار المميَّز في المجتمع.

7 - تكوين المعمار المؤهل لممارسة مهنية مرنة.

أما الجواب على السؤال الثاني لأية ممارسة مهنية؟ فهو بتكوين المعمار المؤهل لممارسة مهنية مرنة، بمرونة الإعداد الأكاديمي له، وهو تعليم عالٍ، مرتبط إرتباطاً وثيقاً بالبحث العلمي، وبإمكانه تقديم مروحة عريضة من الممارسات المهنية المتنوعة:

● فهي ممارسة مهنية ليبرالية للإستشارات المعمارية، في مكتب خاص به، أو في شركة للإستشارات الهندسية والمعمارية.

● أو هي ممارسة لمعمار وتقني مختص، في المؤسسات العامة والخاصة، والمعنية بالبنيان، وترتيب الأراضي، وتطوير العقارات، أو بتصنيع مواد البناء واستيرادها، والبحث في خاصياتها وفي تطوير طرق البنيان العائدة لها.

● أوهي ممارسة لمعمار وتقني مختص، في المؤسسات العامة والخاصة، المعنية بالأشغال العامة، وبالنقل، وبالشؤون البلدية والقروية، وبشؤون التربية والتعليم، والبيئة، وإعادة الإعمار وتشجيع الاستثمارات.

● أو هي ممارسة لمعمار وتقني مختص، بالتدقيق الفني، وبالأبحاث في العمارة، وبالدراسات العليا، متوجهاً نحو البحث، والتعليم، والتكوين المستمر... إلخ.

8- وعلى تعليم العمارة انطلاقاً من هذه الرؤية أن يتموضع إذا، في ساحة التلاقي بين معارف مختلفة يحتضنها كلية، أو مدرسة، أو معهد للتعليم العالي، متخصّص.

لا يعني كل ذلك، أن نفهم هذا التعليم، وكأنه جمع حسابي لمشاريع معمارية، ولدروس نظرية تمليها هذه المعارف المختلفة من جهة، كما أنه لا يعني من جهة أخرى، أن كل المعارف عليها أن تغيب أمام تعليم المشروع المعماري. إذ من الضروري أن نجد التفاعل الملائم، والتنسيق الممكن، والتدرج الخاص بكل معرفة، وذلك في علاقة كل هذه المعارف بتعليم العمارة، بكل خاصياتها وبكل ميزاتها.

9 - وإنطلاقاً من هذا المفهوم، يمكننا أن نتكلم عن علم "المشروع المعماري" إذا صح التعبير، والذي يقع عند تلاقي المعرفة، والمهارة، والأعمال التطبيقية.

والمشروع المعماري انطلاقاً من هذا التعريف، يشكل العامود الفقري لتعليم العمارة.

وتعليم العمارة في كلية، أو معهدٍ أو مدرسةٍ للتعليم العالي، لا يهدف فقط إلى تعليم الطلاب التيارات المعمارية، واتجاهاتها، وأساليبها، ونماذجها الوطنية والإقليمية والدولية. بل عليه قبل كل ذلك، أن يَسمَحَ لهم باكتساب ثقافة أصيلة للمشروع المعماري، ينطلقون منها لتأكيد إختيارهم الخاص، في الكتابة المعمارية.

10 - ويتوزع تعليم العمارة الحديث، وعاموده الفقري المشروع المعماري، على محاور عدة تحتضن تعليم المشروع المعماري، أهمها:

- تعليم العمارة بتعليم تاريخها وتعليم نظرياتها.

تعليم المفاصل الأساسية في تاريخ العمارة من زاوية علاقتها بتاريخ الفن، وبتاريخ البنيان، ووضعها في سياق تاريخ المدن. نظريات العمارة، المجال المعماري، تعريفاً وتحليلاً. قراءة في معالم معمارية بارزة، عناصر التأليف، اللغة والمفردات. المجال المديني، قراءة في المجال المديني، تعريفاً وتحليلاً. العمارة وترتيب الأراضي، العمارة والمدينة، العمارة والريف، العمارة والمشهد، العمارة وتنظيم الحدائق وتنظيم المجالات غير المبنية، العمارة والبيئة، العمارة والتراث.. إلخ.

- **تعليم العمارة بتعليم التنظيم المديني.**

نشـأة التنظيـم المـديني، نظريات التنظيـم المـديني وأيديولوجياتـه، قوانين التنظيم المديني وتشريعاته، التنظيم المديني كممارسة عملية (Urbanisme Operationel)، قـراءة لأجـزاء في بعض المـدن المعاصرة. التنظيم والتصميم المدنيين في مشاريع جزئية تطبيقية. الجغرافيا، والجغرافيا المدينية. العمارة والأشكال المدينية عبر التاريخ. التحليل المديني، المورفولوجيا المدينية، تاريخ المدن... إلخ.

- **تعليم العمارة بتعليم أدوات التصور المعماري ووسائله، وبتعليم الهندسة (Geometrie)**

تعليم العمارة بتعليم أدوات التصور المعماري ووسائله. عناصر الرسم المعماري، المسطحات والواجهات والمقاطع. المقياس، المنظور. المعلوماتية العامة، المعلوماتية في الرسم المعماري، المعلوماتية التشكيلية... إلخ. وتعليم العمارة بتعليم الهندسة .(Geometrie) هندسة السطوح (الهندسة الأوكليدية) هندسة الفضاءات الثلاثية الأبعاد، الهندسة الوصفية، تقاطع الأحجام والمجالات، الأحجام والضوء والظلال، هندسة المنظور، إلخ.

- **تعليم العمارة بتعليم العلوم والتقنيات والتكنولوجيا المساندة.**

تعليم العمارة بتعليم العلوم والتقنيات والتكنولوجيا

المساندة، والتي تُكمِل تعليم العمارة بالمشروع المعماري وبتاريخ العمارة وبنظرياتها. وذلك بهدف تكوين المعمار المثقف بالعلوم، وبالمعارف العائدة لتقنيات البنيان وتكنولوجياته.

- تعليم البنيان (construction)، طرق البنيان، مواد البنيان وخاصياتها، والهياكل الإنشائية الملائمة لكل منها. البنيان حرفة، والبنيان صناعة.

- تعليم الهيكل الإنشائي بمختلف أنواعه. تطور التقنيات والتكنولوجيا الإنشائية، تطور الهيكل الإنشائي من الحرفة، إلى الصناعة والتقنية والتكنولوجيا، إلى الهياكل الإنشائية الهجينة. دور الهيكل الإنشائي في صناعة المجال المعماري، المفاصل التاريخية الأساسية في تطور الهياكل الإنشائية وارتباطها الوثيق بتطوُّر المجتمعات، وبتطور أساليب الإنتاج، وبالثورة المتواصلة في مواد البنيان.

- تعليم التقنيات المعاصرة، العائدة لتجهيزات المباني، وتبيان تأثير هذه التجهيزات في المجال المعماري المعاصر، وإبراز دورها في تأمين جودة الحياة المعاصرة. تمديدات الكهرباء والهاتف، وتمديدات المعلوماتية، وسائر التجهيزات العائدة إلى التيار الضعيف، والمباني الذكية... إلخ. تمديدات المياه، وتمديدات الصرف الصحي والتدفئة، والتكييف... إلخ. والحفاظ على الطاقة، والطاقة السلبية، (العمارة المناخية، والبيئية، والإيكولوجية).

● تعليم العمارة بتعليم علوم المجتمع، والعلوم الاقتصادية والإدارية وتعليم اللغات التقنية.

ـ تعليم العمارة بتعليم علوم المجتمع. المعمار، العمارة، والمدينة، علم الإجتماع المديني، أنتروبولوجيا المجال، وسوسيولوجيا المجال والتاريخ المعماري للمجتمع. الفلسفة وتاريخ الأفكار، العمارة ومفهوم الجمال وجماليات العمارة، سيميائية العمارة والقيم الرمزية فيها. العمارة والمعنى.

ـ تعليم العمارة بتعليم العلوم الاقتصادية والإدارية. الاقتصاد المديني، اقتصاد البنيان، اقتصاد المشروع المعماري. مقاربة أولية لدراسة الجدوى الاقتصادية للمشاريع المعمارية. إدارة عامة، إدارة إنتاج وثائق المشروع، إدارة أعمال تنفيذ المشروع (الورشة).

- تعليم العمارة بتعليم الفنون التشكيلية وتاريخها، وبتعليم تاريخ الفن.

التصوُّر والتعبير التشكيليين، الرسم السريع باليد الحرة، الرسم الدقيق بالرصاص أو بالفحم، الألوان ونظرية الألوان. النحت بالطين، والنحت بالمواد الصلبة التقليدية، والنحت بمواد مختلفة. أسس التصميم التشكيلي. يظهر التعليم الفائدة من استعمال أدوات الفنون التشكيلية في صياغة المشروع المعماري.

● **تعليم العمارة بتعليم القوانين المرتبطة بها، وبقوانين ممارسة المهنة واخلاقياتها.**

ـ اكتساب القدرة على العمل مع معرفة السياقات المهنية والقانونية، واكتساب القدرة على فهم الأشكال المختلفة والمتعددة لطلب الخدمات المعمارية، ومعرفة الأدوار المحتملة للمعمار في مجالات عمل تقليدية وجديدة.

ـ إكتساب أخلاقيات المهنة، ومبادىء السلوك المهني، مطبِّقةً على ممارسة مهنة المعمار، والمسؤوليات القانونية للمعمار فيما يتعلق بالتسجيل المهني، والممارسة، وعقود البنيان.

11 - ويفترض كل ذلك، البحث المعَّمق في أهداف مكونات التعليم، وفي مضمونها، وفي أساليب تعليمها، بحيث يكون أسلوب التعليم وسيلة أكيدة، تضمن تفاعل الطلاب مع المعرفة المتنوعة التي تعطى لهم. على أن تؤطر المواد - المكوِّنات، في وحدات متجانسة ومتفاعلة (Modules)، في دورها التربوي. فيكون تعليم تاريخ الفن وتاريخ العمارة على سبيل المثال لا الحصر، وسيلة لتحليل العمارة، وقراءتها بعين المعمار لا بعين المؤرخ ومعلِّم التاريخ. والهدف الأساسي من كل ذلك هو مرة أخرى، تكوين المعمار الطالب، بحيث يستطيع صياغة كتابة معمارية أصيلة، خاصة به.

12 - إن التدريب المهني، هو جزء لا يتجزأ من عملية

التعليم، الممتدة طيلة خمس سنوات على الأقل أو عشرة فصول. على أن لا تقل فترة التدريب عن سنتين، واحدة منهما خلال فترة الدراسة والثانية بعدها. يُمنح الطالب في نهاية فترة التدريب هذه، إجازة ممارسة (Licence d'exercice) أو شهادة ملاءمة للممارسة المهنية (Certificat d'aptitude).

IV ـ لخاتمة

استعير في الخاتمة، فقرتين من ميثاق اليونسكو والإتحاد الدولي للمعماريين في صيغته الأخيرة المنقحة للعام 2005.

■ في الفقرة الأولى:

"رؤية المستقبل في مدارس العمارة، عليها أن تتضمن الأهداف التالية:

- جودة في حياة الناس في كل العالم.
- استعمال التكنولوجيا، مع احترام الحاجات الاجتماعية والثقافية والجمالية للناس في كل سياق ثقافي محدد. استعمال المواد الملائمة، والسهر على الكلفة في التشييد وفي الصيانة.
- تطور إيكولوجي متوازن ومستدام في البيئة الطبيعية والمبنية، والاستعمال العقلاني للموارد المتوفرة.
- عمارة تُعتَبَر ملكاً لكل فرد في المجتمع، ومسؤوليته.

● إدخال القضايا المتعلقة بالبيئة وبالعمارة في التعليم العام (الابتدائي، والتكميلي، والثانوي).

● إقامة نظام للتعليم المستمر للأساتذة وللمعماريين الممارسين على السواء، إذ إن عملية التكوين لا تنتهي. إنها مستمرة مدى الحياة ".

■ وفي الفقرة الثانية:

"وأبعد من المظاهر الجمالية والتقنية والمالية، والمسؤوليات المهنية، فإن الاهتمامات الكبرى المعبَّر عنها في هذا الميثاق، هي الالتزام الاجتماعي للمهنة، أي أن يعي المعمار دوره ومسؤوليته في المجتمع حيث يعيش، ودوره في تحسين نوعية الحياة فيه، عبر مساهمته في إقامة منشآت إنسانية تدوم".

٧ ـ الخلاصة

لأقول في الخلاصة، لعل في هذا الصهر بين الضرورات التقنية، التي تؤمن متانة العمارة، وسلامة المنتفعين بها وراحتهم، وبين قيمها الاستعمالية والجمالية والرمزية، ولعل في ما قاله فيتروف (Vitruve) منذ ألفي سنة عن المتانة، والاستعمال، والجمال في العمارة، ما يسمح بتعريفها كمنتَجٍ اجتماعي، لها خاصياتها في وجودها، وفي تعليمها.

الاخبار 13 آذار 2007

17

شخصيتنا، في الثقافة، في العمران وفي العمارة ...، بمواجهة العولمة

عولمة نواجه ...؟ أم أمركة!؟

حتى لا تكون شخصيتنا، في الثقافة، في العمران، وفي العمارة ..، قناعاً في مسرحية(*)

I ـ الشخص، والشخصية...، وشخصيتنا في الثقافة وفي الفنون.

■ "الشخص"، هو كائن بشري فردٌ، له من الخاصيَّات ومن الصفات، ما تجعل منه إنساناً، عضواً في جماعة. ومن هذه الخاصيات والصفات، ما ورثه الشخص مع ولادته، ومنها ما اكتسبه خلال وجوده.

(*) ألقيت في القاعة الكبرى في مكتبة الأسد بدمشق، بدعوة من مؤسسة تريم للعمارة والتراث، وبرعاية السيد وزير الثقافة بتاريخ 5/ 3/ 2008. كما ألقيت في مقر نقابة المهندسين ـ فرع حلب، بتاريخ 9/ 3/ 2008.





بناية عريضة ـ الصنائع

■ "والشخصية"، هي مجموعة السِمات، المادية والروحية والأخلاقية، التي تجعل شخصاً ما، يتميَّز عن الأشخاص الآخرين. وكما نجد في الشخص سماتاً موروثة، وأخرى مكتسبة، كذلك نجد في الشخصية، مُكوِّنات موروثةً، وأخرى مكتسبة. وفي بعضِ المكتسبِ، ما هو أساسٌ، في تكوين شخصية الشخص.

■ ومفردة " شخصيتنا "، والمقصود بها شخصية الإجتماع اللبناني، هي شخصيَّة شمولية، إنسانية، أولاً، وشخصية وطنيَّة لبنانية ثانياً، إذ إننا نتحدَّث عن إجتماع لبناني يتمتع بميِّزات أكيدة، وهي شخصية قومية عربية أخيراً، يكفي للدلالة عليها، تجذرُّ اللغة العربية فوق الأرض اللبنانية، ووضوح إرتباط المصير اللبناني، بالمصير العربي الواحد.

فالتخصيص إذاً، في مقولة "شخصيتنا في الثقافة"، إنما يدلُّ على انتمائنا. وهو انتماء مركَّب أكرَّر، وطنيٌّ لبناني، وقومي عربي. و" شخصيتنا في الثقافة"، هي بدورها، في الموروث منها وفي المكتسب، وطنية لبنانية، وقومية عربيَّة. وربما ساعدتنا بعض التعاريف للثقافة، أن نرى في ثقافتنا الوطنية والعربيَّة، ما يجسِّد شخصيتَّنا.

■ فالثقافة وفق هذه التعاريف، هي ذلك المركَّب المتجانس من الذكريات، والتصوُّرات، والقيم، والرموز، والتعبيرات، والإبداعات، التي تحتفظ لجماعة بشرية...، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات، بفعل

ديناميكيتها الداخلية، وبفعل قابليتها للتواصل، والأخذ والعطاء. والثقافة، بهذا المعنى، هي المعبِّر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لجماعة بشرية ما. والخصوصية التاريخية، هي ديناميكية متحوِّلة، فيها الأصيل الموروث، وفيها الجديد المكتسب.

■ تختصر الثقافة إذاً،الشخصية الوطنية. "وشخصيَّتنا في الثقافة، في العمران وفي العمارة وفي الفنون"، هي جزء من ثقافتنا الوطنية، أو هي جزء من "شخصيتنا الثقافية". وما مواجهة " شخصيتنا الثقافية للعولمة "، سوى جزءٌ من مواجهة شخصيتنا الوطنية لها.

II ـ شخصيتنا في العمران وفي العمارة، ومواجهتها للعولمة.

نشير في هذا السياق، وقبل الكلام عن العمران وعن العمارة في لبنان:

■ إلى أن العُمران هو البنيان، أو ما يعمَّر به المكان وتُحسَّن حالتُه من كَثرةِ الأهالي فيه. أما العُمران عند أبنِ خلدون فهو المجتمع، إذ يعرِّفه بكونه التساكُن في (مَصْرٍ) أي في مدينة، أو في (حِلَّةٍ) أي في قريةٍ، للأُنسِ واقتضاءِ الحاجاتِ، لما في طباعهم من التعاون على المُعاش.

■ والعِمارة (بكسر العين) في اللغة العربية، هي

(السكن، الإقامة، الأهل). فالفعل عَمَر المكانَ (بفتح الحروف الثلاثة) يعني سكنَ المكانَ، أو أقام فيه، وبذلك يكون المكان قد عَمُر بمن فيه (بضم الميم)، والبيت معمورٌ، أي مسكونٌ، أو آهلٌ.

■ والعِمارة في الموسوعات الغربية المعاصرة، هي فنُّ البناء، وفق قواعد جمالية وهندسية محدَّدة. إنها فنٌّ جماعي ينظِّم المجالات المبنية، لتحتضن حياة الناس، ولتكون إطاراً لأعمالهم، وللهوهم، ولترفيههم، ومجالاً، لا ينحصر في الصروح، بل يتناول الملجأ والكوخَ والأثاثَ، وكل ما يستعمله الناس في حياتهم اليومية.

■ والعمارة، هي متانةٌ، وفائدةٌ، وجمالٌ، والقولُ (لڤيتروڤيوس)، في العقد الثاني قبل الميلاد. أو إنها في قولٍ "حديث"، وليدة التقنيات والمهارات، والمواد المستعملة، أو إنها تلبي حاجاتٍ ثلاث متأصِّلة في الإنسان، هي الحاجة الإنتفاعية، والحاجة الجمالية، والحاجة الرمزية، والقول (للجادرجي). أو إنها، في رؤية آخرى معاصرة، ناتجُ السيطرة المطلقة للتكنولوجيا المتقدِّمة،على طرق البناء.وعلى المعماريين، كي يحافظوا على موقعهم المهني، أن يسيطروا على طرق بناء التكنولوجيات، والقول (لبرنار تشومي).

■ مُعظم المفاهيم إذاً، ترى في عِمارة اليوم، ناتجاً إجتماعياً، تصنعه التكنولوجيا، والتقنيات، والمهارات، والمواد. إنها فعلُ مجتمعٍ، تشهدُ على المجتمع الذي أنتجها

في زمنه وفي مجالاته. إنها تشرحُ المجتمعَ وتفسِّره، في الوقت ذاته، الذي يفسِّر فيه المجتمعُ العِمارةَ ويشرحُها.

■ فالعُمران والعِمارة، ليسا فناً. والعمارة تحديداً، ليست فناً كاملاً أو فناً فقط، وإن قال البعض بأنها تقترب من الفن بكونها تختزن قيمة جمالية، أو إنها تثير فينا المشاعر كما يقول (لوكوربوزبيه)، أو إنها تلامس الموسيقى بتجانسها، وبتناغمها، وبالإيقاع العذب فيها. العِمارة ليست فناً فقط. وهي، في مواجهة العولمة، جزءٌ من مواجهةِ الإجتماع اللبناني والعربي بكامله، لها. والمواجهة هذه، هي في مضمونها، مواجهةٌ قديمة، استمرت طيلة سنوات القرن العشرين، وإن اتسمت عولمةُ اليوم، ببعض الخصوصيات.

II-(i) بداية القرن العشرين

■ لقد فَرَضَ الإنتدابُ الكولونياليُّ الفرنسيُّ علينا، والإنتدابُ للتذكير هو عالميٌّ، فرضَ الإنتدابُ علينا في بداية القرن العشرين بالعنف العسكري، تنظيماً مدينياً منقولاً، يفترضُ باسم الحداثة، هدم النسيج المديني التقليدي القائم، والبناء فوق الركام، واعتمد سياسة الأرض المحروقة. والأمثلةُ ظاهرةٌ في بيروت، وفي أماكن أخرى في لبنان وفي الوطن العربي. لم يكن لنا رأي في ذلك، إذ أتوا بمهندسيهم، وبمنظمِّي المدن عندهم. جاء الأخوَان (دانجيه)

في الثلاثينات، وتبعهم (إيكوشار) بمهمة عسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. كان للانتدابِ، الاحتلالُ، والسلطةُ، فغيَّب الإعتراضاتِ الحاسمة على ممارساته في حقل تنظيم مدننا، إلا أن الدلالة على مقاومة النسيج التقليدي للتنظيم المديني المسقط بالمظلَّات، تظهر اليوم في معظم مدننا التاريخية. وأكتفي هنا بالإشارة، إلى أن مقاومة النسيج المديني في بيروت، منعت ساحة النجمة من أن تكتمل.

■ أما في العِمارة فاستطعنا أن نواجه. ربما لأن المحتل الكولونيالي أظهر بعض الليونة في هذا المجال، أو لأن عِمارة الطرز الدولي لم تكن قد سيطرت على العالم بعد. فاستطاع بعضُ معماريينا، بالمقاومة وبالمهارة، أن يحافظوا على ملامحَ من شخصيتنا في عِمارتهم. فأنتج بعضُهم عِمارةً حافظت على خصائص محلية، فعُرِفت باسم "العمارة الكولونيالية المستعربة"، إذ ظهرت فيها سماتٌ، لهوية عربية اسلامية في العمارة. وأنتج بعضُهم الآخر عِمارةً مهجَّنة، عُرفت "بالعمارة المشرقية". والتهجين فيها، هو تلقيحُ هيكل عمارة السكن، المصنوع من الخرسانة المسلحة الوافدة حديثاً، بعمارة البيت البورجوازي ذي اللغة المعماريَّة المركَّبة، (العثمانية، العربية، الإيطالية)، والذي انتشر في بيروت وفي بعض المناطق، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، وعُرف تجاوزاً "بالبيت اللبناني". تراكمت المساكن طوابق تستلهم نموذج "البيت اللبناني" كما عرَّفناه، وتستلهم

نموذج واجهته. وتكررَّت إيحاءاتُ الأقـواسِ الرخاميَّةِ الثلاثة في وسط الواجهة، بصياغة جديدة، وبتعداد الطوابق فيها. فبدا التهجين ناجحاً. وبقيت شخصيتُنا واضحةً، رغم الأعمدة المشغولة والتيجان المعقدة، ورغم الزخارف الكثيرة، وقد نُقِلت كلُّها عن أنماطِ معماريَّةٍ غربيةٍ متعددة.

كانت اللغة المعمارية هجينةً، إلا أنها رفضت، النقل والخضوع، معاً.

II-(ii) الزمن الأمبريالي...، وعقود ما بعد الاستقلال.

وفي الزمنِ الأمبريالي في القرن العشرين، أي في العقود التي تلت الاستقلال، عمَّت بيـروت وسائر المدن،

عـمـارة "الـطـرز الـدولـي". وكـانـت مـمـارسـةُ مُـعـظـم المعماريين اللبنانيين، نقلاً بدائياً ملوّثاً. أما مُمارسة بعضهم، فكانت اقتباساتِ متفاوتةَ النجاح، في إنتاج عِمارة ملائمةٍ لواقعنا الجغرافي، والثقافي، والإجتماعي. وإذا غابت شخصيَّتُنا في العمارة، عن أعمال معظم المعماريين الذين نقلوا ببلادة عمارة "الطرز الدولي"، فإن نسبة حضورها في أعمال الآخرين، قد تفاوتت بتفاوت نسبة نجاحهم في الإقتباس.

لن أتناول أعمال النقل البدائية كما وصفتها. أما المعماريون الذين اقتبسوا، ونجحوا بتفاوتٍ في انتاج عمارة ملائمة، فقد تعددت مصادر اقتباسهم.



مدرسة الحكمة ـ الأشرفية

■ ويأتي المعمار أنطون تابت في مقدِّمة الذين اقتبسوا بنجاح، وأنتجوا عمارةً أليفةً أحببناها، وشعرنا بها وقد تكاملت مع المكان، فاحتضنت روحه. لقد تتلمذ أنطون تابت على المعمار الفرنسي الفذ (أوغست بيريه)، فأحسن استعمال الهيكل الإنشائي الخرسانئ الظاهر في الواجهات، والمتتابع بإيقاعٍ ينظِّم المجال المبني. كما أحسن استعمال الحجر الخرساني، يوحي تكراره بين الأعمدة، بقياسات المبنى. كما أحسن أيضاً استعمال الأحجار الخرسانية المفرَّغة، (كلوسترا) في الشرفات، وفي الجدران، فأعطى بذلك إيحاءاتٍ لبنانية مشرقية عربية واضحة.

إقتبس أنطون تابت في بعض أعماله بإحساس ظاهر، وبثقافة مشرقية واضحة. فأعطى، عبر الإقتباس من الحداثة الغربية، عمارةً توحي بشخصية محلية، هي جزء من ثقافته الوطنية العربية، المواجِهة.

ومن الإقتباسات الناجحة، تلك التي استظلت (الباو هاوس) بتعاليمه عن الأحجام المتناغمة، والأشكال الهندسية الصارمة، واللاتماثل الضروري والمتوازن، الذي يحكم مجمل الكتابة المعماريَّة. إنها قراءةٌ للعِمارة من زاوية "التجريد الهندسي" في الرسم، كما ظهر في أعمال "موندريان". وثمة اقتباسات مُميَّزة في هذا الإتجاه، في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين.

■ ومن أبرز الذين ساروا في هذا الطريق، المعماران شارل شاير وواثق أديب، والمعمار جورج ريس. عمل هؤلاء المعماريّيون تحت سقف الحداثة، بفهمٍ عميقٍ لمعاييرها، فأنتجوا عمارة، بدت فيها بخفر شديد، بعض ملامح الشخصية المحليَّة،عبر ملاءمتها المزدوجة:

- للظروف المناخية العامة، (الشرفات الناتئة المظلّلة، وكاسراتُ الشمس، والأحجارُ الخرسانية المفرَّغة "مشرَّبيات")،

- وللتزاوج الناجح نسبياً، بين الحداثة المقتبسة، والأساليب التقليدية في التنفيذ.

■ ومن أبرز الذين أحسنوا الإقتباس من عمارة الحداثة، مع مراعاة الظروف المناخية وطرق التنفيذ التقليدية، المهندس جوزيف فيليب كرم. ربما ساعده في ذلك، إقتباسه من العمارة المتأقلمة مع محيطها، والآتية من بعيد، مع أعمال (أوسكار نيمير)، و(خوسي لويس سرت).

■ وتبقى محاولات إبراز الشخصية المحليَّة في العمارة، في ظل الإقتباس من عمارة الحداثة، عبر محاولة جدية لاحتضان روح المكان، (بمناخه، وبنماذج بيوته، وبتقاليد ناسه)، تبقى هذه المحاولات أكثر وضوحاً، في بعض أعمال المعمارين عاصم سلام، وجاك ليجيه بلير، الأخيرة.

II-(iii) قنوات التأثير، وسمات الإتجاهات الإقتباسية، وميزاتها.

كانت قنوات التأثير في أعمال معماريِّينا، إذاً متعددة. إلا أن الإتجاهات الإقتباسية جاءت، بمعظمها:

■ انتقائية، ساعد في ذلك، التكوين الأكاديمي المتعدِّد للمعماريين اللبنانيين، والذي يلامس الفوضى[1] وبيئتنا الثقافية المتنوعة، والتي يريد لها البعض، أن تكون متعدِّدةً، لا تنصهر في ثقافة وطنيَّة عربية جامعة.

■ وتجريبية، دون رابط نظري، ودون ممارسة مهنية، منهجية، واضحة.

■ وفردية، انحصرت غالباً في عمل معماريّ فرد، ولم تخلق جماعة فكرية، تنتج تياراً نظرياً متماسكاً يَفعلُ، في العِمارة، وفي الثقافة.

لقد ساهم هاجسُ المكان، عند بعض معماريينا البارزين، في صُنع العِمارة، وفي دفعها نحو نوعٍ من التكامل الخجول، مع محيطها العمراني. إلا أن المكان، عند هؤلاء، بقي محصوراً في البيئة الجغرافية، وكأنها بيئة غير آهلة.

---

(1) (في بيروت المتعدِّدة ودمشق، والقاهرة، وبغداد، ولندن، وباريس، وروما، وبروكسيل، ومدريد، وموسكو، ووارصو، وبراغ، وصوفيا، وبوخارست، وبودابست، ...، وفي جامعات أميركية متعددة)

فأهملوا البيئة الإنسانية، في طريقة عيشها، وفي علاقتها بالأرض، وبالآخر. أهملوها في مكوناتها الروحية والإنتمائية. فجاءت معظم أعمالهم:

■ هامشية، بقيت خارج الثقافة الجامعة، لم تلامس مشاعرالناس، ولم تصل إلى أعماق وجدانهم، فتساهم بالتالي في صنع تحولاتٍ هادئةٍ في النسيج المديني، تُكمل المشهد العمراني في الزمن، دون انقطاعٍ فجٍّ عنيف. بل ساهمت على الرغم من نجاحها النسبي، باقتلاعِ المحيط العمراني الموروث بسرعةٍ مذهلة، لتحلَّ مكانه، عمارةُ الطرزِ الدولي الملوِّثة.

■ جاءت معظمُ أعمال معمارينا، في معظم اتجاهاتها الإقتباسية، دون أية قيمة رمزية، غريبة، مغرِّبة.

III ـ العولمة...، في عالم متعدِّد الأقطاب.

نعود إلى العولمة المعاصرة، بعد هذا التوقف عند مواجهتنا، في الثقافة، في العمران وفي العمارة، لعولمة الزمنين الاستعماريين، الزمن الكولونيالي، والزمن الأمبريالي. نعود إلى "الكوكبة"، كما عرَّف (إسماعيل صبري عبد الله) العولمة، لنرى فيها دلالةًعلى بداية النهاية في الحرب الباردة، بانتصار الرأسمالية ما بَعْدَ الصناعية، وهزيمة الإتحاد السوفياتي والمنظومة الإشتراكية. وفي هذا يكمن الفرق

الأساس، بين "العولمة الكوكبة"، وكل المنظومات الكونية التي سبقتها.

■ ففي بداية الثمانينات من القرن الماضي، كانت الولايات المتحدة الأميركية مكتفيةً، بكونها متقدّمةً على شركائها في نادي الدول السبع الأكثر قوةً وثروةً. فظهر العالم رأسمالياً، متعدّد الأقطاب، الولايات المتحدة الأميركية، أوروبا، واليابان. وتمثلت أدوات العولمة الرئيسة، بالشركات المتعددة الجنسية، وبالإستثمارات المالية الكبرى، وبالثورة الرقمية والاقتصاد الإلكتروني، وبثورة الاتصالات والمعلوماتية وما أتاحته من سيطرة على الإنتاج، وخاصة الإنتاج عن بُعْد، وبالسيطرة على الإعلام المرئي والسيطرة على الإعلان، وبالسيطرة عن طريق كل ذلك، على أنماط الإستهلاك، وعلى الفكر والأذواق والسلوك، وعلى كل القيم. وبإنشاء سوق عالمية واحدة، والسيطرة عليها بأداتها الرئيسة، منظمة التجارة العالمية.

■ وفي السوق الواحدة، والإعلام الواحد، والإعلان الواحد، والإتصالات الفورية في كل المجالات، وفي الإنتاج الإلكتروني، يَسقطُ التاريخُ كما يزعمون، وتسقط معه الجغرافيا أيضاً. فلا مكانٌ منعزلٌ في العالم، ولا وطنٌ مستقلٌ بالفعل، ولا حدودٌ محميَّة، ولا ثقافةٌ متميِّزة. "تتعولم" الأمكنة "تتكوكب"، وتزول الفروقات بين الداخل والخارج،

وتتشكَّل أنواعٌ من "الطوائف الجديدة" حسبما يزعمون مرَّة أخرى، هويَّتُها السوق، ووطنُها حيث تصلُ منتجاتُها الأثيريَّة. فتتراجع الجغرافيا السياسية، من علاقات بين الدول، لصالح علاقاتٍ جديدةٍ تقومُ على استباحةِ الحدود الوطنية. فتتشكَّل بفعلِ كل ذلك، هويّاتٌ ثقافيةٌ مرنةٌ، متعدِّدةُ الانتماءَاتِ، كما يزعمون مرة ثالثة. شأنها، هو شأن الشركات المتعدِّدة الجنسية، وشأن رأس المال المالي، اللذان لا وطن لهما.

IV ـ نهاية العولمة...، وحلول "الأمركة" أو "الكولونيالية الأميركية "، مكانها.

إلا أن صيغة العولمة المتعدِّدة الأقطاب لم تُعَمِّر طويلاً. فمع بداية التسعينات من القرن العشرين، قرَّرت الولايات المتحدة، أن تهيمن على العالم بمفردها. فتحتله عسكرياً، ثم تُعيد تركيبه، بما يخدُم مصالحَها الستراتيجية. هذا ما أعلنَه قادتُها، وهذا ما فعلُوه. سيُحارب الأميركيون في كل بقاع العالم. سينتصرون، ثم يعيدون تركيب البلدان المهزومة، بما يخدم مصالحهم الستراتيجية. في البلقان، وفي أوروبا الوسطى والشرقية. في أفغانستان، وفي آسيا الوسطى. وأخيراً، وليس آخراً في العراق، وفي لبنان، ودائماً دائماً... في فلسطين المحتلَّة المقاوِمة، في جنين، ونابلس، وقلقيلية. ويعلنُ القتلة الصهانيةُ اليوم، أنهم سيُحوِّلون غزَّة المقاوِمة إلى مَحرقةٍ

يُشوى الناس فيها، وسط تواطىء رسمي عربي واضح، وتأييد دولي لا لَبْسَ فيه. وفي هذا السياق، اقتربت المدمِّرة الأميركية يو. إس. إس. كول وزميلاتها من المياه اللبنانية، وكأنهم، وهم في قمة عدوانيتهم، قد نسوا الماضي القريب في العام 1983، حين هرب المارينز من مطار بيروت، ومن سفارتهم فيها، وهربت وراءهم في حينه، المدمرة نيوجرسي. أن تَقبلَ الولاياتُ المتّحدة الأميركية بشركاء، فهذا تنازلٌ منها غير مبرَّر، عند احتسابها لعناصر قوَّتها. فهي، بمعايير اليوم، القوةُ "الأعظم" الوحيدة. فعدد سكّانها هو الأكثر بين زملائها الأغنياء، واقتصادُها هو الأقوى، وحصَّتها المالية هي الأكبر، وقوتها العسكرية لم تعرف البشرية مثيلاً لها.

ولن نفهم ظاهرة غياب الشخصية الوطنية والقومية، في بعض أوجه الثقافة، في العمران وفي العمارة، في ظل الهيمنة الأميركية، إلا إذا رأينا في هذه الظاهرة، جزءاً من التأثير المدمِّر للهيمنة الأميركية، في مجمل حياتنا الإجتماعية والثقافية. فاللافت في هذه الهيمنة، هو تعميمُ نمط الحياة الأميركية بكل الوسائل.

ـ يبدأ هذا التعميم، بقلب كلِّ القيم، وكلِّ المفاهيم، وكلِّ المقاييس. وبتعميم بدائلَ لها، آتيةً من الولايات المتحدة، عبر مختلف وسائل الإتصال. ومن هذه القيم الوافدة، موقع الجسد، في اهتمامات الناس وفي اهتمامات الشباب خاصةً، وموقع اللّيَاقة البدنية ومعايير الفتنة، والموقف

من السيارة كوسيلة للظهور الإجتماعي، والتركيز على الكماليات، كالعطور، ومستحضرات التجميل، وجراحة "نحت" الجسد، ومساحيق التنحيف... إلخ.

ـ ينجم عن كل ذلك، تعميمُ أنماطِ استهلاكية، وافتعالُ حاجاتٍ وهمية، ودفعُ الناس إلى استهلاكٍ نهمٍ، لما تتطلبّه الحاجات الوهمية هذه. (الهاتف الخليوي، وصفات الريجيم المعقَّدة، أكسسوارات الزينة...).

ـ كما ينجم عنه أيضاً، إفراغ الإنتاج البشري والإنتاج الوطني، من أية قيمة، وتحويله إلى سلع، في المأكل، والملبس، والموسيقى، والسينما، والتلفزيون، في العمارة والمدينة...، في كل شيء.

ـ ويصبح الأغنياء، هدفَ كلِّ اهتمام. إذ تتوفَّر لديهم القدرة على الشراء، ويُهمَلُ الآخرون. فيسود بين الناس قانون الإصطفاء، وكأن المجتمعات غابة وحوش، البقاء فيها للأقوى. والقوة هنا، هي القدرة على الشراء.

ـ فتزداد الفروقات الإجتماعية، ويسود سوء توزيع الثروة الوطنية، وتبرز فروقات فاقعة في مستوى الحياة، بما يساعد على استفحال الرشوة، وعلى فساد الدولة وإضعافها، وتحوُّلها إلى مجرَّدِ دركيٍّ، لحماية المصالح الخاصة.

ـ ولتثبيت هذا الانحدار الإجتماعي، تُمعن الثقافة الأميركية الرائجة، في التركيز على وهم "فردية" الفرد،

بهدف إلغاء مفهوم الجماعة. كما تبالغ "بالخيار الشخصي"، باسم الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، منعاً لأي اختيار جماعي، يعزز مفهوم التعاضد الإجتماعي. وتركِّز على مفهوم "الإنسان الفرد المستقل"، غير المنتمي إلى أية قضية، خارج انتمائه إلى "الإنسانية"، بما يساعد على طمس كل الفروقات العرقية والإجتماعية الموجودة والظالمة، ويساهم في حجب الصراعات التي يعجُّ بها المجتمع. إن إغراق مجتمعنا بكل هذه الآفات، يُعمِّق الشعور الكامن بالهزيمة لدى الشباب خاصة، ويَقتُل فيهم روح الصمود والمقاومة، ويدفعهم إلى الإستسلام أمام الغطرسة الإسرائيلية، تحميها اليوم، الهيمنة الأميركية المطلقة.

٧ ـ شخصيتنا في الثقافة، في العمران وفي العمارة.... بمواجهة "الأمركة".

ثمة استنتاجات عدَّة، نستخلصها من البحث في مسألة شخصيتنا في الثقافة، في العمران وفي العمارة.

أولها: أعادت الولايات المتحدة الأميركية في العقد الماضي وفي العقد الحالي، الكرة الأرضية إلى الزمن الكولونيالي، لتسيطر عليها بمفردها.





الأمركة

ثانيها: يبدو جلياً من الإستنتاج الأول، أن "العولمة التعدّدية"، مفهوماً وأدوات، قد سقطت، لصالح "الأمركة" مفهوماً وأدوات، أيضاً. " فالعولمة " في المفهوم، هي الهيمنة الخادعة، اللطيفةُ المظهر، أدواتُها ليّنة، تكاد تكون غير مرئية، وإن اعتمدت ثقافةَ الصورةِ منطلقاً. أما "الأمركة"، فهي الانصياعُ الذي لا لَبْسَ فيه، والخضوعُ المطلقُ للزمن الكولونيالي الجديد، وأدواتُها عسكريةٌ دموية، دون لبس أو تعمية.

ثالثها: لا تكتفي "الأمركة"، بما كانت قد إقترحته العولمة، من هيمنة على الوطن، ومن اجتياز حدوده عنوةً، ومن اختراق ثقافة الجماعة فيه، مع إيهامها بالمشاركة في ثقافةٍ عالمية تختصرُ القيمَ الجديدة. بل تصِرُّ، على إزاحة كلّ أشكال الوجود الوطني السابق لسيطرتها، وعلى استبداله بوجودها في كل الميادين:

في الموقع العالمي، والاستقلال الوطني، والهوية الحضارية، والخصوصية التاريخية، وصيغ اجتماع الناس.

ورابعها: "الأمركة" إذاً، هي "الكولونيالية" أكرّر. إنها تجريدُنا من استقلالنا الوطني وانتمائنا القومي. والمسألة الملحة اليوم عندنا،هي المسألة الوطنية والقومية. إذ كي يكون لإنساننا كل الحقوق التي تعطيها له إنسانيتُه، علينا أن نعيش في وطنٍ حرٍّ، يكون لنا بدون شروط. فالوطن السيد، الحر، المستقل، والذي لا لبس في انتمائه القومي العربي، هو

المجالُ الوحيدُ، المتاحُ، للعملِ على تغيير ظروف حياتنا، بتغيير النظام السياسي الذي يحكمنا. والأمبراطور الأعظم، لن يُزيل من فوق صدورنا، دكتاتوراً، أو مستبداً، ليحرِّرنا. بل ليعيد تكبيلنا بطغيان أشد استبداداً. فالحرية لا تُهدى، الحرية تُنتَزع.

ننتزع مجدَّداً استقلالنا الوطني، فنحمي شخصيتنا الوطنية والقومية، ومعها شخصيتنا الثقافية. وشخصيتنا في العمران وفي العمارة، هي جزءٌ مكوِّنٌ، من شخصيتنا الثقافية هذه.

خامسها: سترتفع الأصوات ربما، معترضةً على مفهوم "حماية الخصوصية الوطنية والقومية"، في الثقافة، في العمران، وفي العمارة، متلطِّيةً بالتعددية، وبالإنفتاح، وبالتفاعل المعرفي الحر.

مهلاً أقول للمعترضين، لا رغبة لديَّ بتقنين التعددية، أو بتقييد التفاعل الثقافي الحر. فالخطر على التعددية، إنما يكمن في "الأمركة"، بما تفرضه من ثقافة سطحية تُبهر، فتُهيمن. والحفاظُ على الشخصية الوطنية والقومية في الثقافة، في العمران وفي العمارة، هو جوهرُ التعددية الحقيقيَّة، المتفاعلة، من موقع النِدِّية والمساواة، لا من موقع، الخضوع، والذيلية، والتبعية. وهل نكون تعدُّديين، أسألُ المعترضين، إذا تكلَّمنا جميعاً الاميركية!؟ ألا ترون زحف اللغة الأميركية، وهي تزيح كل اللغات، وفي مقدمتها الفرنسية، والألمانية، وبالتأكيد، العربية أيضاً. أين يصبح

الشِعر..؟ أين يصبح الأدب..؟ أين تصبح كل فنون الكتابة..؟ إذا سيطرت الأميركية وحدها، عند كل الذين يكتبون!؟

ثم أسأل المعترضين، مرة أخرى؟ ما هي فائدةُ هذه الدزينة من الجامعات والمعاهد في لبنان، والتي تُعنى كُلها بتعليّم العمران والعمارة، وفيها ما يزيد سنوياً عن ألف طالب وطالبة؟ ما فائدة كل هذه الجامعات والمعاهد، إذا سيطر فيها التعليم الواحد؟ والمعرفة الواحدة؟ والنقل البدائي الواحد؟ عن العمارة البليدة السائدة في عالم اليوم، تفرضُها علينا، الأمركة الكولونيالية!؟ وما هي مكوّنات التعدُّدية في العالم، إذا لم تكن تعدُّد الثقافات الحرة فيه!؟ وتفاعُلها!؟ فتتكوَّن الثقافة المسمَّاة عالمية، من هذا التفاعل، بعيداً عن الإحادية والسيطرة.

وسادسها: ثم يقول المعترضون ربما، إن الحرص على "الشخصية الوطنية والقومية"، في الثقافة، في العمران وفي العمارة، سوف يؤدي إلى الظلامية، إلى الإنغلاق، وإلى التقوقع.

فمهلاً أقول مرة أخرى، متسائلاً!؟ هل نخاف فعلاً من الظلامية!؟ هل نخاف فعلاً من الإنغلاق!؟ هل نخاف فعلاً من التقوقع!؟ أم أن بعضنا من المبهورين بالأمركة، يتلطى بهذا الخوف المزعوم!؟ كي يزيد من تغريبنا ومن انسلابنا،

ويُمعن في تجريد المجتمع، من الحد الأدنى من عناصر التماسك والمقاومة فيه!؟

من أي نافذة سيتسلل الإنغلاق، أسأل بصدق!؟ ومن أي باب سيدخل التقوقع!؟

■ **من التعليم ما قبل الجامعي!؟** وفي لبنان ما يناهز المليون تلميذ وتلميذة. وكل طائفةٍ لها مدارسُها، وكلُّ مذهبٍ له مدارسه، وكلُّ الجمعيات لها مدارسها، وكل الدول الغربية الصديقة كما يسمُّونها وهي كثيرة، لها مدارسها، والدولة، ولله الحمد، لها مدارسها أيضاً.

■ **من التعليم الجامعي!؟** وفي لبنان ما يزيد عن ماية وثلاثين ألف طالب وطالبة، موزعين على ما يناهز الستين جامعة ومعهداً جامعياً، تتوزع بدورها على الطوائف، والمذاهب، والجمعيات، وعلى الدول الغربية الصديقة كما يسمُّونها مرة أخرى، وما أكثرها!؟ دون أن ننسى بالتأكيد، جامعتنا الوطنية!؟

■ **من الاعلام المرئي!؟** وعندنا من المحطات الأرضية ومن المحطات الفضائية، ما يوازي عدد "الأرضيات" "والفضائيات" الموجودة في بريطانيا وفرنسا، وربما في ايطاليا أيضاً، مجتمعةً!؟

■ **أنظروا إلى "الفاشن"، والموضة، و"الدارج"،** عندنا في لبنان، وربما في أرجاءٍ أخرى من الوطن العربي!؟ في المأكل، والملبس، والمظهر، وطرق العيش!؟ أنظروا،

وقارنـوا مـع أكثر البلدان رقياً في العالم، وفق معايير الرقي السائدة اليوم. انظروا وقارنوا ما ترونه عندنا، مع ما ترونه في فرنسا، وبريطانيا، وأيطاليا مثلاً! هل نقلُّ انفتاحـاً عنهم!؟

أجزم، بعد تجربة، أننا نفوقهُم انفتاحاً ورقياً، بالمقاييس المعروفة اليوم، أكرِّر. يكفي أن تنظروا إلى الصبايا عندنا، فترون بطونهنَّ عارية، ومؤخراتهن ناتئة من فلقتين مرسومتين بتأنٍّ، وظهورهُنّ عارية، مزينة بالوشم في أسفلها... في الأماكن الرمزية الدالة...، الدالة على ثقافة عصرية يزعمون، تعمُّ المدن، والقرى، والدساكر النائية. إنظروا إلى شفاههنَّ المنفوخة، وإلى صدورهنَّ المندلقة، وإلى ملابسهن خرقاً، لا تستر إلا القليل من أجسادهن المنفلشة في كل الإتجاهات.

انظروا إلى الشبان، شبان اليوم، برؤوسهم الحليقة، أو بشعرهم الملوَّن بألوان قوس القزح، أو الأشعث الغرائبي المصَفَّف بكلفة عالية، وبنظَّاراتهم السوداء القاتمة، وبسراويلهم القصيرة المحشوة بالجيوب، وكأنهم ذاهبون في رحلة صيدٍ واعدةٍ.

انظروا إلى الهاتف الخليوي في كل الأيدي، وإلى السيارات الكبيرة (فور دبليو ديّ) تمتطيها الصبايا حصراً، بالجزمات العالية الداكنة أو الذهبيَّة اللون، وبالأجساد لا ستر عليها.

انظروا، ودقِّقوا، وقولوا، من أي نافذةٍ ستأتي الظلامية، سيأتي الانغلاق!؟ ومن أي باب سيدخل التقوقع!؟



الأمركة في شوارع بيروت

نحن لسنا منفتحين فقط، بل نحن مفتوحون! والفتحة في ثقافتنا واسعة كالجحيم. أن التافه، والسطحي، والنمطي الممل، قد اخترقنا، قد ولجنا.

VI ـ الخلاصة. شخصيتنا في الثقافة، في العمران وفي العمارة.... ليست قناعاً لمسرحية.

إن ما نخافُ منه في الخلاصة، هو أن نصبح عراةً، أمام اية غزوة!

نخافُ، من أن نَفقُدَ الحدَّ الادنى من التجانس المجتمعي!

نخافُ، من أن نُضِيعَ الحدَّ الأدنى من التماسك الوطني!

نخافُ، من أن نُصبحَ أوراقاً تائهةً دون وزنٍ، تقذف بنا ريح التقليدِ والنقلِ في كل الاتجاهات، فتتلَّقفنا "الأمركة الكولونيالية"، وقد فقدنا كل عناصر المقاومة والمواجهة.

لا مستقبلَ بدونِ ماضٍ، وعلينا عبرَ الحاضر، أن نصلَ الماضي بالمستقبل .

لا قوالبَ جاهزة، يُمكنها أن تُساعد في هذا الوصل، ولا صِيَغ جامدة، يمكنها أن تنتج ثقافةً أصيلةً، وعمارةً لا نقلٌ بدائيٌ فيها، ولا حنين بكائيّ.

علينا أن نتعلَّم باستمرار. علينا أن نَغرُفَ من كل تقنيةٍ مفيدةٍ، ومن كل تكنولوجيا ملائمة.

علينا أن نَغرُفَ من الثقافة الحقيقية، لا من الموضة،

ومن النمطي السائد، "عولمةً" كانت الموضةُ، وكان النمطُ، أم "أمركةً".

علينا أن لا تكون شخصيتنا في الثقافة، في العمران وفي العمارة... قناعاً لمسرحية، كما تعرّف اللغة اللاتينية، كلمة "شخص".

VII ـ وماذا في الخاتمة، عن المقاومة في إطار المواجهة؟ ماذا عن الحرب؟ والنصر...؟ وإعادة الإعمار؟

وماذا في الخاتمة، عن المقاومة في إطار المواجهة؟ ماذا عن الحرب؟ والنصر؟ وإعادة الإعمار؟

ربما يكون السياق الفكري للنص، في كلامي عن الأمركة عندنا في لبنان، قد دفعني، في منحىً سجاليٍّ صافٍ، إلى الإسهاب في مقارعة أيديولوجية "القشرة الإجتماعية" التي تطفو على سطح الإجتماع اللبناني، تلك القشرة المبهورة بالأمركة، أو المتواطئة معها، لا فرق. فلا يغرَّننا انتشار هذه القشرة وضجيج تحرُّكِها، واحتلالُها مساحاتٍ مدفوعة الثمن في وسائل الإعلام المرئية خاصةً، وما أكثرها. فهي، مهما بدت سميكةً، متمددةً وضاجَّة، تظل قشرةً، غير لصيقةٍ بجسم الإجتماع اللبناني، هذا الجسم المتعاضد، تصنعه أكثريةٌ واضحةٌ من اللبنانيين، المتمسكين بعروبتهم، والمتلاحمين مع مقاوَمتهم، وهي: "بضعة آلاف

من المقاتلين، في تنظيم شبه عسكري، هزمت أقوى جيوش المنطقة، مستعيراً صيغة القاضي الصهيوني، فينوغراد".

هُزِمَ الجيشُ الصهيوني، ولم يستطع إفراغ الأمكنة. لم يستطع إبقاءها فارغة كما خطَّط، رغم دعم المتواطئين. عاد الناس في اليوم الثاني، في 14 آب 2006، مع إعلان توقف الأعمال الحربية، غير منتظرين إعلان وقف إطلاق النار، الذي لم يعلن إلى الآن.

عاد النازحون... جميعُهم. عادوا إلى قراهم المهدَّمة، يستظلوُن خيمةً أو شجرةً أو بقيةً من سقف. عادوا إلى الأرض التي عشقوها، وإلى التراب الذي سقوه بدمائهم.

وفي ضوء هذه الدلالات، يصبح الهدف الأول لإعادة الإعمار، تأمين عودة سريعة للنازحين، كي لا يطول انقطاعهم وتطول غربتهم، فتحدُثُ فجواتٌ عميقةٌ في ذاكرتهم الجماعية، يصعب ردمها. وكي يُحافَظ على تعلُّقِهم العاطفي بالأمكنة التي تملَّكوها عقوداً: في عيتا الشعب، وعيناثا، وبنت جبيل، والخيام، والطيبة، والعديسة....، في الضاحية الجنوبية، وفي حارة حريك تحديداً.

وكلُّ قراءةٍ في حجم الدمار في الضاحية عامةً، وفي حارة حريك خاصةً، وفي تأثيره، رغم قساوته ووحشيته، في مجمل النسيج المبني، عليها أن تتم من منظار العودة السريعة المذكورة. فالدمار موضعي لا يتعدى الأربعين هكتاراً، أي أقل من نصف كيلومترٍ مربعٍ. وللمقارنة فإن مساحة سوليدير

في وسط بيروت، هي ثلاثة أضعاف المساحة المستهدفة في حارة حريك، ومع ردم البحر قبالتها، تصبح بحدود الخمسة أضعاف، أي مليون وثمانماية ألف متراً مربعاً.

● والتنظيم المديني المطلوب في هذه الحالة، هو تنظيم مديني موضعي، أقربُ إلى الخياطة، أو حتى أقرب إلى "الرتي". منظِّم المدن هنا، هو خيَّاط، إنه رتَّى، ربما.

● والتنظيم المديني المطلوب، هو بعيد كل البعد عن المفاهيم الجراحية في التنظيم، وعن مفاهيم الأرض المحروقة، والطاولة الفارغة، يرسُم عليها مُنظِّم المدن ما يشاء، متلطياً بمفرداتٍ أقنعةٍ، مثل التحديث، وجودة الحياة، والحفاظ على البيئة، وغيرها من وسائل التعمية، يخدُم بها التجَّارَ، وأصحابَ الرساميل، والطامعينَ بالملكياتِ العقارية الكبرى، من أي جهة أتوا.

● والتنظيم المديني المطلوب، عليه أن يُنتج مبانٍ قياساتها مماثلة للمباني التي هُدِّمت، لتتناغم بعد تشييدها مع المباني التي تجاورها مباشرة، أو تلك الموجودة في الإمتدادات المتاخمة. إنه تنظيم مديني يحصُر الدمار، ويرمِّم كل ما يمكن ترميمه، خلافاً لما حصل في أماكن أخرى من بيروت، وفي سوليدير تحديداً، من تدمير متعمَّد، طال 85% من تاريخ المدينة. وهو تنظيمٌ مدينيٌ يحرُصُ على الذاكرة الجماعية للناس، يحميها، ويحصِّنها، لتساهم في وحدة النسيج الاجتماعي وتماسكه. والذاكرة الجماعية للناس

يحتضِنُها الحيِّز العام في المدينة أو في جزءٍ منها، أي الطرقاتُ، والشوارع الرئيسة والفرعية، والدروب، والساحات، والفسحات، والحدائق. إنَّه الأرصفة خاصة.

● سيحافظ التنظيم المديني المطلوب إذاً، على مسارات الشوارع الموجودة، وعلى العقارات كما كانت عليه بحدودها وبمساحتها، وعلى الملكيات العقارية، وعلى الحقوق المُثْبَتة للسكّان. لا شركات عقارية هنا، تنتزع ملكيَّات الناس، وتَغتصب حقوقهم عبر التدمير وعبر لجان التخمين الظالمة، كما حصل في سوليدير، حيث تم تفريغ وسط العاصمة التاريخي من سكانه، بتهجير ما يقارب 135000 من المالكين وأصحاب الحقوق فيه. لا ضمّ، ولا إفراز جديد، يغيِّر النسيج المديني، متلطياً بصعوبات التعامل مع الحقوق المتعددة كما فعلت سوليدير مكرراً للمرة الثالثة، ومؤدياً بالضرورة إلى تغيير الملكية، وتغيير النسيج الاجتماعي.

● والهدف الرئيس للتنظيم المديني الذي نتبنَّاه،هو إنتاج نسيج مديني عصريٍّ، مرحِّبٍ، أليفٍ، يُعيد احتضانهُ للنسيج الاجتماعي، الذي سَكَنه خلال عقود. والنسيج الاجتماعي هذا، إنما عرفناه نسيجاً متعاضداً، متماسكاً، متعلّقاً بالأمكنة التي سكنها، عاشقاً لأرضه. وسوف يعود هذا النسيج بعد إعادة الإعمار، إلى تعاضده، وتماسكه، في ضاحيته الجنوبية كما يرى البعض، وفي جنوب بيروت كما أرى أنا، رافضاً مقولة الضاحية، لأن المدينة قد امتدت إليها منذ زمنٍ بعيد.

هذه هي بعض الأسس التي قام عليها "مشروع وعد" لإعادة إعمار الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت، ولإعادة إعمار قلب حارة حريك المدمَّر بصورة خاصة.

VIII

● أن إعادة إعمار قلب حارة حريك، في الظروف المحلية والاقليمية والدولية الراهنة، هو فعلُ مقاومة.

● وتنظيم المنطقة، وفق معايير مدينية واضحة، جوهرُها جودةُ حياةِ الناس فيها، والخروجِ بها من "قوقعة الضاحية"، إلى رحاب المدينة العصرية، هو فعلُ مقاومة.

● والتفتيش عن الجمال في النسيج الذي سيُبنى وفي عمارته، يكون في إدراك الملائم لطرق عيش الناس، وهو بالتالي فعلُ مقاومة.

● وعودة النازحين السريعة إلى مساكنهم، وأشغالهم، وكامل حقوقهم، هو فعلُ مقاومة.

● فلنعمِّرِ إذاً، ونقاوم.

الاخبار في 29 نيسان 2008

فهرس المحتويات

القسم الثاني

من العمارة إلى المدينة

القسم الثالث

العمارة، التراث والمجتمع

القسم الرابع

حرب تموز، وإعمار الضاحية الجنوبية لبيروت

القسم الخامس

في تعليم العمارة في الوطن العربي
وفي الثقافة الوطنية، ومواجهة الأمركة


منتدى سور الأزبكية

يقدِّم لنا الكاتب ـ كما عبر كاميرا سينمائية ذكية ـ صوراً حيَّة لمدينة بيروت من الجو ومن جوانبها وعبر حاراتها، ولكن ليس فقط كما هي الآن، بل عبر تحوّلاتها التاريخية وترابط البنيان بالتحوّلات الاجتماعية وحالات السكان فيتجلّى، بهذا المعنى الواسع لكلمة «العمران» التي لا تعني العمارة فقط بل هي تعني ـ حسب ابن خلدون ـ عمران المجتمع بناسه وبنيانه وحركته وتناميه... وهنا يبذل الكاتب جهداً معرفياً دقيقاً حيث يصوغ تعريفات بما تعنيه أو تدلّ عليه كلمات، مثل: العِمارة ـ عَمَرَ المكان ـ عَمُرَ المكان ـ معْمور، الخ... ثم العمارة بما هي ثلاثية القيم: وظيفية، جمالية، رمزية...

ولكن ما يُبنى أو يُرمَّم في وسط المدينة الذي تملَّكته شركة عقارية واحدة قامت على أنقاض حقوق الناس والمالكين الأصليين لذلك النسيج الذي كان يشكّل عمراناً حقيقياً لوسط بيروت... أما هذا الذي يُعاد بناؤه أو يُرمَّم فليس عمراناً، لا بالمعنى الخلدوني، ولا بالمعنى الاجتماعي والحقوقي للعمران!

(من المقدمة)



ISBN 978-9953-71-513-1

9 789953 715131